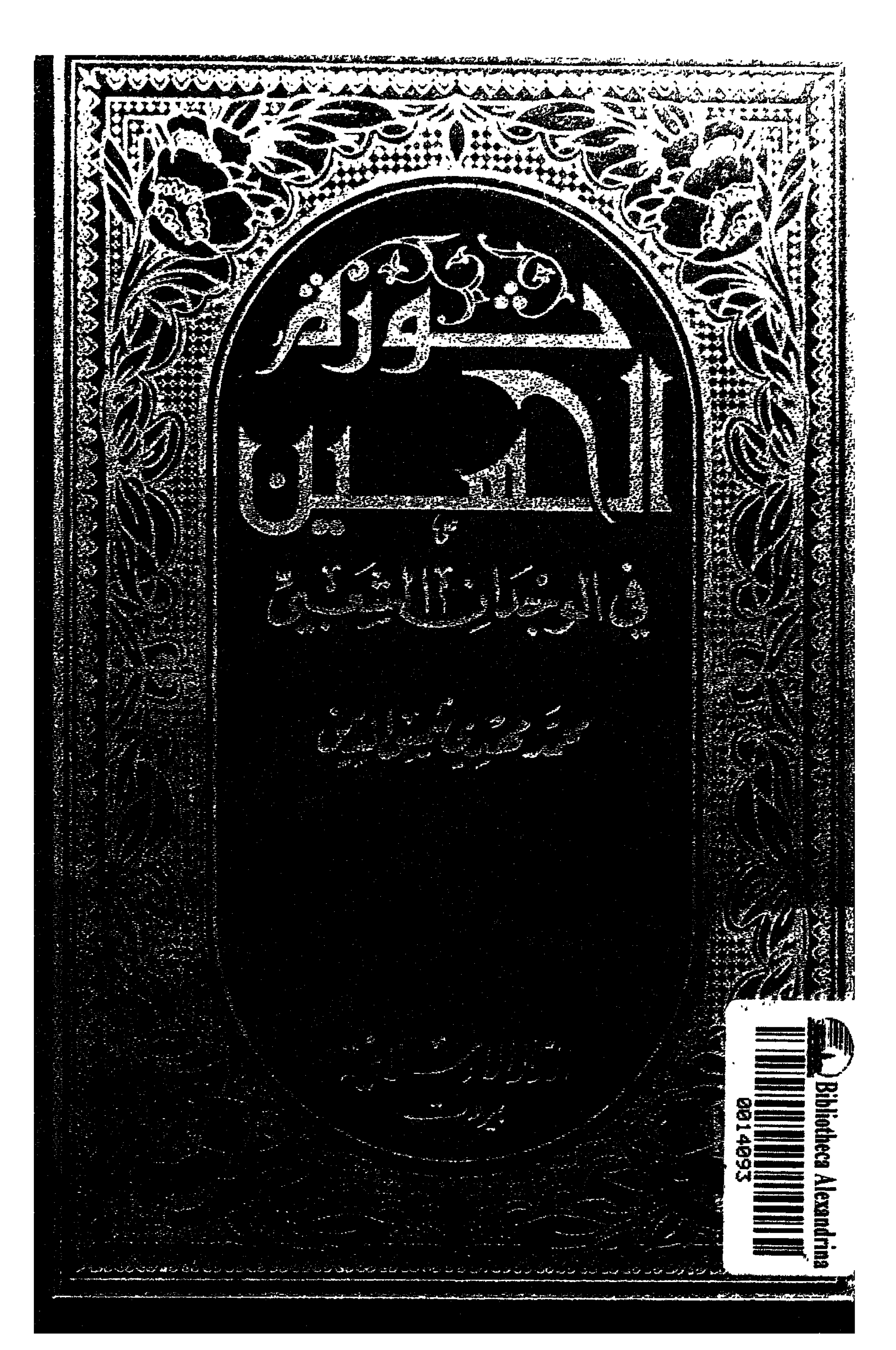








ثورة الحسين

في الوجدان الشعبي

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

محمد مهدي شمس الدين

ثورة الحسين عليه السلام

في الوجدان الشعبي

الدار الاسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على

محمد وآله الطاهرين



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

نسأل :

ما معنى أن نطلق صفة الخلود على إنسان من الناس ، أو حدث تاريخي من أحداث الناس ، أو رائعة من روائع العقل والقلب أبدَعها أحد من الناس ؟

ونُجيب :

أن نستشعر الحاجة إليها باستمرار ، أو بين الحين والآخر .

نعود إلى الإنسان الخالد فنقرأ ، أو نسمع ، أو نرى تاريخه ، ونستعيد حياته .

ونعود إلى الحدث الخالد فنستردّه في عقولنا وقلوبنا ، ونثري به حياتنا ، ونُغني به وجودنا ، ونضيء به وبصانعيه دروبنا .

ونعود إلى روائع القريحة الإنسانية فنروي بها قلوبنا الظمأى إلى الحق والجمال ..

ونسأل :

كيف ، ولماذا كتب الخلود لبعض الناس ، أو الأحداث ، أو الروائع ؟

ونُجيب :

لأنها تشتمل على الحقيقة الحيَّة الدائمة ، فثمة من الأشخاص والأحداث والآثار ما يشتمل على الباطل وعلى الزيف وعلى الإفتعال ،

وهذا لا يدوم في حياة الناس ، لأنه سرعان ما ينكشف ما فيه من باطل وزيف ، وحينذاك يلفظه الناس من حياتهم التي تصحّح نفسها باستمرار .

ومنها ما يشتمل على حقيقة محدودة ، وعمره محدود بعمر محتواه في حياة الناس .

ومنها ما يشتمل على الحقيقة الحيَّة الدائمة التي تتصل بالتكوين الدائم للعقل والقلب . وهذا يكون خالداً باستمرار ، لأنه يلبّي حاجة دائمة في عقل الإنسان وقلبه ، في مطامحه وآماله الكبار .

وهذا هو ما يصدق بدقة عجيبة على الحسين وعلى ثورته : على الحسين في الخالدين من الناس ، وعلى ثورته في الخالدات من الأحداث .

ومن هنا عودتنا إلى الحسين وإلى ثورته باستمرار .

عودتنا إليه في جميع مراحل حياته ، وعودتنا إليه في الذروة من هذه الحياة وهي ثورته ، نستعيدها ، ونتفهَّمها ، ونعايشه في جميع مراحلها من بدايتها إلى نهايتها الدامية المشرقة . وننفعل بها ، لأننا ، بعد أن اكتشفناها ، اكتشفنا أنفسنا فيها ، اكتشفنا فيها أجزاءً من قلوبنا ، ومن مطامحنا ، ومن إنسانيتنا ، وسمعنا منها أكثر من نداء يهتف بأنبل ما يشتمل عليه تكويننا الإنساني .

وهذا هو السرّ في أن هذه الثورة قد تغلغلت في أعماق الوجدان الشعبي للأمَّة بوجه عام وللمسلمين الشيعة بوجه خاص ، بحيث غدت جزءاً من الجوّ الثقافي العام للإنسان الشيعي ، أَسْهَمَ ، ولا يزال يُسهِم حتى الآن ، بدورٍ هامٍّ في تكوين شخصيَّته الثقافية ، وأخلاقياته الإجتماعية والسياسية .

ونلاحظ أن ثورة الحسين من بين جميع الثورات في تاريخ الإسلام الحافل بالثورات هي الثورة الوحيدة التي لا تزال ذكراها حيَّة غضَّة في حاضر المسلمين كما كانت كذلك في ماضيهم ، وهي الوحيدة من

بين الثورات ، الثـورة التي دخلت في أعمـاق الـوجـدان الشعـبي فأغنته واغتنت به : أغنته بشعاراتها ، وأفكارها ، وأخلاقياتها ، وأهدافها النبيلة . واغتنت بتطلّعاته ، ومطامحه عبر العصور . وما ذلك إلا لأنها « **أمّ الثورات** » في تاريخ الإسلام . إنها كما قلنا في كتابنا : « **ثورة الحسين : ظروفها الإجتماعية وآثارها الإنسانية** » :

« رأس الحربة في التاريخ الثوري . هي الثورة الأولى التي عبّأت الناس ودفعت بهم في الطريق الدامي الطويل ، طريق النضال ، بعد أن كادوا أن يفقدوا روحهم النضاليّة بفعل سياسة الأمويين »[1].

وهي الثورة الوحيدة من بين الثورات في تاريخ الإسلام التي أطلقتْ فيضاً من الإنتاج الشعري والفكري بدأ منذ سنة إحدى وستين للهجرة ولم يتوقّف حتى يومنا هذا .

وهذا الكتاب محاولة لها شرف الرِّيادة لدراسة كينونة ثورة الإمام الحسين في الوجدان الشعبي ، ومظاهر هذه الكينونة .

وهذا الكتاب يأتي بعد كتابين لي عن ثورة الحسين سابقين عليه :

الكتاب الأول هو : « **ثورة الحسين : ظروفها الإجتماعية وآثارها الإنسانية** » وقد صدَرت طبعته الرابعة في بيروت في سنة/ ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

والكتاب الثاني هو : « **أنصار الحسين . دراسة عن شهداء ثورة الحسين ـ الرجال والدلالات** » وقد صدرت الطبعة الأولى منه عن دار الفكر في بيروت سنة ١٩٧٥ م .

---

(١) ثورة الحسين ظروفها الإجتماعية وآثارها الإنسانية (الطبعة الخامسة) ص : ٢٣٦ .

وسيتلو هذه الكتب بتوفيق الله تعالى كتاب رابع عن ثورة الحسين عنوانه : «**قصة الثورة**» وبذلك تتمّ دراستنا عن ثورة الحسين من جميع جوانبها . وبعد ذلك نفرغ ، بإذن الله وتوفيقه ، لدراسة ما تلا ثورة الحسين ، من ثورات وفاءً بالوعد الذي قدّمناه في كتاب ثورة الحسين ، وقلنا فيه : إن دراسة تاريخ الإسلام من خلال الثورات تعطي صورة أصدق وأدقّ مما إذا درس هذا التاريخ وفقاً للأسلوب التقليدي بلا فرق بين أن يكون دراسة للعهود ، أو للأسر الحاكمة .

ونسأل الله تعالى شأنه أن يجعل عملنا هذا وغيره من أعمالنا جهداً في سبيل مرضاته ، وأن يتقبّله منّا بأحسن قبوله ، وأن ينفع به . والحمد لله ربّ العالمين .

محمّد مهدي شمس الدين

الفصل الاول

مُقَدّمَات

١- شَرحُ المُصْطَلح

٢- المَواقِفُ مِنَ الثورَة

أ- عَشِيّة الثورَة

ب - بَعْدَ نِهَايتها

٣ - تَرسِيخ الثورَة في الوِجدَانِ الشعبيّ :

الدوافِع وَالأهدَافُ

٤ - مَسَارِبُ الثورَة إلى الوِجدَانِ الشَعبيّ



١- شَرْحُ المُصْطَلَح

الثورة حدثٌ في زمانٍ ما ، في مكانٍ ما ، يكون لها في الواقع المعاش أسباب سياسية وإجتماعية وإقتصادية ، تدفع بجماعة من الناس إلى الحركة ـ بالعنف ـ ضدّ الواقع القائم ، إمّا لأنه يمثّل إنحرافاً عن مثلٍ أعلى مرسوم وموجود في معتقد الأمّة ، وإمّا لأنه لا يلبّي طموح هذه الجماعة من الناس التي تمثّل النخبة في الأمّة .

وتؤدّي الثورة في حال نجاحها ـ أو فشلها ـ إلى نتائج ؛ تتمثّل ، في حال النجاح ، بتغيير المفاهيم والمؤسّسات في المجتمع وذلك بتحويلها من الصورة التي كانت عليها في الماضي إلى الصورة التي رفع الثائرون ـ الحاكمون الآن ـ شعاراتها عندما ثاروا . وتؤدّي في حال الفشل إلى أن يشدّد النظام القائم من إجراءات القمع ليثبت أركانه ، ويرسّخ مفاهيمه المطبّقة على المجتمع في السياسة والإقتصاد والإجتماع وغير ذلك من شؤون الحياة .

وقد يؤدي فشل الثورة ـ في حالات نادرة ـ إلى أن يغيّر النظام القائم بعض مفاهيمه ، أو يعدّل بعض مؤسّساته بما يلبّي بعض شعارات الثائرين من بعض الوجوه ، إذا رأى أن في ذلك ما يخدم وجوده وتسلّطه ، ويسكت المعارضة الشعبية المتنامية ضدّه ، ويجرّد خصومه من سلاحهم الدعائي .

والهيكل العظمي ـ إذا صحّ التعبير ـ للثورة هو أحداثها المادّية التي تقع في الزمان والمكان ، وهذا هو ما يُعنى بتسجيله التاريخ العام .

ولكن هذه الأحداث وحدها ـ مجرّدة عن علاقاتها بالذهنية العامَّة للأمَّة ، ومجرَّدةً عن انفعال الأمَّة بها ونوع استيعابها لها ـ لا معنى لها ولا دلالة ، إنها تكون ـ حينئذ ـ شيئاً ميتاً لا حياة فيه ولا حركة ، ولذا فإن الأحداث بهذا الإعتبار لا تعني للمفكِّر شيئاً ، إنها قد تكون قصَّة مسلِّية ، ولكنها لا تزيد ـ بهذا الإعتبار ـ على ذلك شيئاً .

إن لحم الأحداث وعصبها ودمها هو مظاهر إنعكاساتها في الذهنية العامة للأمَّة ، وردود الفعل التي بعثها في نفوس مختلف الفئات توقع الثورة ، ثم ردود الفعل التي بعثتها الثورة بعد أن وقعت .

إن الثورة بهذا الإعتبار ـ فاشلة كانت أو ناجحة ـ تكون مؤثِّرة وفاعلة في محيطها البشري ، وبهذا الإعتبار تأخذ مكانها في التاريخ الحيّ للأمَّة ، التاريخ الذي يفعل فيها وينفعل بها ، ويستمرّ في الزمان والمكان والإنسان ، ولا ينتهي أثره بانتهاء زمانـه، أو تغيّر مكانه ، أو موت إنسانه .

إن الثورة بهذا الإعتبار تكون فاعلة في الأمَّة ومنفعلة بها .

تكون فاعلة في الأمّة من حيث أنها تقدّم للأمَّة ـ قياداتٍ وأتباعاً ـ نماذج ترسم الأمَّة على غرارها مواقعها في مواجهة الأحداث والمواقفِ التي تعرض لها في مسيرتها نحو المستقبل .

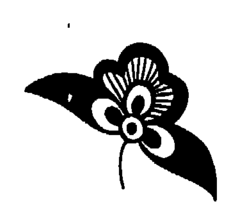
وتكون الثورة منفعلة بالأمَّة من حيث أن صورة الأحداث في الذهنية العامة للأمَّة تتأثَّر بحالاتها النفسية في النكبات التي تنزل بها ، والإنتصارات التي تفوز بها ، والمصاعب التي تواجهها وتعاني منها ، فقد تحرِّف الأحداث وتغيِّر مكوِّناتها لتلائم بينها وبين حالها الحاضر ، وقد تبقي مكوِّنات الأحداث على حالها ولكنها تعطي للأحداث تفسيرات تلائم الموقف الفعلي الذي تمرّ فيه الآن ، إنها في هذه الحالة تمارس ما يسمى بعملية : « الإسقاط » .

ومن هنا يبدو بوضوح أن التاريخ ـ بهذا الإعتبار ـ شيء حيّ متحرّك في عقل الأمة وعاطفتها ، وليس تراثاً تربطها به علاقة نظرية . إن العلاقة التي تربط بين الأمّة وبين تاريخها ـ بهذا الإعتبار ـ علاقة حيَّة تعكس تفاعل الأمّة مع التاريخ في حركة عطاءٍ وأخذ مستمرّة .

فالتاريخ ـ بهذا الإعتبار ـ قد يكون حافزاً لاقتحام المستقبل ، ونوراً هادياً في مسيرة الأمَّة نحو تحقيق طموحها . وقد يكون مرآة للحاضر النفسي الذي تعيشه الأمَّة الآن ، ومبرّراً لواقعها الذي ترسف في أغلاله .

إن هذه النظرة إلى الحدث التاريخي هو ما نصطلح عليه بـ « التاريخ في الوجدان الشعبي » وهو ما نعنيه بـ « ثورة الحسين في الوجدان الشعبي » حيث أننا في هذا البحث نريد أن نتقصَّى إنعكاساتِ الثورة في سلوك الناس ومواقفهم من أحداثها ، ونوعية ممارستهم لإحيائها ، وكيفيَّة صلتهم بها ، وكيف تأثَّرت الأحداث بمواقفهم النفسيّة فحوَّرت وغيَّرتْ مكوِّناتها ، أو أُعطيَتْ معاني وتفسيرات جديدة غير معانيها ودلالاتها الأساسيَّة .

وآمل أن يقدّم هذا البحث صورة أمينة لثورة الحسين في الوجدان الشعبي بوجه عام ، وللمسلمين الشيعة بوجه خاصّ .





٢ - المَوَاقِفُ مِنَ الثورَة

أ- عَشِيّةَ الثورَة

لقد واجه المسلمون توقُّع ثورة الحسين حين عرفوا عزمه على الثورة بمواقف ثلاثة ، كما نفهم ذلك من خلال ردود الفعل التي ظهرَت من القيادات الدينية والسياسية الممثِّلة للمسلمين في ذلك الحين .

الموقف الأول :

موقف شيعة أهل البيت وبعض المسلمين الآخرين من غير الشيعة ممن دفعتهم إعتبارات قبلية خاصة أو سياسية عامة إلى تبنّي موقف شيعة أهل البيت ، وهو التحريض على الثورة ، وتقديم الوعود لها بالنصر والتأييد ، والقيام ببعض الإنجازات الفعلية في سبيلها .

نجد شواهد ذلك في أحداث الثورة الحسينية منذ رفض الإمام الحسين البيعة ليزيد بن معاوية وغادر المدينة إلى مكة .

بل نجد شواهد ذلك قبل وفاة معاوية في مساعي الكوفيّين مع الإمام الحسين ليثور ، ويصحِّح ـ بزعمهم ـ الوضع الذي نشأ على إثر إبرام الصلح بين معاوية وبين الإمام الحسن بن عليّ .

وبعد وفاة معاوية وولاية إبنه يزيد ، وخروج الحسين إلى مكّة توالت عليه كتب زعماء الشيعة في الكوفة ، واشترك في الدعوة والتحريض غيرهم من الزعماء أيضاً وتواترت عليه رسلهم ، وقاطعوا عامل الأمويّين على الكوفة « النعمان بن بشير الأنصاري » ثم استجابوا لرسول الحسين إليهم « **مسلم بن عقيل** » ، فبايعه منهم ثمانية عشر ألف رجل .

وقد بقي كثير منهم أوفياء لموقفهم بعد أن استعاد النظام الأموي زمام الأمور في الكوفة حين وصل إليها العامل الجديد عبيد الله بن زياد الذي كفَّ يدَ النعمان بن بشير ومارس سلطاته المطلقة على الكوفة بقسوة وسرعة . وإن كان بعضهم قد شلَّه الخوف ، وبعضهم سجن بعد إجهاض حركة مسلم بن عقيل في الكوفة ، وبعضهم حالت بينه وبين اللحاق بالحسين حالة الحصار التي ضربها حول الكوفة عبيد الله بن زياد ، وقد لحق بعض الذين تمكَّنوا من الإفلات من الطوق المضروب حول الكوفة بالحسين في كربلاء ، وحاربوا معه ، واستشهدوا بين يديه .

الموقف الثاني :

موقف الهاشميِّين ، وموقف بعض زعماء القبائل .

أما موقف الهاشميّين فيصوّره كلام محمد بن الحنفيَّة وعبد الله بن عباس .

فقد نصح محمد بن الحنفية أخاه الإمام الحسين عشية خروجه من المدينة قائلاً :

« تخرج إلى مكَّة ، فإن اطمأنَّت بك الدار بها
فذاك الذي نحبّ ، وإن تكن الأخرى خرجتَ
إلى بلاد اليمن ، فإنهم أنصار جدّك وأبيك
وأخيك ، وهم أرقّ وأرأف قلوباً ... »[1].

وتلقى هذه النصيحة من عبد الله بن عباس في مكة ، إذ قال عبد الله بن عباس في حوار جرى بينه وبين الإمام :

« بلغني أنك تريد العراق ، وإنهم أهل غدر ،

---

(١) الخوارزمي ، الموفق بن أحمد المكي ، مقتل الحسين ـ مطبعة الزهراء ـ النجف /١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م ج ١ ، ص : ١٨٧ ـ ١٨٨ .

: إنما يدعونك للحرب فلا تعجل ، وإن أبيتَ إلاَّ محاربة هذا الجبّار وكرهت المقام بمكة فاشخص إلى اليمن واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق فيُخرِجوا أميرهم ، وإن لم يفعلوا أقمت بمكانك إلى أن يأتي الله بأمره ، فإن فيها حصوناً وشعاباً »[1] .

وأمّا موقف غير الهاشميّين فيصوره كلام عبد الله بن مطيع العدوي :

« أذكّرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك ، أنشدك الله في حرمة رسول الله (ص) ، أنشدك الله في حرمة العرب ، فوالله لئن طلبتَ ما في أيدي بني أميّة ليقتلنّك ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً . والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك ، وحرمة قريش ، وحرمة العرب ، فلا تفعل ، ولا تأتِ الكوفة ، ولا تعرض لبني أميّة »[2] .

فهؤلاء يوافقون مبدئياً على الثورة ، ولكنهم يشفقون من نتائجها : بعضهم : — كعبد الله بن مطيع — يجزم بفشلها ، ويعبر عن شعوره بالذعر والهَوْل مما سيعقب هذا الفشل من جرأة الأمويين على كل مقدّس .

---

(١) المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب — مطبعة السعادة بمصر / ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨ م / ج٣ ، ص . ٦٤ . ولاحظ الطبري : ٥ / ٣٨٣ — ٣٨٤ . والخوارزمي . مقتل الحسين . ١ / ٢١٦

ويبدو أن موقف ابن عباس هذا كان استجابة ليزيد بن معاوية الذي طلب منه أن يكفّ الحسين عن الخروج وقد أجابه ابن عباس بكتاب رقيق اللهجة جاء فيه : «إني لأرجو ألا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه . ولست ادع النصيحة له في كل ما يجمع الله به أمر الأمة . وتطفى به الثائرة) — (تاريخ ابن عساكر ، ٤ / ٢٢١ . والتهذيب وهذا يعزز رأينا في أن علاقة العباسيين بالعلويين كانت منذ البدء شكلية وانتهازية — لاحظ كتابنا (أنصار الحسين) ص ١٨٦ ومابعدها .

(٢) الطبري : ٥ / ٣٩٥ — ٣٩٦ .

وبعضهم الآخر يشكّ في نتيجتها ، وينصح باللجوء إلى أمكنة وجماعات تجعل احتمالات النجاح أكبر من احتمالات الفشل .

الموقف الثالث :

الموقف الثالث يمثله عبد الله بن عمر وأمثاله[١] من هؤلاء الورعين ! !؟) الذين اعتزلوا السياسة العامة منذ مقتل عثمان تحت شعار البعد عن الفتنة ، وإن كانوا في موقفهم هذا قد خدموا النظام القائم خدمة كبرى حين جعلوا من أنفسهم فريقاً يعطِّل عمل الطاقات الثورية في المجتمع تحت شعار الورع والبعد عن الفتنة .

قال عبد الله بن عمر للإمام الحسين :

« يا أبا عبد الله ، قد عرفت عداوة هذا البيت لكم ، وظلمهم إيّاكم ، وقد وليَ الناس هذا الرجل ـ يزيد بن معاوية ـ ولست آمن أن يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء ، فيقتلوك ويهلك فيك بشر كثير ... وأنا أشير عليك أن تدخل في صالح ما دخل فيه الناس ، وتصبر كما صبرت من قبل »[٢] .

وعبد الله بن عمر وأمثاله من أصحاب هذا الموقف لم يكونوا من شيعة أهل البيت ، ولم يكونوا من هذا الفريق الثاني المؤمن بعدالة الثورة من حيث المبدأ . ولم يكونوا ـ في الظاهر على الأقلّ ـ من رجال النظام ، وإنما كانوا ينظرون إلى الثورة نظرة عدائية إنطلاقاً من موقف أساس في حياتهم العامة والخاصّة هو المحافظة على الوضع القائم والرضا

---

(١) من هؤلاء : أنس بن مالك ، وزيد بن أرقم . والحسن البصري ، وغيرهم .

(٢) الخوارزمي ، مقتل الحسين : ١/١٩١ .

به ، لا لأنه عادل وإنما لأنه قائم ، ولأن التغيير لا ينسجم مع أمزجتهم ومصالحهم .

ب - بعد نهايتها

لقد واجه المسلمون النهاية الفاجعة للثورة وما أعقبها من ذيول (قطع الرؤوس ، السبي) بثلاثة مواقف أيضاً :

الموقف الأول :

موقف شيعة أهل البيت ، فقد استقبلوا النهاية الفاجعة بالحزن ، والندم ، والغضب . حزنوا بسبب فظاعة ما حدث في كربلاء ، وندموا لأنهم قصَّروا في النصرة والمساندة ، وغضبوا على النظام الأموي لأنه ارتكب الجريمة البشعة .

وقد تفاعل الندم مع الحزن فولَّدا عندهم مزيداً من الغضب ، وولَّدا عندهم رغبةً حارَّةً في التكفير عبَّروا عنها بمواقفهم من النظام ورجاله شعراً ، وخُطَباً ، وثوراتٍ استمرَّت أجيالاً ، وجعلت من شعار «يا لثارات الحسين» شعاراً لكل الثائرين على الأمويين .

الموقف الثاني :

موقف عامة المسلمين غير الملتزمين بالخط السياسي للشيعة وأئمة أهل البيت .

فقد واجه هؤلاء الكارثة بالدهشة والإستنكار . وقد هالهم ما كشفت عنه عملية قمع الثورة من أسلوب معاملة الأمويين لخصومهم السياسيين ، هذا الأسلوب الذي لا يحترم شريعةً ولا أخلاقاً ، ولا

يقيم وزناً حتى للأعراف الإجتماعية .

ولا شكّ في أن هذا الإكتشاف قد دفع بكثير من الزعامات القبلية والشعبية كما دفع بكثير من الناس العاديين إلى إعادة النظر في مواقفهم من النظام الأموي وولائهم له ، ومن أمثلة هؤلاء « عبيد الله بن الحرّ الجعفي » الذي انقلب من موالٍ للنظام لم يستجب إلى نداء الحسين حين دعاه إلى نصرته ، إلى ثائرٍ على النظام ينشيء المراثي في شهداء كربلاء ، ويعلن العصيان[1].

وحتى أولئك (الورعون ! !؟) الذين استقبلوا العزم على الثورة بفتور . وقدّموا نصائحهم بالكفّ عنها ، حتى هؤلاء لم يستطيعوا أن يثبتوا على موقفهم الأول السلبي بالنسبة إلى الثورة فاضطرّوا إلى مجاراة الرأي العام في الدهشة والإستنكار .

فقد كان زيد بن أرقم أحد الحاضرين في مجلس عبيد الله بن زياد في الكوفة لما أدخلت عليه السبايا ورؤوس الشهداء . فبكى لما رأى ابن زياد يضرب بقضيب في يده ثنايا الإمام الحسين عليه السلام ، ولما زجره ابن زياد لبكائه وهدّده ، قال :

« أيها الناس .. أنتم العبيد بعد اليوم . قتلتم ابن فاطمة ، وأمَّرتم ابن مرجانة ، والله ليقتلنّ خياركم ، وليستعبدنّ شراركم ، فبعداً لمن رضي بالذُّلّ والعار »[2].

وقال الحسن البصري لمّا بلغه استشهاد الإمام الحسين :

« واذلّ أمّة قتلت ابن بنت نبيّها ... »[3].

---

(١) الطبري : ٥/٤٦٩ ـ ٤٧٠ .

(٢)

(٣)

الموقف الثالث :

موقف أهل النظام . فقد استقبل هؤلاء البشائر بالقضاء على الثائر بالفرح والبهجة ، وأظهروا شعورهم بالراحة والغبطة . ولم يعف بعضهم عن إظهار الشعور بالتشفّي والشماتة .

فقد أظهر يزيد بن معاوية شعوره بالفرح والغبطة ، بل يبدو أن قدوم السبايا اتخذ مناسبة شعبية فَرِحة استخدمت فيها الموسيقى والأهازيج[1]، ولم يكتم سروره حين أدخلوا عليه السبايا ورأس الإمام الحسين عليه السلام في مجلس حافل .

وكذلك الحال بالنسبة إلى بقية رجال النظام أمثال عبيد الله بن زياد ، ومروان بن الحكم ، وعمرو بن سعيد بن العاص . وغيرهم . وقد عبَّروا عن غبطتهم بعبارات سجَّلها الرواة ونقلها المؤرِّخون[2] .

---

(١) أمالي الصدوق ، ص : ١٠٠ ، مجلس : ٣١ . والخوارزمي ، مقتل الحسين ٢/٦٠ : «خرج الناس بالدفوف والبوقات ، وهم في فرح وسرور .. » .

(٢) من أقبح مواقف الشماتة عمرو بن سعيد بن العاص عامل يزيد بن معاوية على المدينة . فحين نودي بقتل الحسين في المدينة وعلم الناس بذلك ضجت المدينة بأهلها . ولم تسمع داعية قط مثل داعية بني هاشم في دورهن على الحسين . وخرجت ابنة عقيل بن أبي طالب حاسرة ، ومعها نساؤها . وهي تلوي بثوبها وتقول :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

فلما سمع عمرو بن سعيد أصواتهن ضحك ، وقال :

عجت نساء بني زياد عجة ... كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

ثم قال : هذه داعية كداعية عثمان » .

الطبري : ٤/٣٥٦ ـ ٣٥٧ والكامل لابن الاثير : ٣/٣٠٠

ولكن سرعان ما اكتشف أهل النظام أن المسألة لا تدعو إلى البهجة أبداً ، وأنها ليست بالبساطة التي تصوَّروها بها ، فلم تكن هذه الثورة تمرّداً بسيطاً أمكن القضاء عليه بسهولة واستراح النظام من أخطاره .

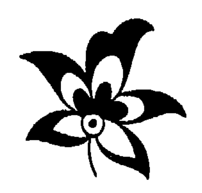
لقد اكتشف رجال النظام أن فشل الثورة ولَّد أخطاراً كبرى ما كانت موجودة من قبل . لقد تفجَّر الموقف كلّه ، ودفع فشل الثورة بشيعة أهل البيت إلى التصلُّب في مواقفهم بعد أن كانوا طيلة عهد معاوية أميَل إلى المهادنة والتسامح . كما أحدثت تصفية الثورة بالطريقة التي حدثت وتسامع بها المسلمون تغييراً كبيراً في مواقف جماعات كبيرة من المسلمين بالنسبة إلى الأمويين ودولتهم . ونقدِّر أن هذا التغير جعل هذه الجماعات مؤهَّلة لاتخاذ مواقف سلبية عملية ضدّ النظام بعد أن غدا موقفها النفسي ضدّ النظام .

عند اكتشاف الأمويين لهذا الواقع الجديد بدؤا جهودهم الإعلامية الرامية إلى تعطيل أثر الفعل النفسي الذي أحدثته الثورة في الأمَّة ، هذا الفعل الذي بدأ يحوّل الأمَّة عن ولائها للنظام إلى إعلان مواقف مناهضة له ، ولمؤسساته ولسياساته .

ولكن ، كما أكتشف أهل النظام خطورة القوى الروحية التي انطلقت من عقالها نتيجة للقضاء على الثورة بالطريقة الوحشية التي اتَّبعت ، وتصدّوا بكل ما يملكون من وسائل الترغيب والترهيب لتعطيل هذه القوى عن عملها ضدّ نظامهم ، فقد اكتشفت بالمقابل القيادات الشيعية ، وعلى رأسها أئمة أهل البيت الإمكانات الهائلة التي هيّأتها الثورة للعمل ضدّ الأمويين وسحق نظامهم والظروف الجديدة الملائمة لنجاح هذا العمل . وقد استعدَّت هذه القيادات لبذل جهود مقابلة لجهود الأمويين تهدف إلى إطلاق شعاع الثورة ونشر تأثيرها النفسي في الأمَّة إلى أبعد مدى وأوسع نطاق .

ونقدّم في ما يلي من هذا الفصل صورة موجزة عن جهود الأمويين الهادفة إلى تعطيل فعل الثورة التحويلي في الأمَّة لتخلص من ذلك إلى تقديم دراسة مفصَّلة عن جهود القيادات الشيعية ـ وعلى رأسها أئمَّة أهل البيت ـ المقابلة لجهود الأمويين ، والهادفة إلى تنشيط فعل الثورة في تحويل الأمَّة عن الولاء للأمويين ، وتأليبها ضدَّهم .

وسنرى أن جهود القيادات الشيعية هي التي كُتب لها النجاح في النهاية .





٣ - ترسيخ الثورة في الوجدان الشعبي : الدوافع والأهداف

لقد تمثّلت جهود الأمويين في سبيل تعطيل فعل الثورة في الأمّة باتجاهين :

الإتجاه الأول :

من حقائق التاريخ عن الثورة الحسينية أن يزيد بن معاوية هو المسؤول الأول عمّا حدث في كربلاء . وقد تلقى النتيجة البشعة بفرح وسرور ، ولم يظهر أي اعتراض على أسلوب ابن زياد الذي اتبعه في معاملة الثائرين ، بل لقد كان ضالعاً في إصدار التوجيهات بشأن هذا الأسلوب . ولكنه عندما تكشّفت عواقب الجريمة حاول التنصّل منها .

وقد اعترف عبيد الله بن زياد لمسافر بن شريح البكري في حوار بينهما بقوله : « أما قتلي الحسين فإنّه أشار إليَّ يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله »[1] .

وقال المؤرّخون :

« ولما وصل رأس الحسين إلى يزيد حسنت حال ابن زياد عنده ، وزاده ، ووصله ، وسرّه ما فعل . ثم لم يلبث إلاّ يسيراً حتى

(١) ابن الأثير ـ الكامل /ج ٤ /ص ١٤٠ .

بلغه بغض الناس له ، ولعنهم ، وسبّهم ، فندم على قتل الحسين »[1].

وقال للنعمان بن بشير الأنصاري .

« الحمد لله الذي قتل الحسين »[2].

هذه الحقيقة دفعت بالقيّمين على النظام الأموي إلى بذل المحاولات الهادفة إلى رفع مسؤولية قمع الثورة بالطريقة الوحشية التي اتُّبعت في كربلاء عن النظام الأموي وعن يزيد بن معاوية ، وإلقاء مسؤولية ذلك على أفراد معيَّنين من رجال النظام وعلى عبيد الله بن زياد بالذات . وبذلك تتوجَّه روح العداء والسخط إلى رجل واحد لا إلى النظام كله ، ولا إلى رمزه الكبير ورأسه : يزيد بـن معاوية .

ويجد الباحث بعض آثار هذا الإتجاه لدى بعض المحدّثين ومنهم ابن حجر الهيثمي الذي ذهب إلى أن يزيد لم يرض بقتل الحسين ولم يأمر به .[3].

ويبدو أن الجهود الإعلامية التي بذلت في هذا السبيل قد تركَّزت في العراق والحجاز دون المنطقة السورية ، فإن الأمويين قد سنّوا فيها إعتبار اليوم العاشر من محرم يوم عيد وفرح وسرور[4] .

---

(١) الطبري والكامـل : ٣/٣٠٠ ، والسيوطي ، تاريخ الخلفـاء : ٢٠٨ وغيرهـا

(٢) الخوارزمي ، مقتل الحسين : ٢/٥٩ .

(٣) الفتاوى الحديثية ، ص : ١٩٣ نقلاً عن مقتل الحسين لعبد الرزاق المقـرم .

(٤) قـال السيد محسن الأمين في كتابه : « إقناع اللائـم » ، نقلاً عن (خطط المقريزي – ج ٢ ص : ٣٨٥) مـا نصه : « فانه – أي المقريزي – بعدمـا ذكر أن العلويين المصريين كانوا يتخذون يوم عـاشـوراء يوم حزن تعطل فيه الأسواق ، قـال . فلما دالت الدولة اتخذ الملوك من بني أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه علي عيالهم ويتبسَّطون في المطاعم ويضعون الحلاوات ويتخذون الأواني الجديدة ، ويكتحلون ويدخلون الحمام جرياً على عادة أهل الشام التي سنها لهم الحجاج في أيـام عبد الملك بن مروان ليرغموا بذلك آناف شيعة علي بن أبـي طـالب كرم الله وجهه الذين اتخذوا يـوم عـاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي لأنه قتل فيه ... وقد أدركنا بقايا ممـا عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يـوم سرور وتبسط ...

=

وقد فشلت هذه المحاولة ، ولم يبرئ الرأي العام يزيدَ ونظامه من الجريمة . وإن كان بعض الفقهاء المتأخّرين ـ بعدما قويَ التيار الشيعي وعبَّر عن ذاته من خلال ممارسة الشعائر الحسينية ـ وقد استغلّ هذه المحاولة الأموية لتبرئة يزيد ، فمنعوا من ذكر يزيد بن معاوية بسوء[1] ولكن الرأي العام كان ضدّ هذه المحاولة فلم يكتب لها النجاح ولم تترك أثراً في الوجدان الشعبي ، بل بقي يزيد بن معاوية في هذا الوجدان رمز الجريمة البشع الكبير[2] .

الإتجاه الثاني :

الإتجاه الثاني هو تشويه الثورة ، ولذا فهو أعظم خطورة من الإتجاه الأول .

= قال السيد الأمين في مكان أخر من كتاب إقناع اللائم : (والصحيح أن الذين سنوهـا ـ أفراح عاشوراء ـ هم بنو أمية كلهم وأتباعهم من زمن يزيد ، لا خصوص الحجاج . ولما دخل سهل بن سعد الصحابي الشام رآهم قد علقوا الستور والحجب والديباج وهم فرحون مستبشرون ، وعندهم نساء يلعبن بالدفوف والطبول ، فقال في نفسه : ترى لأهل الشام عيداً لا نعرفه ؟ ثم علم أن ذلك بسبب دخول رأس الحسين (ع) فعجب لذلك » .

(١) ألف عبدالمغيث بن زهير بن علوي الحربي كتاباً في فضائل يزيد بن معاوية ، منع فيه من لعن يزيد ابن معاوية وقد رد عليه ابن الجوزي بكتاب سماه (الرد على المتعصب العنيد المانع من لعن يزيد ، لاحظ طبقات الحنابلة لابن رجب : ١/٣٥٦ .

(٢) « قيل أن رجلاً قال في مجلس عمر بن عبد العزيز عن يزيد هذا (ابن معاوية) أمير المؤمنين . فقال عمر بن عبد العزيز : تقول : أمير المؤمنين ! وأمر به فضرب عشرين سوطاً تعزيراً لـــه » النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص : ١٦٣)في أخبار سنة ٦٤ هجرية .

قال أبو شامة في كتابه : رجال القرنين ، ص : ٦ في أحداث سنة ، ٥٩٠ : دخـــل بغـــداد أحمد بن اسماعيل بن يوسف القزويني ، فوعظ بالنظامية ، وفي يوم عاشوراء قيل له : إلعن يزيد بن معاوية ، قـــال ذاك إمـــام مجتهد ، ففجأه أحدهـــم فكـــاد يقتل وسقط عن المنبر ، ثم أخرجوه إلى قزوين ومات بها سنة ٥٩٠ هـ .

وذكر ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة ج ٦/١٣٤ في أحداث سنة ٥٩٠ ، قال ان عمـــر بن عبد العزيز القزويني عبر عن يزيد بقوله (أمير المؤمنين يزيد) فأخذت فتاوى العلماء بتعزيره ، وأخرج من بغداد إلى قزوين .

ولهذا الإتجاه في حدود النصوص التي انتهت إلينا مظهران :

الأول : هو تصوير الحسين للرأي العام بأنه طالب ملك ، ولذا فإن غايته من ثورته ليست دينية إسلامية عامّة وإنما هي غاية شخصية ، وعندما يئس من تحقيق هدفه أبدى استعداده للخضوع والتسليم .

وتعكس هذا المظهر رواية ورد فيها أن الحسين قال لعمر بن سعد : إذهب بي إلى يزيد أضع يدي في يده . والذي يدلّ على كذب هذا الخبر ما رواه كثير من المؤرّخين الأثبات عن عقبة بن سمعان ، وكان خادماً للسيدة الرباب زوجة الإمام الحسين وهو من الرجال القليلين الذين سلموا من المذبحة في كربلاء ، فهو شاهد عيان ، قال :

« صحبت الحسين من المدينة إلى مكة ، ومن مكّة إلى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل ، وسمعت جميع مخاطباته الناس إلى يوم مقتله ، فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر به الناس من أنه يضع يده في يد يزيد ، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلتُ منه ، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر إلى مَ يصير إليه أمر الناس ، فلم يفعلوا »[(١)].

وإذن ، فهذه المحاولة كانت قد لقيت حظّاً من النجاح جعل عقبة بن سمعان يعبّر عنها بقوله : « فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر به الناس » .

ولكن يبدو أن هذه المحاولة فشلت في تحقيق نجاح يذكر بعد أن تصدّى شهود العيان لدحضها وتكذيبها .

---

(١) الطبري : ٥/

الثاني : تصوير الحسين وأنصاره للرأي العام بأنهم خوارج . أو أنهم بغاة خرجوا على الشرع والشرعية المتمثلة بيزيد بن معاوية ، وتمرَّدوا على إمامهم ، وشقوا عصا الطاعة ، وشتَّتوا الجماعة .

لقد حاول ابن زياد منذ وصل إلى الكوفة وباشر بقمع حركة مسلم ابن عقيل أن يترك في أذهان الناس انطباعاً بأن الحركة هي من صنع الخوارج والحرورية[1]، ولا شك في أن المساعي المبذولة لطبع ثورة الحسين بهذا الطابع قد غدت أكثر جدِّيَّة وكثافة لأجل تطويق ردود الفعل السلبية لدى الجماهير .

ولم تفلح هذه المحاولة في كسب تصديق الجماهير ، وبدلاً من أن توضع ثورة الحسين خارج الشرعية ، فقد وضع النظام الأموي برمّته خارج الشرعية ورفضته أعداد متزايدة من الناس بعد أن وعت بفعل الثورة الحسينية مدى بعده عن الصدق في دعواه تمثيل الإسلام .

ولكن نموّ الوجود الشيعي بعد الأمويّين ، وبروز الشيعة في مواقفهم السياسية المعارضة للنظام السياسي ، والتجاء النظام العباسي إلى تغذية الإتجاهات الفقهية والكلامية المناهضة للتشيّع كوَّن وضعاً طائفياً دفع ببعض الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين إلى إرضاء غرائز الحكّام المتعصّبين وبعض غلاة المتعصبين من العامة ببعض المواقف الطائفية السخيفة التي أدينت وفضحت بوضوح وحزم من قبل كبار الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وكان من تلك المواقف الطائفيَّة السخيفة محاولة إسباغ صفة الشرعية على تصرّف يزيد والنظام الأموي ضدّ ثورة الحسين ، ونزع صفة الشرعية عن الثورة الحسينية ، ونذكر فيما يلي بعض هذه المحاولات .

---

(١) الطبري : ٥/٣٥٩ . طلب ابن زياد من موظفي الإدارة الحكومية في الكوفة أن يكتبوا له من في عشائرهم من الحرورية وأهل الريب . واتهم هاني بن عروة بانه حروري ـ الطبري : ٥/٣٦٧ .

ومن هذه المواقف موقف أبي بكر بن العربي في كتابه : (العواصم من القواصم) قال عن الحسين :

« فما خرج إليه (يعني الحسين) أحد إلا بتأويل ، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جدّه المهيمن على الرسل ، المخبّر بفساد الحال ، المحذّر من الدخول في الفتن ، وأقواله في ذلك كثيرة ، فمنها : أنه ستكون هناك هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمّة وهي جميع ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان . فما خرج الناس إلا بهذا أو أمثاله »[١].

وقال ابن الجوزي في كتابه : (السر المصون) :

« من الإعتقادات العاميّة التي غلبت على جماعة من المنتسبين إلى السنَّة انهم قالوا : كان يزيد على الصواب والحسين مخطئ في الخروج عليه ... وإنما يميل إلى هذا جاهل بالسيرة ، عاميّ المذهب ، يظنّ انه يغيظ بذلك الرافضة »[٢].

وقال الشوكاني :

« لقد أفرط بعض أهل العلم فحكموا بأن الحسين السبط رضي الله عنه وأرضاه باغٍ على الخمّير السكّير الهاتك لحرمة الشريعة المطهّرة يزيد بن معاوية لعنهم الله فيا للعجب

---

(١) العواصم من القواسم ، تحقيق محب الدين الخطيب ـ طبع سنة ١٣٧١ هـ ، ص : ٢٣٢ .

(٢) ابن مفلح الحنبلي : الفروع ٥٤٨/٣ ـ باب قتال أهل البغي ـ مطبعة المنار سنة ٣٤٥ .

من مقالات تقشعرّ منها الجلود ، ويتصدع
من سماعها كل جلمود »[1].

هذه المواقف تعكس موقفاً معادياً لثورة الحسين في الوجدان الشعبي لدى فريق ضئيل من المسلمين ، وقد نشأ هذا الموقف من جهود الأمويين وأجهزتهم الدعائية ، ولكنه موقف سرعان ما فقد أنصاره في أوساط المسلمين ، ولم يعد ثمة من يلتزم به ، ولقد كان العلماء وقادة الفكر يسجّلون هذا الموقف لأجل أن يسجلوا رفضهم وإدانتهم له ، ومن الذين فعلوا ذلك في العصر الحديث الإمام الشيخ محمد عبده ، إذ قال :

« إذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع وحكومة جائرة تعطّله ، وجب على كل مسلم نصر الأولى ... ومن هذا الباب خروج الإمام الحسين سبط الرسول (ص) على إمام الجور والبغي الذي وليَ أمر المسلمين بالقوّة والمكر يزيد بن معاوية خذله الله وخذل من انتصر له من الكرامية والنواصب »[1].

لقد غدا هذا الموقف ، يسجل كتاريخ مضى ومات يثير السخرية والتعجّب من عقليات متخشبة ونفسيات يعجز أصحابها عن الإبداع في الفكر فيلجؤن إلى الأغراب في المواقف لعلّه يحقّق لهم شيئاً من الضجيج يتوهمونه الشهرة التي يحرقون أعصابهم في سبيل الوصول إليها دون جدوى ، فيقعون نتيجة شهوتهم العمياء إلى ذيوع الصيت في أمثال هذه الوحول التي تمرغ فيها هؤلاء اليزيديون .

---

(١) نيل الأوطار ، ج ٧ ص : ١٤٧ .

إن الموقف الذي لا يزال ينبض بالحياة القويّة ، هو الموقف الذي كان منذ سنة إحدى وستين للهجرة ولا يزال حتى الآن يضرب بجذوره عميقاً في الوجدان الشعبي لجميع المسلمين بعامة وللمسلمين الشيعة بخاصة . إنه الإلتزام بالثورة وتقديسها ، واستلهامها ، وهو الموقف الذي يلتزمه كل من عرف الثورة الحسينية على حقيقتها من أحرار العالم ومفكّريه .

لقد كسبت الثورة الحسينية حربها ضدّ التشويه الأموي فدخلت إلى الوجدان الشعبي بقوّة وعمق ، وذلك لصدقها وأصالتها من جهة ، ولجهود القيادات الشيعية ــ وهي ما سنعرض لبيانه فيما يلي ــ من جهة أخرى

* * *

في مقابل محاولات الأمويين الرامية إلى تعطيل فعل الثورة في الأمة ، هذه المحاولات التي رأينا أنها فشلت فشلاً ذريعاً ، كانت جهود القيادات الشيعية الرامية إلى تنشيط فعل الثورة في الأمَّة .

وعلينا قبل أن ندخل في الحديث عن تفصيلات جهود القيادات الشيعية في هذا المجال ، أن نعرف الدوافع التي حملت هذه القيادات على اتخاذ هذا الموقف على امتداد التاريخ الإسلامي .

هل نجد هذه الدوافع في عواطف الحبّ والبغضاء ؟

هل نجدها في الموقف الشخصي من الأمويين باعتبارهم أسرة معادية للهاشميين بسبب الدخول التاريخيَّة ؟

وعلى هذا فالهاشميّون يتحرّكون ويحرّكون شيعتهم إشباعاً لعاطفة البغضاء التي يحملونها للأمويين .

أو ، هل نجد هذه الدوافع في المصالح السياسية للهاشميين باعتبار أن الأمويين قد نافسوا الهاشميين على الحكم بعد عمر بن الخطاب

وغلبوهم عليه ، فهم يتحرّكون ويحرّكون شيعتهم ضد الأمويين سعياً وراء الحكم بما هو سلطان سياسي يوطِّد سيطرة أسرة قرشية على مقدرات المسلمين بدلاً من سيطرة أسرة قرشية أخرى ؟.

إذا تناولنا هذه المسألة تناولاً سطحياً فإن مجال الإتهام بأن الدوافع العاطفية أو السياسية أو هما معاً هي التي حملت القيادات الشيعية على بذل جهودها لتنشيط فعل الثورة في الأمّة ، إن مجال هذا الإتهام يكون واسعاً ، فإن هذا هو ما يتّفق مع طبائع الناس في كل زمان .

ولكن الدراسة الموضوعية المتأنّية لهذه المسألة تؤكِّد لنا سطحيَّة التفسير العاطفي المصلحي لدوافع القيادات الشيعية نحو موقفها ، وتكشف عن دوافع أخرى كانت هي المحرّك الأساس لهذه القيادات نحو اتخاذ هذا الموقف من الثورة الحسينية .

* * *

حين نستطلع موقف أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب من الخلفاء الذين سبقوه فسنجد أنه قد تجاوز عواطفه ومصالحه ومصالح أسرته في سبيل دعم دولة الإسلام ودعوة الإسلام . وكان قادراً ـ لو أراد أن يستجيب لمصالحه وعواطفه ـ أن يفجّر في داخل الدولة صراعاً سياسياً ضارياً ربما مكَّنه من الإستيلاء على السلطة ، ولكنه لم يفعل ذلك لا عجزاً عن إثارة الصراع وإنما إيثاراً لمصلحة الإسلام ولوحدة المسلمين السياسية .

لقد رفض ـ بعد السقيفة ـ أن يستجيب لدعوة أبي سفيان التي آزره فيها العباس بن عبد المطّلب ودعاه فيها إلى أن يعارض النتيجة التي أسفر عنها اجتماع السقيفة ، وقال :

« سلامة الدين أحبّ إلينا »[1] .

كما أنه أعلن قبوله للنتيجة التي أسفرت عنها الشورى ، وإن كان قد سجّل عدم رضاه عنها ، فقال :

« لأُسَلِّمَنَّ ما سلمت أُمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خاصة »[2] .

وحين تولى الخلافة ، وشقَّ خصومه السياسيون وحدة المسلمين بتمردهم في مكة ، ثم في البصرة اضطرَّ إلى أن يكافح في سبيل صيانة وحدة المسلمين بالوسائل السلمية التي لم يستجب لها خصومه ، واضطروه إن أن يقاتلهم حفاظاً على الوحدة الإسلامية .

ولما قضى على التمرد ، وبدأ يستعد لبناء الدولة النموذجية كشفَ الحزب الأموي بقيادة معاوية بن أبي سفيان عن نواياه الرامية إلى تحطيم وحدة المسلمين ، وتحويل الإسلام إلى مؤسسة تخدم مصالح طبقة المستغلين على حساب مصالح الأمّة .

وهنا كافح عليّ بن أبي طالب طويلاً بالوسائل السلمية لأجل الوصول إلى صيغة تحفظ وحدة المسلمين ، وتمكِّنه من تحقيق حلمه في بناء الدولة العادلة ، ولكنه فشل لإصرار خصومه على موقفهم الإنفصالي ، وهنا اضطرّ الإمام إلى دخول الحرب لأجل صيانة وحدة المسلمين وحفظ الإسلام من التلاعب في تفسير مبادئه .

وكان دائماً يعلن أهدافه من خوض هذا الصراع[3] .

---

(١)

(٢) نهج البلاغة (طبعة دار الأندلس - بيروت) ١/ ٥١

(٣) تجد شواهد ذلك في نهـج البـلاغـة .

واستشهد الإمام عليّ والصراع مستمرّ .

وقام الإمام الحسن بن عليّ بالأمر بعد أبيه ، فأعلن تمسّكه بالأهداف التي كان الإمام عليّ يسعى نحوها ، وبذل محاولات مضنية في سبيل تأمين وحدة المسلمين السياسية عن طريق المفاوضات ، ولكنه لم يكن أحسن حظّاً في هذا الشأن من أبيه ، بل لقد وجد خصومه أكثر صلابة في مواقفهم نتيجة لإدراكهم ضعّف موقفه بعد شيوع الروح الإنهزامية بين قادة المجتمع العراقي في ذلك الحين .

وقد حاول ـ بعد أن يئس من جدوى المفاوضات ـ أن يسلك طريق الإمام عليّ في الذود عن وحدة المسلمين بقوّة السلاح ، ولكنه اكتشف أنه في موقف يائس ، وأن المعطيات الجديدة في المجتمع لا تمكنه من خوض صراع ناجح ، فآثر أن يحافظ على وحدة المسلمين تحت ظلّ سلطان خصمه السياسي معاوية ، بعد أن احتاط للمسلمين جميعاً أعظم الإحتياط .

آثر هذا على مصالحه الشخصية والعائلية ، وعلى عواطفة ، وإلا فقد كان قادراً ـ باتخاذ بعض الإجراءات ـ على أن يستمرّ في موقفه ، وأن يخوض حرباً طويلة الأمد تكـون في مصلحته الشخصية والعائلية ، ولكنها تعود على المسلمين بوبال عظيم .

وقد واجه ـ نتيجة لتصرّفه كرجل دولة مبدئيّ لا كرجل سياسة إنتهازي ـ معارضة شيعية قاسية وأليمة أعلنها زعماء أصحابه انسياقاً مع عواطفهم ، ولكنه صبر عليها ، وطفق يبيّن لهم أنه قد اتخذ هذا الموقف الأليم بالنسبة إليه شخصياً حرصاً عليهم وعلى عامة المسلمين .

ولما مضى الإمام الحسن بن عليّ شهيداً نتيجة غدر خصمه معاوية قضى الإمام الحسين فترة طويلة في عهد معاوية لم يحرّك ساكناً ولم يدع إلى ثورة حرصاً منه على وحدة المسلمين ، مع أنه كان قادراً على أن يثير جمهوراً كبيراً من المسلمبن ضد حكم معاوية البغيض إليه والذي يناقض مصالحه ومصالح أسرته . وإن كان لم يكفّ عن نقد سياسات معاوية وتجاوزاته .

ولما ثار في النهاية على الحكم الأموي متمثلاً في يزيد بن معاوية ونظامه . لـم تكن ثورته رعاية لمصلحته وعاطفته ، فتاريخه الشخصي وتاريخ أبيه وأخيه يشهد لهم بأن مواقفهم تقوم دائماً على رعاية مصالح الإسلام العليا ، ومصالح المسلمين من جميع الجهات .

لقد كان ـ مع غيره من قادة الرأي في المسلمين ـ ينظر ، منذ أعلن معاوية يزيد ابنه ولياً للعهد من بعده ، بذعر إلى الوقت الذي سيلي فيه يزيد أمر الأمّة ويتسلم سلطاته خليفةً على المسلمين .

وقد رأى ـ مع غيره من قادة الرأي في المسلمين ـ بعد أن تسنّم يزيد بن معاوية ذروة السلطة أن حكم يزيد إذا نال الشرعية ولو بالسكوت عنه فإنه يشكّل خطراً على الإسلام كدعوة ودين . وكان واضحاً منذ البداية أن نظام يزيد لا يكتفي من الحسين وغيره من قادة الـرأي بمجـرد السكوت عنه . لقد كان يريد اعترافاً رسمياً وواضحاً بشرعيته ، لقد كان يريد البيعة ليزيد .

وهنا بدا واضحاً للجميع أن المحافظة على الوحدة السياسية للمسلمين كانت تعني التفريط بالمحتوى العقيدي والتشريعي للمؤسّسة السياسية الإسلامية . لقد غدت التضحية بالوحدة السياسية للمسلمين واجباً في سبيل حفظ الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجاً بعد أن غدا الحكم الأموي يشكل خطراً . لا على المسلمين كوحدة سياسية فحسب ، بل على الإسلام نفسه .

وكان يعلم كما بيّنّا ذلك بتفصيل كافٍ في كتابنا (**ثورة الحسين : ظروفها الإجتماعية وآثارها الإنسانية**) أن ثورته انتحارية لا تقوده إلى نصر سياسي آني ، وإنما تنبِّه الأمَّة إلى الخطر ، وتضعها في مواجهته . وتفجِّر فيها طاقة الثورة وروح الرفض ، وتحمل الحكم على أن يحافظ على الحد الأدنى من رعاية مبادىءالإسلام في سياساته .

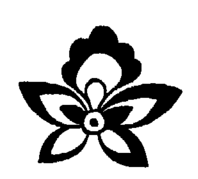
. . .

إن النظر إلى مسألة دوافع القيادات الشيعية ، وعلى رأسها أئمّة أهل البيت ، نحو بذل الجهود لإطلاق شعاع الثورة الحسينية في الأمّة على ضوء هذه الحقيقة يكشف لنا عن أن هذه الدوافع لم تكن عاطفية نابعة من بغضاء الهاشميين للأمويين . ولا مصلحية نابعة من الصراع على الحكم بما هو تسلُّط دنيوي . فإن التاريخ الثابت لأئمة أهل البيت ــ كما رأينا ــ ينفي عنهم هذا الإتهام ؛ ويثبت أن حياتهم كانت سلسلة من التضحيات في سبيل الصالح العام . وأنهم إنما غُلِبوا أمام خصومهم الأمويين في معارك السياسة لأنهم كانوا يتبعون في تعاملهم مع الأمَّة ومع خصومهم ومع أنصارهم مبادئ ومقاييس تنبع من شعورهم بمسؤوليتهم الإسلامية في الدرجة الأولى .

ويكفي هنا أن نذكر إضافة إلى التاريخ الثابت أن الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين الذي شهد بنفسه فاجعة كربلاء ، وعاشها ساعة بعد ساعة بكل آلامها وأحزانها ــ كان يدعو لأهل الثغور جنود النظام الأموي الذي ارتكب جريمة كربلاء والذي أسره مع عمّاته وأخواته وغيرهنَّ وسباه . وما ذلك الدعاء من الإمام زين العابدين إلاّ وعياً منه لدور جيوش الثغور في حفظ المجتمع الإسلامي من أعدائه ، وإن كان هذا الجيش يحمي أيضاً نظام الأمويين[1] .

إن دوافع أئمة أهل البيت والقيادات الشيعية الأخرى تنبع من أن ثورة الحسين بما تمثّل من ذودٍ عن جوهر الإسلام وصفائه ، وبما تهدف إليه من إلزام النظام بأن يكون أميناً في تطبيق الإسلام على حياة الأمّة - إن ثورة الحسين ، لهذا وذاك ، لا بدَّ من المحافظة على إشعاعها وتأثيرها في ضمائر المسلمين لتكون إيحاءاتها دائماً حافزاً للمسلم على أن يراقب ، وينتقد . ويثور حين تصبح الثورة ضرورة للحفاظ على وحدة المسلمين وسلامة تطبيق الإسلام . ولتكون صلته بمبادئها وشعاراتها مؤكدة لتعلّقه بالإسلام فلا ينحرف عنه ولا يزيغ عن هداه .

من هذا المنطلق نبحث عن مظاهر جهود القيادات الشيعية ـ وعلى رأسها أئمّة أهل البيت ـ في سبيل إطلاق شعاع الثورة الحسينية إلى أبعد مدى وأوسع نطاق في حياة الأمّة .



٤ ـ مَسَارِبُ الثَوْرَة إلى الوُجْدَانِ الشَعْبِيّ

قبل الدخول في دراسة مظاهر تعبير الوجدان الشعبي ـ لدى المسلمين بوجه عام والمسلمين الشيعه بوجه خاص ـ عن انفعاله بالثورة الحسينية ، أشعر أن عليَّ أن أشير إلى المسارب التي دخلت منها هذه الثورة ـ بعمق وشمول ـ إلى الوجدان الشعبي وصعَّدتها في هذا الوجدان ، وطوَّرت التعبير عنها في المظاهر الإحتفالية والآثار الفنية وخاصة في الشعر .

وستكون الإشارة إلى هذه المسارب هنا موجزة ، لأن الفصول الآتية في الكتاب والأبحاث التي تضمَّنتها كفيلة بأن تقدّم للقارئ التفاصيل الكافية التي ستضيء الموضوع من جميع جوانبه .

* * *

إن المسارب التي دخلت منها الثورة الحسينية إلى الوجدان الشعبي وطوَّرتها وصعَّدتها فيه هي الأمور التالية :

١ ـ **العامل العقيدي :**

فثورة الحسين حركة إسلامية ، قام بها زعيم من زعماء الإسلام الكبار ، إذا اختلف المسلمون في درجة قداسته فذهب بعضهم إلى كونه إماماً معصوماً ، وذهب بعضهم إلى أنه دون ذلك بقليل ، فإنهم لم يختلفوا قط في أن من حقّه بل من واجبه أن يصحِّح الإنحرافات النظرية والتطبيقية

التي يقع فيها الحاكمون ، وأن من حقه بل من واجبه أن يسعى إلى تولّي الحكم لخدمة هذه الغاية .

وإذن فهي ثورة دفعت إلى القيام بها مبادئ الإسلام وأحكامه لغاية تنبيه الأمّة على واقعها السيء ، وحملها على تحسينه عن طريق إثبات شخصيّتها الإسلامية في وجه الحاكم المنحرف ، وذلك بتصحيح نهج الحاكم .

وإذن فهي ليست حركة قبلية أو إقليمية أو مذهبية . ومن هنا فلا يجوز اعتبارها تراثاً مذهبياً للشيعة ، لأن صبغتها المذهبية جاءت نتيجة لعوامل تاريخيّة ليس هنا مجال بحثها .

وقد فهمت ووعت جميع القيادات الإسلامية في ذلك الحين ـ سياسية وثقافية ـ شمولية هوية الثورة ، وانتماءها إلى الإسلام الجامع .

وهذا ما جعل الثورة ـ رجالها ، وأحداثها ـ تدخل الوجدان الشعبي من الباب الواسع متمتّعة بالقداسة ، وتنال الإحترام والحبّ حتى من أشد الأعداء لأئمة أهل البيت ضراوة وقسوة ، وهم الخوارج ، فقد حكى السيد محسن الأمين في كتابه (إقناع اللائم) فقال :

« والذي بلغنا أن الخوارج الأباضية في زنجبار يقيمون مراسيم الحزن يوم عاشوراء . لا مراسيم الأعياد ، وانهم بقدر بغضهم لعليّ وولده الحسن (ع) يحبّون الحسين (ع) لقيامه بالسيف ومقاومته للظلم »[1] .

* * *

---

(١) السيد محسن الأمين . إقناع اللائم . ص : ٢١١

٢ ـ دعوة أئمة أهل البيت :

لقد حرص أئمة أهل البيت على إبقاء الثورة وتفاصيلها الفاجعة حيَّة في الذهنية العامة للأُمَّة ، وذلك بالتشجيع على قول الشعر فيها وإنشاده ، وبعقدهم المجالس الخاصة لسماع هذا الشعر ، وبدعوتهم إلى عقد المجالس والإجتماعات المخصَّصة للمذاكرة في أحداث الثورة ، وبانشائهم لمؤسسة الزيارة ، وبتوجيهات أخرى غير ماذكرنا تخدم كلها هدفاً واحداً هو إبقاء الثورة حيّة في العقول والقلوب .

وستتضح أبعاد هذه الدعوة بصورة أكثر تفصيلاً في أبحاث الكتاب الآتية .

وإذا كان العامل العقيدي قد مكَّن للثورة من الدخول إلى الوجدان الشعبي للأُمَّة بوجه عام ، فإن دعوة أئمة أهل البيت قد عززت فاعلية العامل العقيدي في ذهنية الأمَّة إلى حدٍّ بعيد ، وإن كان تأثير هذه الدعوة في الأمة متفاوت القوّة . فكانت الثورة ذات تأثير حاسم على شيعة أهل البيت والمتعاطفين معهم من جهة ولاء هؤلاء لأئمة أهل البيت باعتبارهم المثلين الأكثر أمانة وإخلاصاً وفهماً للإسلام ، وكانت ذات تأثير أقل أهمية في سائر المسلمين .

٣ ـ طبيعة المأساة :

لقد كانت الثورة من بدايتها حتى نهايتها فاجعة تثير الشجن والأسى العميق ، ومن ثمَّ فقد كانت تتمتع بجاذبية خارقة ، رفعتها إلى مستوىً إنسانيٍّ عام بالإضافة إلى بعدها الديني .

لقد مثَّلت الثورة الحسينية الجدلية الإنسانية الخالدة بين الخير والشرّ ، وبين النُّبل والخِسَّة ، وبين الواقعية السياسية والمثالية الأخلاقية ،

وبين الغريزة القبلية والوعي العقلاني الطامح إلى تكوين الأمة المتلاحمة ، وبين الإنسان المرتزق والإنسان المبدئي ...

وقد دفعت حدَّة الصراع كلَّ واحدٍ من قطبَيّ الجدلية إلى أن يعبِّر عن ذاته ورؤيته بوضوح مطلق من خلال ممارسة دامية مثلت فيها الثورة نبل الثوريين وإنسانيتهم العالية ، ومثَّل فيها النظام الأموي أسوأ تطلُّعاته ، وأحطّ أساليبه .

طبيعة المأساة هذه جعلت كل إنسان قرأ عنها أو سمع بها أسيراً لها . ومن ثمَّ فقد انفعل بها ـ بالإضافة إلى المسلمين ـ غيرُ المسلمين أيضاً على مستوى العامَّة والمثقَّفين . كان هذا في الماضي ولا يزال مستمراً حتى الآن . وما أكثر الأعمال الفنية (الشعر) التي أنشأها غير المسلمين وعبَّروا فيها عن انفعالاتهم بهذه الثورة : رجالها ، وأحداثها ، وغاياتها ، وما أكثر المظاهر الإحتفالية التي يقوم بها غير المسلمين في بعض المواطن (شبه القارة الهندية مثلاً) تعبيراً عن تكريمهم للثورة ، واحترامهم لأبطالها .

* * *

٤ ـ الوضع النفسي للمسلم الشيعي :

لقد عانى المسلم الشيعي منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ألواناً شتَّى من الإضطهاد والملاحقة والترويع .

كان مطارداً من قبل السلطة فقلما شعر بالأمن ، وكانت هذه السلطة تحاربه في مصادر عيشه إذا لم تقض عليه ولم تحجز حرّيَّته ، وكان في أحسن الحالات مواطناً من الدرجة الثانية .

كل هذا بسبب بعض مواقفه العقيدية (الإمامة) وبسبب اتجاهه الفقهي حيث أنه تبع أئمة أهل البيت فكانوا مرجعه في فقه الشريعة الإسلامية .

وقد دام هذا الوضع المأساوي للإنسان الشيعي عصوراً طويلة . وقد نتج عن هذا الوضع الذي عاشت وماتت في ظلّه أجيال بعد أجيال إنسان يحمل في أعماقه مشاعر الحزن وروح الثورة ، وقد حمله هذا الوضع على أن يلتصق برموزه التاريخيّة وفي مقدمتها ثورة الإمام الحسين بوجهٍ خاص ، وتاريخ أئمة أهل البيت بوجه عام .

وقد عزز هذا الوضع النفسي لدى الإنسان الشيعي موقف معظم السلطات الحاكمة في العالم الإسلامي ــ على امتداد العصور ــ من إحياء ذكرى الإمام الحسين أو زيارة قبره .

فقد دأبت هذه السلطات على إظهار عدم رضاها عن هذه الممارسات التي دأب الإنسان الشيعي على القيام بها . وكانت تضع المعوِّقات أمام حريَّة هذه الممارسات . وكانت مواقفها تتراوح بين الحظر التام تحت طائلة الموت ، أو السجن ، أو المصادرة لمن يمارس أي نشاط ثقافي فكري أو فني أو إحتفالي يتَّصل بالثورة الحسينية ، وبين وضع القيود القانونية على حرية الحركة والتعبير في هذا المجال .

وسنرى في الفصول الآتية كيف أن هذا الموقف المناهض لأي تعبير عن كينونة الثورة الحسينية في الوجدان الشعبي ــ كان سياسة ثابتة لدى كثير من الحكومات في كثير من البلاد الإسلامية .

لقد تحوَّلت السلطات الحاكمة التي التزمت هذا الموقف أو ذاك الموقف ضدّ إحياء الذكرى الحسينية في الوجدان الشعبي لدى الإنسان الشيعي إلى رموز للقمع والإضطهاد ورثت الأمويين وغدت امتداداً للوجود الأموي في السلطة ينفِّذ مخططه وسياساته ضد الحسين ومنهاج الحسين . وقد دفع هذا الشعور بالإنسان الشيعي إلى مزيد من الإلتصاق بالرمز الحسيني ، والتعلّق بكل ما يمتُّ إليه بصلة ، واستيعاب دلالات هذا الرمز : عقيدياً ، وتشريعياً ، واجتماعياً ، وسياسياً .

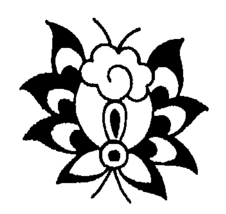
هذه . فيما نرى ، العوامل الأساسية ذات التأثير الكبير في كينونة ثورة الحسين في الوجدان الشعبي . وسنتعرَّف على مدى مساهمة كل واحد منها عندما ندرس في الفصول التالية ثورة الحسين في الوجدان الشعبي في المظاهر التالية :

١ ـ الزيارة .

٢ ـ شعر الرثاء الحسيني .

٣ ـ مجالس الذكرى .

٤ ـ ظاهرة البكاء .



الفصل الثاني

الزيارة

١- مشروعية الزيارة
٢- تاريخ الزيارة قبل الحسين
٣- زيارة الحسين - غاياتها وأهدافها
٤- الزيارة في النصوص المشرعة لها
٥- نموذجان من زيارات الحسين
٦- الزيارة في شعر الرثاء الحسيني
٧- ملحق



الزيارة

١ - مشروعية الزيارة

ذهب الشيخ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم المشهور بابن تيميّة (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) إلى حرمة زيارة قبر النبيّ (ص) فضلاً عن زيارة سائر القبور . وذهب إلى أن السفر إلى زيارة القبور محرّم يجب إتمام الصلاة فيه ، مستنداً في مذهبه هذا إلى روايات غير دالّة على مطلوبه ، ووجوه إستحسانية لا قيمة لها في الإستنباط الفقهي ، ومحاذير يدّعي انها تترتب على زيارة القبور وهي غير واردة .

ولكن الفقهاء والمحدّثين من جميع المذاهب الإسلامية ردّوا عليه قولَه ، وأثبتوا مشروعية زيارة قبر النبيّ (ص) وغيره بأدلّة كثيرة مأخوذة من الكتاب والسنّة وإجماع المسلمين ودليل العقل .

وقد نقل السيّد محسن الأمين في كتابه كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب عن السمهودي الشافعي في كتابه المسمّى « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ـ ج٢ ، ص : ٤١١ ـ ٤١٥ » موقف أئمة المذاهب الأربعة من هذه المسألة ، فقال :

.. أما المنقول من أئمة المذاهب الأربعة ففي وفاء الوفا بعدما ذكر اختلاف السلف في أن الأفضل البدأة بمكة أو بالمدينة حكى عن الإمام أبي حنيفة أن الأحسن البدأة بمكة ، وإن بدأ بالمدينة جاز ، فيأتي قريباً من قبر رسول الله (ص) فيقوم بين القبر والقبلة ... انتهى .

وأما ما يحكي عن مالك أنه كره أن يقال : زرنا قبر النبي (ص) فهو على فرض صحّته محمول على كراهة التلفُّظ بهذا اللفظ لبعض الوجوه التي ذكرها مما لا نطيل بنقله ، لا لكراهة أصل الزيارة ، مع أن العلماء ناقشوه في كراهة هذا اللفظ كالسبكي وابن رشد على ما في « وفاء الوفا » .

وذكر السمهودي في وفاء الوفا أقوال الشافعية في استحباب زيارة النبيّ (ص) ، ثم قال : والحنفية قالوا : أن زيارة قبر النبيّ (ص) من أفضل المندوبات والمستحبات ، بل تقرب من درجة الواجبات .

قال : وكذلك نصّ عليه المالكية والحنابلة ، وأوضح السبكي نقولهم في كتابه في الزيارة ... انتهى » .[1].

وقد ثبت بالسنَّة المعتضدة بالسيرة القطعية المتصلة بزمن النبيّ (ص) جواز زيارة قبور الصالحين ، بل مطلق المسلمين ، والسلام عليهم والدعاء لهم . وإهداء الثواب إليهم بتلاوة القرآن الكريم ، وفعل الخيرات .

ومن المعلوم أن الشيعة الإمامية ذهبوا إلى استحباب زيارة قبر النبيّ (ص) وأئمة أهل البيت (ع) وقبور الصالحين . وعبادة الله عندها بالصلاة والدعاء وتلاوة القرآن الكريم والسلام عليهم ، والدعاء لهم . بل اعتبروا ذلك من شعائر الله وأنه من تقوى القلوب . ثبت ذلك عندهم بالسنة القطعية والإجماع القطعي ، لا خلاف في ذلك بينهم .

---

(١) السيد محسن الأمين . كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهـاب ، ص : ٤٧١ .

ومن المؤكَّد أن سلوك المسلمين منذ عهد رسول الله (ص) يضيء الجانب الشرعي من المسألة . ويكشف عن جواز زيارة القبور على الأقل إن لم يكشف عن رجحانها شرعاً .





٢ - تاريخ الزيارة قبل الحسين

قال السيد محسن الأمين :

« قد ثبت أن النبيّ (ص) كان يزور البقيع وشهداء أُحد . وروى ابن ماجة (ج ـ ل . ص٢٤٥) بسنده عنه (ص) : زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة . وبسنده عن عائشة أنه (ص) رخّص في زيارة القبور ... ، وبسنده عنه (ص) : كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكّر الآخرة . ورواه مسلم (ج٤ ، ص: ٢٢٥ ـ بهامش إرشاد الساري) إلى قوله : فزوروها . وروى النسائي : ونهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد أن يزور فليزر .

« وزار النبيّ (ص) قبر أمّه . روى مسلم في صحيحه (ج٤ ، ص : ٢٢٥ بهامش إرشاد الساري) وابن ماجة (ج ـ ل ، ص : ٢٤٥) والنسائي (ج ـ ل ، ص :٢٨٦) بأسانيدهم عن أبي هريرة . زار النبيّ (ص) قبر أمّه فبكى وأبكى من حوله ...

« وروى مسلم أنه كلما كانت ليلة عائشة من رسول الله (ص) يخرج آخر الليل إلى البقيع فيقول : (السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين ، وآتاكم ما توعدون) .

« وعلّم (ص) عائشة حين قالت له : كيف أقول لهم يا رسول الله ؟ قال : قولي : (السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ..) الحديث رواه مسلم » .

* * *

« وروى ابن أبي شيبة عن أبي جعفر (وفاء الوفا ، ج٢ ، ص : ١١٢) أن فاطمة بنت رسول الله (ص) كانت تزور قبر حمزة ترمّه ، وتصلحه ، وقد تعلمنه بحجر .

« وروي عنه أن فاطمة كانت تزور قبور الشهداء بين اليومين والثلاثة ، فتصليّ هناك ، وتدعو ، وتبكي حتى ماتت .

« وروى الحاكم عن عليّ أن فاطمة كانت تزور قبر عمّها حمزة كل جمعة فتصليّ وتبكي عنده » .

« في فتوح الشام أن عمر لما صالح أهل بيت المقدس ، وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم فرح بإسلامه وقال له : هل لك أن تسير معي إلى المدينة وتزور قبر النبيّ (ص) وتتمتّع برؤيته ؟ فقال : نعم . ولما قدم عمر المدينة من فتوح الشام كان أول ما بدأ بالمسجد وسلم على رسول الله (ص) .

« وفي (وفاء الوفا) للسمهودي : روى عبد الرزاق بإسناد صحيح أن ابن عمر كان إذا قدم من سفر أتى قبر النبيّ (ص) فقال : السلام عليك يا رسول الله . السلام عليك يا أبا بكر . السلام عليك يا أبتاه .

« وفي الموطأ من رواية يحيى بن يحيى أن ابن عمر كان يقف على قبر النبي (ص) فيصليّ (فيسلم ، ظ) على النبي (ص) وعلى أبي بكر وعمر .

« وعن ابن عون : سأل رجل نافعاً : هل كان ابن عمر يسلّم على القبر ؟ قال : نعم . لقد رأيته مائة مرة أو أكثر من مائة مرّة . كان يأتي القبر فيقوم عنده ، فيقول : السلام على النبيّ . السلام على أبي بكر . السلام على أبي .

« وفي مسند أبي حنيفة عن ابن عمر : من السنَّة أن تأتي قبر النبي (ص) من قِبل القبلة ، وتجعل ظهرك إلى القبلة ، وتستقبل القبر بوجهك . ثم تقول : السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته » .

« وقد استفاض عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يبرد البريد من الشام ، يقول : سلِّم لي على رسول الله (ص) . وذلك في زمن صدر التابعين . وممن ذكر ذلك عنه الإمام أبو بكر بن عاصم النبيل . قال في مناسكه : وكان عمر بن عبد العزيز يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرىء النبيّ (ص) السلام ثم يرجع » .

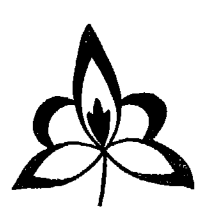
« أمّا المنقول من فعل سائر المسلمين . ففي (وفاء الوفا/ ج٢/٤١٠) : ذكر المؤرِّخون والمحدِّثون ... أن زياد بن أبيه أراد الحجّ . فأتاه أبو بكرة أخوه . وهو لا يكلِّمه ، فأخذ إبنه فأجلسه في حجره ليخاطبه ويسمع زياداً . فقال : إن أباك فعل وفعل ، وانه يريد الحجّ . وأم حبيبة زوج النبيّ (ص) هناك . فإن أذنت له فأعظم بها مصيبة وخيانة لرسول الله (ص) وإن حجبته فأعظم بها حجّة عليه . فقال زياد : ما تدع النصيحة لأخيك . وترك الحجّ فيما قاله البلاذري . وقيل : حجّ ولم يزر من أجل قول أبي بكرة ... قال السبكي : والقصة على كل تقدير تشهد . لأن زيارة الحجّ كانت معهودة من ذلك الوقت . وإلاّ فكان يمكنه الحجّ من غير طريق المدينة . بل هي أقرب إليه لأنه كان بالعراق . ولكن كان إتيان المدينة عندهم أمراً لا يترك »[1] .

---

(١) السيد محسن الأمين : كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب ـ الطبعة الثالثة ـ الفصل السابع عشر في زيارة القبور ـ ص : ٤٥٩ ـ ٤٨٣ . وقد استوعب فيه البحث عن مسألة زياره القبور من =

إن ما قدمناه يكشف بوضوح عن مشروعية الزيارة . واستناداً إلى هذه المشروعية مارس المسلمون في جميع عصورهم رجالاً ونساءً هذا العمل باعتباره شعيرة من شعائر الله ، ولم ينكر عليهم ذلك أحد من فقهائهم ومحدّثيهم ووعّاظهم . بل حثّوهم على ذلك . ولم يعرف الإنكار عن هذا العمل إلا من ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب في العصور الأخيرة ، وقد واجه علماء المسلمين هذا الموقف الفقهي من هذه المسألة بالتعجّب والإستنكار ، وبيّنوا فساد الرأي القائل بالتحريم بأدلّة من الكتاب والسنّة والإجماع ودليل العقل .

وإذن ، فحين وجّه أئمة أهل البيت شيعتهم لزيارة الحسين عليه السلام فإنما كانوا يطبّقون حكماً شرعياً عامّاً على مورد من موارده الخاصّة وهو الحسين بن عليّ بن أبي طالب . وقد أظهر أئمّة أهل البيت عناية كبرى بتوجيه المسلمين بعامة والشيعة بخاصة لزيارة النبيّ (ص) وأئمة أهل البيت ، والرجال والنساء الذين أبلَوا بلاءً حسناً في تاريخ الإسلام بجهاد أعدائه وإرساء قواعده توصّلاً إلى غايات دينية تربوية سنفصلها في الفقرة التالية من بحثنا هذا .



= جميع جوانبها . وقد اعتمدنا عليه فيما أوردناه أعلاه ومغزى كلام أبي بكرة هو أن زيادا ادعى بنوته لأبي سفيان ، وهي غير ثابتة شرعاً لأنه ولد نتيجة لعلاقة غير شرعية بين أبي سفيان وسمية أم زياد ـ وأم حبيبة أم المؤمنين هي بنت أبي سفيان . فإذا ذهب زياد لزيارة الرسول (ص) في المدينة فلا بد أن يزور أم حبيبة أم المؤمنين بزعم أنها أخته . وهي ليست أخته لأنه كما ذكرنا ليس إبناً شرعياً لأبي سفيان فإذا قابلته على أنها أخته تكون خيانة لرسول الله (ص) وإذا امتنعت عن مقابلته كان ذلك فضيحة له وتكذيباً لدعواه البنوة لأبي سفيان .

٣ - زيارة الحسين - غاياتها وأهدافها

لعلَّ مما يميّز الشيعة الإمامية عن كثير من المسلمن عنايتهم الفائقة بزيارة قبور الرجال والنساء المقدسين في تاريخ الإسلام بوجه خاص . وحرصهم الشديد على ممارستها باستمرار .

في مقدمة هؤلاء الرجال المقدَّسين رسول الله (ص) ومن بعده أئمة أهل البيت . وفي مقدمة هؤلاء الإمام الحسين بن عليّ .

يضاف إلى هؤلاء بعض السيدات اللاتي يتمتَّعن بمنزلة خاصة في تاريخ الإسلام العام . أو في تاريخ التشيّع الخاص . في مقدمة هذه النسوة تأتي السيدة خديجة أم المؤمنين ، والسيدة فاطمة الزهراء . ثم السيدة زينب بنت الإمام عليّ بن أبي طالب ، ثم السيّدات اللاتي شاركن بوجه أو بآخر في تاريخ الإسلام العام أو في تاريخ التشيُّع الخاص .

والشائع في أذهان الناس . وحتى في أذهان الكثرة الغالبة من الشيعة أنفسهم في العصور المتأخِّرة . عن الدوافع إلى الزيارة أنها دوافع تتَّصل بتكريم الأشخاص المزورين لأنهم كرام عند الله . وتتصل بطلب الشفاعة منهم عند الله . وتتصل بطلب البركة بواسطتهم من الله .

باختصار : الشائع أن هذه الدوافع تتصل بأشخاص المزورين وأشخاص زائريهم . وهذا كل شيء .

ولكن هذا خطأ كبير .

خطأ من غير الشيعة في فهمهم لهذه الممارسة الشيعية نتيجة للحكم عليها من خارج ، وعدم الإطِّلاع عليها من داخل . وعدم الإطِّلاع على منطلقاتها في الفكر السياسي والإجتماعي لأئمة أهل البيت جعلوا

من « الزيارة » ، الثابتة في التقليد الإسلامي المشروع والتي مارسها المسلمون باستمرار ، مؤسّسة سياسية ـ إجتماعية ـ ثقافية . ثابتةً في صميم التكوين الثقافي الشيعي .

وخطأ من الشيعة أنفسهم في ممارستهم للزيارة . نتج عن إنحلالهم كمؤسسة تمثل ـ في تاريخ الإسلام ـ البؤرة الثورية التي نصّبت نفسها دائماً شاهداً وناقداً للحكم القائم وأساليبه في التعامل مع الأمّة .

فحينما تصدّع البناء الداخلي للإنسان الشيعي . وتخلّى عن مناقبه الأساسية ، حوّر فهمه للممارسات التي أُنشئت لتكون غذاءً لروحه وفكره ، فحوّلها إلى ممارسات تخدّره ، وتبرّر وضعه الإنهزامي ، وهذا ما حدث للإنسان المسلم بوجه عام ، ولكننا نبحث هنا عن وضعية الإنسان الشيعي الخاصة .

لقد وجّه أئمة أهل البيت شيعتهم نحو الزيارة للنبيّ وللأئمة السابقين عليهم لخدمة هدف كبير هو إبقاء الصلة حيَّة ونابضة بين الإسلام الحيّ وبين الإنسان الشيعي لئلاّ يتحول الإسلام في ذهنه إلى مجرد ممارسات طقسية وفقه ميّت ، ولئلاّ تكون النماذج التطبيقية « الرسمية » للإسلام التي يعايشها المسلم في حياته اليومية على صعيد الحكم وعلى صعيد المجتمع هي النماذج المحتذاة والمعترف بها من قبله ، وإنما تبقى حيّة في ذهنه النماذج السليمة البريئة الصافية للإسلام ، وتبقى حيّة في ذهنه الممارسات الأمنية الصادقة للإسلام .

إن أئمة أهل البيت حين جعلوا من الزيارة مؤسسة فكرية ـ سياسية ـ إجتماعية أرادوا أن يجعلوا الإنسان الشيعي على صلة حيَّة ومباشرة بمنابع إسلامه في الفكر والنظرية ، في التطبيق والممارسة .

فالنصوص التي يزار بها رسول الله (ص) تسلّط الأضواء على جهود رسول الله (ص) في الدعوة إلى الإسلام ، ونشره ، وتثبيته ،

إلى جانب ما تشتمل عليه من عبارات المدح والثناء لشخص الرسول (ص) وتعظيمه وتكريمه .

والنصوص التي يزار بها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب تتضمّن بيان جهوده الفكرية والعملية في سبيل الإسلام .

وكذلك النصوص التي يزار بها أئمة أهل البيت الآخرون .

وتكاد كل زيارة من الزيارات المعتمدة تشتمل على تعهُّد أمام الله ينشئه الإنسان الشيعي مع المزور بوجه خاصّ ، ومع الرسول وأئمة أهل البيت بوجه عام ، على أن يبقى أميناً على عهدهم وطريقتهم وسنَّتهم .

ونذكر هنا بعض نماذج ذلك :

« أللّهمَّ اجعلني في مقامي هذا ممن تناله منك صلوات ورحمة ومغفرة . أللّهمَّ اجعل محياي محيا محمد و آل محمد ، ومماتي ممات محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله »[1] .

« أللهمَّ إني أشهدك بالولاية لمن واليت ووالته رسلك ، وأشهد بالبراءة ممن برئت منه وبرئَتْ منه رسلك »[2] .

« ... و أشهد الله تبارك وتعالى وكفى به شهيداً ، وأشهدكم أني بكم مؤمن ولكم تابع في ذات نفسي ، وشرايع ديني ، وخواتيم عملي ، ومنقلبي ومثواي »[3] .

---

(١) جعفر بن محمد بن قولويه القمي : كامل الزيارة ـ المطبعة المرتضوية ـ النجف / ١٣٥٦ هـ ـ باب : ٧١ ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، باب : ٧٩ ص : ١٩٧ .

(٣) المصدر السابق ، باب ٧٩ ، ص : ٢٣٣ .

« أللهمّ إني أشهدك وأُشهد من حضر من ملائكتك أني بهم مؤمن وبمن قتلهم كافر أللهمَّ اجعل لما أقول بلساني حقيقة في قلبي ، وشريعة في عملي »[1].

وغير هذا كثير .

* * *

ومن بين الزيارات التي تتلى عند مشاهد أهل البيت أو يزارون بها ، عن بعد ، فإن زيارات الحسين بن عليّ هي أكثرها عدداً ومن أكثرها غنىً بالمحتوى الفكري والحركي .

وقد انصبَّت عناية أئمة أهل البيت إلى تسليــط الأضــواء على ثورة الإمام الحسين باستمرار وبكثافة جعلت لذكرى الحسين حضوراً ثابتاً شديد الإيحاء في الذهنية العامة ، وجعلت زيارات الحسين في مقدمة المواسم الدينية عند الشيعة في كل مكان من العالم .

والسبب في ذلك هو أن ثورة الإمام الحسين هي أعظم الأحداث مأساوية ونبلاً في تاريخ الشيعة ، ومع أن الإمام علياً خاض حروباً كثيرة في سبيل تصحيح المسيرة الإسلامية ، إلا أنه خاضها من موقع السلطة ، أما الإمام الحسين فقد خاض حربه الإنتحارية من خارج السلطة ، بل ضدّ السلطة ، ودون أمل دنيوي ، ولذا فإن ثورته تتمتَّع بإيحاء أعظم ، وقدرة أكبر على التأثير ، وعلى رسم النموذج الفدائي للإنسان الشيعي في مواجهته لصعوبات كونه في ظلّ حكم ظالم . ولأنها ـ من ناحية أخرى ـ عمل تطبيقي شديد الإثارة نموذجي لتحويل

(١) المصدر السابق . باب ٧٩ . ص : ٢٤٠ .

الموقف الفكري إلى مسلك وحركة في الحياة اليومية .

* * *

وثمة تأكيد مطلق على أن الزيارة ، لتؤثّر أثرها ، لا بد أن تكون عن وعي لدور المزور في حركة الإسلام ، وموقعه من الجهاد في سبيله . إن حالة الوعي هذه هي المعنيَّة في النصوص الكثيرة التي وردت في شأن من زار الحسين « عارفاً بحقّه »[1].

إن هذه المعرفة بحقّ المزور تعني الوعي لدوره الذي أنجزه في حياته ، ولمركزه في قيادة حركة الإسلام في مجالي التشريع والتطبيق ، وحينما تمارس الزيارة في ضوء هذا الوعي تعزّز في قلب الزائر وفي عقله صلة بالإسلام المتحرك الفعّال ، لأنها تصله بالنماذج المتحركة الفعالة في تاريخ الإسلام .

* * *

إن زيارة الرسول وأئمة أهل البيت ليست تسلية وليست عملاً دنيوياً ؛ إنها عبادة روحية ، إنها عمل يراد به التقرّب إلى الله تعالى ، ولأنها عبادة فقد اشتملت النصوص الداعية إلى ممارستها والمواظبة عليها على وعودٍ سخيَّة بالثواب من الله تعالى ، ومغفرة الذنوب والخطايا ، وإسباغ البركات .

وهذا أمر مفهوم حين توضع الزيارة في إطارها الصحيح الذي كشفنا عنه ، ولا تغدو مجرّد عملٍ تكريميٍّ إحتفالي يقوم به إنسان

---

(١) كامل الزيارة . باب . ٥٤ . ص . ١٣٨ ـ ١٤١ وباب ٥٧ . ص ١٤٤ ـ ١٤٦ .

حيّ لتكريم إنسان ميّت ، فإن الشيعي حين يقوم بالزيارة يكون قد جدَّد صلته بالإسلام ككل ، وعاهد الله على التمسُّك به والحفاظ عليه ، وتطبيقه في حياته ، وهو عمل يستحقّ عليه الثواب والبركات من الله تعالى بموجب مبادئ الإسلام .

وبما ذكرنا تتضح عظمة هذه المؤسسة وأثرها الكبير في صنع الإنسان الشيعي ، والإمكانات الضخمة التي تحفل بها ، ومدى قدرتها على التحويل النفسي للإنسان الشيعي من وضعه الإستسلامي إلى وضع متحرّك فاعل إذا استعاد المفهوم الصحيح للزيارة ومارسها بالروحية الأساسية التي انطلقت منها .

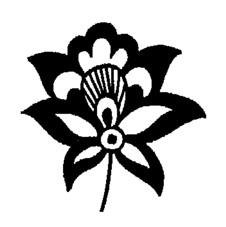
ويتّضح مدى فداحة الخطأ الذي وقع فيه الإنسان الشيعي ، وبعض قياداته الروحيه حين فهم الزيارة على أنها تكريم وتعظيم للأشخاص فقط ، وغفل عن الأهداف التربوية المتعددة الجهات التي قصدت منها .

* * *

إن حقل دراسة الزيارة حقل واسع كما لا بدّ أن يكون قد اتضح ، فهو يشمل زيارات النبيّ (ص) وأئمة أهل البيت جميعاً ، والبارزين والبارزات من الرجال الآخرين والنساء في تاريخ الإسلام بوجه عام وفي تاريخ التشيّع بوجه خاصّ .

ولكننا مضطرّون إلى أن نقصر بحثنا هنا على حقل دراستنا الخاص ، وهو زيارات الإمام الحسين باعتبارها مظهراً لثورة الحسين في الوجدان الشعبي الإسلامي .

وهذا الحقل من حيث المادة المدروسة هو ، كما ذكرنا آنفاً ، أكثر حقول الزيارة مادة ومن أغناها بالفكر والعاطفة ، وذلك ناشئ من الوضع الخاص الذي يتمتَّع به الحسين وثورته في الذهنية الشيعية من حيث موقعه الهام في حركة التصحيح المستمرَّة التي بدأت بعليّ بن أبي طالب ولم تتوقف على الإطلاق .





٤ - الزيارة في النصوص المشرّعة لها

وردت عن أئمة أهل البيت مئات الأحاديث التي صحَّت رواية كثير منها عنهم في الدعوة إلى زيارة الحسين ، والحث عليها في جميع الأوقات ، وفي أيام بعينها ، وفي القرب والبعد .

كما وردت عنهم نصوص نموذجية من الزيارات التي يزار بها الحسين في أوقات بعينها أو في جميع الأيام .

كما أن أئمة أهل البيت قد مارسوا الزيارة للحسين بأنفسهم . وبذلك كانوا قدوة لشيعتهم في هذا الأمر . وأقدم ما نعرف من ذلك هو فعل الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين . فقد كان يقدم من المدينة إلى كربلاء لزيارة قبر أبيه ، فقد شاهده بعض شيعة أهل البيت في مسجد الكوفة . ولما تعجَّب من وجوده ، وقال له : « ما أقدمك بلاداً قتل فيها أبوك ؟ » . أجابه : « زرت أبي وصلَّيت في هذا المسجد .. »

روضة الكافي ص : (٢٥٥) ويبدو من سؤال السائل أنه فوجئ بوجود الإمام علي بن الحسين . وهذا يوحي بأن الزيارة لم تكن قد شاعت بعد وغدت أمراً مألوفاً .

ونذكر فيما يلي بعض النصوص المختارة التي تضمَّنت مشروعية الزيارة من حيث المبدأ ، كما تضمَّنت الحثّ عليها والترغيب فيها .

١ ـ في حديث ينتهي بسنده إلى الإمام محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين ، قال :

« مروا شيعتنا بزيارة قبر الحسين عليه السلام .

فإن إتيانه مفترض على كل مؤمن يقرّ للحسين

عليه السلام بالإمامة من الله عزَّ وجلّ »[1].

٢ ـ وفي حديث ينتهي بسنده إلى زرارة ، قال :

« قلت لأبي جعفر (الباقر) عليه السلام :
ما تقول فيمن زار أباك على خوف ؟ قال :
يؤمنه الله يوم الفزع الأكبر ، وتلقاه الملائكة
بالبشارة ، ويقال له : لا تخف ولا تحزن ،
هذا يومك الذي فيه فوزك »[2]

٣ ـ عن موسى بن عمر ، عن حسان البصري ، عن معاوية ابن وهب ، قال : استأذنت على أبيعبد الله (الصادق) عليه السلام ، فقيل لي : أدخل ، فدخلت فوجدته في مصلاّه في بيته ، فجلست حتى قضى صلاته ، فسمعته يناجي ربّه وهو يقول :

« أللهمّ ... اغفر لي ، ولإخواني ، وزوار
قبر الحسين ، الذين أنفقوا أموالهم ، وأشخصوا
أبدانهم رغبة في بِرنا ، ورجاءً
لما عندك في صلتنا ، وسروراً أدخلوه على
نبيّك ، وإجابة منهم لأمرنا ، وغيظاً أدخلوه
على عدونا ، أرادوا بذلك رضاك ، فكافهم
عنا بالرضوان ، واكلأهم بالليل والنهار ،
واخلف على أهاليهم وأولادهم الذين خلفوا
بأحسن الخلف ، واصحبهم ، واكفهم شرَّ
كل جبّار عنيد ، وكل ضعيف من خلقك
وشديد ، وشرّ شياطين الجنّ والإنس ،
وأعطهم أفضل ما أملوا منك في غربتهم عن

(١) كامل الزيارة ، باب : ٤٣ ، ص : ١٢١ .

(٢) كامل الزيارة ، باب : ٤٥ ، ص : ١٢٥ .

أوطانهم ، وما آثرونا به على أبنائهم وأهاليهم وقراباتهم . أللهم إن أعداءنا عابوا عليهم بخروجهم فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا خلافاً منهم على من خالفنا ، فارحم تلك الوجوه التي غيّرتها الشمس ، وارحم تلك الخدود التي تتقلّب على حفرة أبي عبد الله عليه السلام ، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا ، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا ، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا . أللهمَّ إني أستودعك تلك الأبدان وتلك الأنفس حتى توفيهم على الحوض يوم العطش الأكبر » .

قال معاوية بن وهب :

« فما زال يدعو وهو ساجد بهذا الدعاء . فلما انصرف ، قلت : جعلت فداك ، لو أن هذا الذي سمعت منك كان لمن لا يعرف الله عزّ وجلّ لظننت أن النار لا تطعم منه شيئاً أبداً ، والله لقد تمنّيت أني كنت زرته ولم أحجّ ، فقال لي : ما أقربك منه فما الذي يمنعك من زيارته ؟ ثم قال : يا معاوية لِمَ تَدَع ذلك ؟ قلت : جعلت فداك لم أرَ أن الأمر يبلغ هذا كله . فقال : يا معاوية . من يدعو لزواره في السماء أكثر ممن يدعو لهم في الأرض »[1].

---

(١) كامل الزيارة . باب : ٤٠ ، ص : ١١٦ ـ ١١٧ .

٤ ـ في حديث عن ابن بكير ، قال :

« قلت له (لأبي عبد الله الصادق ـع ـ)
إني أنزل الأرجان ، وقلبي ينازعني إلى قبر
أبيك ، فإذا خرجت فقلبي وجل مشفق حتى
أرجع خوفاً من السلطان ، والسُّعاة ، وأصحاب
المسالح ، فقال : يا ابن بكير أما تحب أن
يراك الله فينا خائفاً ، أما تعلم أنه من خاف
لخوفنا أظلَّه الله في ظلِّ عرشه ، وكان محدّثه
الحسين (ع) تحت العرش ، وآمنه الله من
أفزاع يوم القيامة ، يفزع الناس ولا يفزع ،
فإن فزع قوّته الملائكة ، وسكّنت قلبه بالبشارة »[1]

٥ ـ في حديث أبي عبد الله الصادق (ع) قال :

« يا عليّ (ابن ميمون الصايغ) زر الحسين
ولا تدعه . قال : قلت : ما لمن أتاه من الثواب ؟
قال : من أتاه ماشياً كتب الله له بكل خطوة
حسنة ، ومحى عنه سيّئة ، ورفع له درجة »[2]

٦ ـ وفي حديث عن الإمام الصادق (ع) :

« من سرَّه أن يكون على موائد النور يوم القيامة
فليكن من زوار الحسين بن عليّ عليهما السلام »[3]

٧ ـ في حديث عن الإمام موسى بن جعفر (الكاظم ـع ـ) :

« أدنى ما يثاب به زائر الحسين عليه السلام

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٤٦ ، ص : ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٢) كامل الزيارة ، باب : ٤٩ ، ص : ١٣٣ ـ ١٣٤ .
(٣) كامل الزيارة ، باب : ٥٠ ، ص : ١٣٥ .

بشط الفرات إذا عرف حقّه وحرمته وولايته
أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »[1].

٨ ـ في حديث ينتهي بسنده إلى الإمام عليّ بن موسى الرضا (ع) ، قال :

« إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته ،
وان من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة
قبورهم ، فمن زارهم رغبة في زيارتهم ،
وتصديقاً لما رغبوا فيه كان أئمتهم شفعاءهم
يوم القيامة »[2].

* * *

هذه نماذج من مئات ـ وربما ألوف ـ النصوص التي وردت عن أئمة أهل البيت في الحثّ على زيارة الحسين عليه السلام بأساليب شتّى .

وقد جاءت بعض هذه النصوص جواباً على أسئلة من هذا الرجل أو ذاك ، وأخرى وجهت ابتداءً بدون سؤال لتوجيه أفكار الشيعة نحو الزيارة .

وقد نشأ ـ بسبب هذه النصوص الخاصة بزيارة الحسين ، أو تلك التي حثّ فيها الأئمة على زيارة النبيّ (ص) أو قبور الأئمة الآخرين ، أو غيرهم من الصالحين والصالحات ـ مناخ ثقافي إجتماعي شيعي بالنسبة إلى الزيارة بوجه عام وزيارة الحسين بوجه خاص ، كوّن تيّاراً بشريّاً جارفاً يتعاظم باستمرار من جميع الأعمار والأوطان ، يزور في جميع

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٥٤ ، ص : ١٣٨ .
(٢) كامل الزيارة ، باب : ٤٣ ، ص : ١٢٢ .

الأوقات وفي جميع الحالات .

وممـــا يـــدل عـلى تعاظـــم تيـار الزيـارة بين الشيعة أن أحـد رجـال الشيعـــة شكى إلى الإمام السابع موسى بن جعفر (ع) أن زيارة الحسين غدت أمراً مشهوراً بين المسلمين ، بحيث لم يعد الزائر المتّقي قادراً على أن يمارس الزيارة دون إعلان عن نفسه ، مما يتنافى مع التقوى التي تجعل المسلم يفضّل أن يعمل الخير في السرّ ، قال :

« دخلت عليه ، فقلت له : جعلت فداك ، إن الحسين عليه السلام قد زاره من الناس من يعرف هذا الأمر ومن ينكره[1]. وركبت إليه النساء ، ووقع حال الشهرة ، وقد انقبضت منه لما رأيت من الشهرة . قال : فمكث مليّاً لا يجيبني ، ثم أقبل عليّ فقال : يا عراقي ، إن شهروا أنفسهم فلا تشهر نفسك أنت ، فوالله ما أتى الحسين آتٍ عارفاً بحقّه إلا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر »[2].

ولم يفلح الخوف من السلطة الرسمية في الحد من تنامي هذا التيار واتّساعه ، فثمة نصوص تدلُّ على أن إجراءات السلطة ما كانت لتؤثّر إلا قليلاً .

ويبدو أن هذا التيار قد بدأ ـ كما تقضي بذلك طبيعة الأشياء ـ قليلاً قليلاً ، ثم تعاظم باستمرار واتّسع نطاقه ، وغدت له مواسم ثابتة

---

(١) « هذا الأمر » مصطلح يرد كثيراً في روايات أئمة أهل البيت وأحاديثهم ، ويرد في سؤالات أصحابهم . والمراد بة التشيع ومن يعرف هذا الأمر هو الشيعي ، ومن ينكر هذا الأمر هو غير الشيعي ، وربما استعمل هذا التعبير للدلالة على التشيع في المحـاورات بسبب روح الحذر التـي كانت سائدة بين الشيعة بسبب موقف الدولة ضدهم .

(٢) كامل الزيارة ، باب : ٥٤ . ص : ١٤٠ .

تكوّنت في عهد مبكّر جداً . في عهد الإمام الصدق . ففي حديثه مع عبد الله بن حماد البصري[1] قال له الامام :

« بلغني أن قوماً يأتونه (قبر الحسين) من نواحي الكوفة . وناساً من غيرهم . ونساءً يندبنه . وذلك في النصف من شعبان . فمن بين قارئ يقرأ ، وقاص يقصّ . ونادب يندب . وقائل يقول المراثي . فقلت : نعم . جعلت فداك ، قد شهدت بعض ما تصف . فقال : الحمد الله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا . وجعل عدوّنا من يطعن عليهم من قرابتنا (وغيرهم يهدّدونهم) ويقبحون ما يصنعون »[2] .

ويبدو أن الإمام يعني بآخر كلامه العباسيّين وأتباعهم .

وقد كانت تستعمل في السفر إلى زيارة قبر الحسين جميع وسائل النقل المعروفة في ذلك الحين بالإضافة إلى المشي – كما هو الحال حتى الآن[3] وغالب النصوص تبرز أهميّة المشي إلى زيارة الحسين . وفي النصوص ذكر للسفن ، والنصوص في كامل الزيارة واردة عن الإمام الصادق إلا نصّاً واحداً منها روي عن الإمام الباقر . فمن المؤكّد أن هذا التيار بدأ يتعاظم ويتّسع نطاقه منذ العهد الأموي .

---

(١)

(٢) كامل الزيارة باب : ١٠٨ ، ص . ٣٢٥ – ٣٢٦

(٣) كامل الزيارة . باب : ٤٩ ، ص ١٣٣ – ١٣٥ .

كما كانت وفود الزائرين تتدفّق من أغلب مناطق العالم الإسلامي في ذلك الحين ، وربما من جميعها . وقد وردت في النصوص إشارات إلى زائرين قدموا من : خراسان ، أرجان ، اليمن[١] .

أمّا الذين كانوا عاجزين عن الوصول إلى قبر الحسين ، فقد كانوا يزورونه من بُعد ، وقد وضع أئمّة أهل البيت نصوصاً لزيارة الحسين من بُعد .

وقد اشتمل خبر مالك الجهني على بيان ما ينبغي للمؤمن أن يصنع حين يكون بعيداً عن كربلاء ، ولم يتمكّن من السفر إليها لزيارة الحسين :

> « .. قال : قلت : جعلت فداك ، فما لمن كان في بُعد البلاد وأقاصيها ولم يمكنه المصير إليه في ذلك اليوم (يوم عاشوراء) ؟ قال : (الإمام الباقر ـ ع ـ) إذا كان ذلك اليوم برز إلى الصحراء ، أو صعد سطحاً مرتفعاً في داره ، وأومى إليه بالسلام ، واجتهد على قاتله بالدعاء ، وصلى بعده ركعتين ، يفعل ذلك في صدر النهار قبل الزوال ، ثم ليندب الحسين ويبكيه ، ويأمر من في داره بالبكاء عليه ... »[١] .

وهكذا تتاح فرصة المشاركة في الزيارة ، والإنفعال بها ، وتجديد الصلة من خلالها بالحسين وما يمثّل ، لكل إنسان ، وفي جميع الحالات .

وهذا الذي ذكرنا من تشريع الزيارة حالة البعد يكشف عن حرص أئمة أهل البيت الشديد على تأصيل جذور مؤسسة الزيارة في كل قلب ليتاح لها أن تؤدي مهمتها التربوية والتوجيهية على أوسع نطاق .

---

(١) كامل الزيارة ، باب ٦٢ ، ص : ١٥٤ وباب : ٦ ، ص ١٦٣ . [illegible]

ومع أن الزيارة أمر مندوب إليه ومستحبّ في جميع أيام السنة ، إلا أن ثمة أياماً وليالي بعينها يعظم فيها فضل زيـارة الحسين ، وهي : يوم عرفة ، التاسع من شهر ذي الحجّة ، ويوم الفطر أول شهر شوال ، ويوم الأضحى في العاشر من شهر ذي الحجّة ، واليوم العاشر من شهر محرم (زيارة عاشوراء) . واليوم الأول من شهر رجب ، واليوم الخامس عشر من شهر رجب ، واليوم الخامس عشر من شهر شعبان . وليالي القدر : التاسعة عشر ، والحادية والعشرين ، والثالثة والعشرين من شهر رمضان .

وربما أضيفت إلى هذه المواسم زيارته في اليوم العشرين من شهر صفر ، وهي زيارة الأربعين (بمناسبة مرور أربعين يوماً على استشهاد الحسين = ١٠ محرم ـ ٢٠ صفر) ويجتمع فيها عند قبر الحسين (ع) في كربلاء أكبر عدد من الزائرين ، وإن كانت لا تتمتّع عند العلماء بالمنزلة التي تحظى بها سائر الزيارات المؤقتة التي سبق ذكرها ، لأن رواية زيارة الأربعين ضعيفة السند وضعيفة الدلالة .

* * *

لقد تمكن أئمة أهل البيت بتوجيههم هذا ـ بالإضافة إلى العامل الشخصي للحسين وثورته عند كل مسلم ـ تمكنوا من جعل شخصية الحسين وثورته ومأساته ، وما حلّ به وبأهل بيته وأصحابه في كربلاء ، شيئاً حيّاً نابضاً يستعاد باستمرار ، وذلك عن طريق الزيارة ، موصولاً بأسبابه وأهدافه ، حاملاً التمجيد والتكريم للحسين وآله ، مشتملاً على معاهدة الزائر نفسه أمام الله أن يسير على هذا النهج ويتبع هذا الطريق .
[illegible] أيضاً [illegible] إدانة القوى [illegible] التي [illegible] جريمتها الشنيعة في [illegible] . و[illegible] الذكرى الأخرى [illegible] المتأخرة في [illegible] . التي

تتابع تلك القوى المجرمة في مثلها ، وشعاراتها ، ومواقفها :

« ... ولعن الله أمّة قتلتكم ، ولعن الله الممهدين لهم بالتمكين من قتالكم ، برئت إلى الله وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم »[١].

« ... فلعن الله من قتلكم ، ولعن الله من أمر به ، ولعن الله من بلغه ذلك فرضي به »[٢].

ولقد تنبهت القوى الحاكمة في عهد الأمويين والعباسيين ومن تلاهم إلى خطورة هذا التيار ، وإلى ما يمكن أن يكوّن بين الناس من حالة وعي للواقع وإدانة للقوى السياسية المسيطرة ، فحدثت محاولات شتّى ، على مدى التاريخ الإسلامي ، من قِبَل السلطات وأعوانها ، تهدف إلى منع تدفّق الزائرين إلى كربلاء .

وقد اتخذت هذه المحاولات مظهرين :

المظهر الأول :

وضع المسالح والأحراس على الطرق المؤدية إلى كربلاء لمنع الزائرين من الوصول إلى قبر الحسين ، وإنزال شتى العقوبات بمن يقبض عليه منهم ، وقد تصل العقوبة في بعض الحالات إلى القتل .

ويبدو أن هذا المظهر القمعي كان شديد الوطأة بحيث انعكس على تصرّف الشيعة في ممارستهم للزيارة ، وكان سبباً لكثرة السؤال عن حكم الزيارة في حالة الخوف ، وبحيث أن ابن قولويه القمي عقد في كتابه باباً خاصّاً بعنوان : « الباب الخامس والأربعون ـ ثواب من زار الحسين عليه السلام وعليه خوف » . أثبت فيه بعض ما ورد عن

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٧١ ، ص : ١٧٦ .

(٢) كامل الزيارة ، باب : ٧٩ ، ص : ٢٠٢ .

أئمة أهل البيت في هذا الشأن ، وبعض ما أورده مروي عن الإمام أبي جعفر الباقر (ع) وبعضه الآخر مروي عن أبي عبد الله الصادق (ع) ، وهذا يعني أن قمع هذه الممارسة الشيعية كان موجوداً في العهد الأموي واستمر إلى العهد العباسي . وفيما يلي بعض ما أورده ابن قولَويه من هذه النصوص :

« عن مسلم بن محمد ... قال : قال لي أبو جعفر محمد بن عليّ عليه السلام : هل تأتي قبر الحسين (ع) ؟ قلت : نعم [illegible] خوف ووجل ، فقال . ما كا[illegible] من هذا أ[illegible] فالثواب فيه على قدر الخوف .. »[1].

« .. عن الأصم ، عن إبن بكير ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : قلت له : إني أنزل الأرجان[2] ، وقلبي ينازعني إلى قبر أبيك ، فإذا خرجت فقلبي وجل مشفق حتى أرجع خوفاً من السلطان . والسعاة[3] . وأصحاب المسالح[4] .. »[5].

ومن ذلك ما حدَّث به الحسين بن أبي حمزة الثمالي ، قال :

« خرجت في آخر زمان بني مروان إلى زيارة قبر الحسين عليه السلام مستخفياً من أهل الشام حتى انتهيت إلى كربلاء . فاختفيت

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٤٥ ، ص : ١٢٧ .

(٢) الارجان .

(٣) السعاة : الجواسيس الذين تدسهم السلطة لإبلاغها عن تصرفات الناس ونشاطهم المعارض لها .

(٤) أصحاب المسالح : شرطة الحدود .

(٥) كامل الزيارة ، باب : ٤٥ ، ص ١٢٦ .

في ناحية التربة حتى إذا ذهب من الليل
نصفه .. [1] .

ومن ذلك قول عبد الله بن حماد البصري للإمام الصادق (ع) :
« جعلت فداك ، قد كنت آتيه (قبر الحسين)
حتى بليت بالسلطان ، وفي حفظ أموالهم .
وأنا عندهم مشهور ، فتركت للتقية إتيانه [2] .

ومن ذلك قول مسمع كردين للإمام الصادق حين سأله : « أما تأتي قبر الحسين ؟ » .
« قلت : لا ، أنا رجل مشهور من أهل البصرة ،
وعندنا من يتبع هوى هذا الخليفة . وأعداؤنا
كثيرة من أهل القبائل من النُّصَّاب وغيرهم .
ولست آمنهم أن يرقبوا حالي عند ولد سليمان
فيميلوا عليّ » وسليمان الذي ورد ذكره هو
سليمان بن عبد الله بن عباس عامل البصرة الكامل

هذا الأسلوب في مكافحة الزيارة الحسينية لم يفلح في كبح التيار الجارف الذي أخذ يتعاظم باستمرار ، فإن النصوص التي نقلها ابن قولويه وغيره وواقع التاريخ تثبت أن هذا التيار بقي ثابتاً وفي تصاعد مستمر دون أن يؤثِّر القمع عليه .

(١) كامل الزيارة ، باب : ٣٨ ، ص : ١١١ - ١١٢ .
(٢) كامل الزيارة ، باب : ١٠٨ ، ص : ١٢٥ .

المظهر الثاني :

محاولة إزالة موضوع الزيارة ، وذلك بهدم القبر وإزالة معالمه ليضيع مكانه فلا يهتدى إليه . وقد تجلّى هذا المظهر في عهد المتوكل العباسي بالقرار الذي اتخذه بهدم قبر الحسين ، ونترك أبا الفرج الأصفهاني يحدثنا بأسلوبه عما حدث حينذاك :

« كان المتوكل شديد الوطأة على آل أبي طالب غليظاً على جماعتهم ، مهتماً بأمورهم ، شديد الغيظ والحقد عليهم ، وسوء الظن والتهمة لهم . واتفق له أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزيره يسيء الرأي فيهم ، فحسن له القبيح في معاملتهم ، فبلغ فيهم ما لم يبلغه أحد من بني العباس قبله . وكان من ذلك أن كرب[1] قبر الحسين وعفى آثاره ، ووضع على سائر الطرق مسالح له . لا يجدون أحداً زاره إلا أتوه به فقتله أو أنهكه عقوبة .

« فحدثني أحمد بن الجعد الوشا ، وقد شاهد ذلك ، قال :

« كان السبب في كرب قبر الحسين أن بعض المغنيات كانت تبعث بجواريها إليه قبل الخلافة يغنين له إذا شرب ، فلما وليها بعث إلى تلك المغنية فعرف أنها غائبة ، وكانت قد زارت قبر الحسين ، وبلغها خبره ، فأسرعت الرجوع ، وبعثت إليه بجارية من جواريها كان يألفها ،

(١) في القاموس : الكرب : إثارة الأرض للزرع .

فقال لها : أين كنتم ؟ قالت : خرجت مولاتي إلى الحجّ وأخرجتنا معها ، وكان ذلك في شعبان ، فقال : إلى أين حججتم في شعبان ؟ قالت : إلى قبر الحسين ، فاستطير غضباً ، وأمر بمولاتها فحبست ، واستصفى أملاكها ، وبعث برجل من أصحابه يقال له : (الديزج) ـ وكان يهودياً ـ إلى قبر الحسين ، وأمره بكرب قبره ومحوه ، وإخراب كل ما حوله ، فمضى لذلك ، وخرب ما حوله ، وهدم البناء وكرب ما حوله نحو مائتي جريب ، فلما بلغ إلى قبره لم يتقدم إليه أحد ، فأحضر قوماً من اليهود فكربوه ، وأجرى الماء حوله ، ووكل به مسالح ، بين كل مسلحتين ميل ، لا يزوره زائر إلا أخذوه ووجهوا به إليه » .

« فحدثني محمد بن الحسين الأشناني » ، قال :

« بَعُدَ عهدي بالزيارة في تلك الأيام خوفاً ، ثم عملت على المخاطرة بنفسي فيها ، وساعدني رجل من العطارين على ذلك ، فخرجنا زائرين نكمن النهار ونسير الليل حتى أتينا نواحي الفاخرية ، وخرجنا منها نصف الليل فسرنا بين مسلحتين حتى أتينا القبر وقد خفي علينا ، فجعلنا نشمّه ونتحرّى جهته حتى أتيناه ، وقد قلع الصندوق الذي كان حواليه وأحرق ، وأجري الماء عليه فانخسف موضع

اللّبن وصار كالخندق ، فزرناه ، وأكببنا عليه فشممنا منه رائحة ما شممت مثلها قط كشيء من الطيب ، فقلت للعطار الذي كان معي ، : أي رائحة هذه ؟ فقال : لا والله ما شممت مثلها كشيء من العطر ، فودعناه ، وجعلنا حول القبر علامات في عدة مواضع » .

« فلما قتل المتوكِّل اجتمعنا مع جماعة من الطالبيين والشيعة حتى صرنا إلى القبر ، فأخرجنا تلك العلامات ، وأعدناه إلى ما كان عليه »[1].

وقال الطبري في تاريخه : (ج٩ ص١٨٥) في أحداث سنة ٢٣٦ هـ :

« فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق[2] ، فهرب الناس وامتنعوا من

(١ . مقاتل الطالبيين : ٥٩٧ ـ ٥٩٩ . وقال ابن خلكان : لما هدم المتوكل قبر الحسين بن علي عليه السلام في سنة ـ ٢٢٦ ـ قال البسامي . :

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على ألا يكونوا شايعوا ... في قتله فتتبعوه رميما

وأورد الطوسي في الأمالي (ص ٢٠٩) عن عبدالله بن دانية الطوري ، قال : حججت سنة (٢٤٧) سبع وأربعين ومائتين ، فلما صدرت من الحج وصرت إلى العراق زرت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على حال خيفة من السلطان ، ثم توجهت إلى زيارة الحسين ، فإذاهو قد حرث أرضه ، وفجر فيها الماء وأرسلت الثيران والعوامل في الأرض فبعيني وبصري كنت أرى الثيران تساق في الارض فتنساق لهم حتى إذا جاءت القبر حادت عنه يميناً وشمالاً ، فتضرب بالعصي ، الضرب الشديد فلا ينفع ذلك ، ولا تطأ القبر بوجه ، فما أمكنني الزيارة ، فتوجهت إلى بغداد وأنا أقول : تالله أمية قد أتت ، الأبيات جواد شبر / أدب الطف ـ ج ١ / ص ٣٢٧ ، الطبعة الأولى ـ بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩ م.

(٢) المطبق : سجن إنفرادي غالباً ، هو عبارة عن حفرة عميقة في الأرض لا يصل إليها نور الشمس ، سيئة التهويه ، وقلما كان ينجو أحد من ضحاياها من الموت فيها أو القتل ، فهي في الغالب سجن المحكومين بالإعدام

المصير إليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه » .

ولا بد أن نفترض أن هذا الإرهاب قد أثّر إلى حدٍّ ما لبعض الوقت على نشاط الحركة نحو الزيارة ، فجمّدها ، بل يبدو أن الإضطهاد قد تعاظم في بعض الفترات إلى حد حمل الإمام الثاني عشر (المهدي محمد ابن الحسن) على إصدار توجيه عام إلى الشيعة ينهاهم فيه عن زيارة مقابر قريش في بغداد (حرم الإمامين : موسى بن جعفر الكاظم وعليّ ابن موسى الهادي) وخرم الحسين في كربلاء[1] .

ولكن إذا كان أسلوب القمع ، ثم أسلوب هدم القبر مضافاً إليه أسلوب القمع قد جمَّدا لبعض الوقت نموّ الحركة نحو الزيارة أو منعا منها فإنهما لم يقضيا عليها بشكل نهائي ، لقد اغتنم الشيعة كل فرصة سانحة لتنشيط الحركة نحو الزيارة ، وخاصة بعد عهود القمع والإضطهاد ، بل إن الحركة نحو الزيارة بعد هذه العهود كانت تعود بصورة أكثف وأشدّ تنوّعاً مما كانت عليه قبل منعها وقمع الزائرين والتنكيل بهم ؛ ولا تفسير لذلك إلا بأن ثورة الحسين وشخصيته استمرتا في النمو في الوجدان الشعبي نمواً مطرداً لم يتوقف عند حدّ من حيث حجم النمو ونوعه ، ولا يزال ينمو ويتّسع مداه إلى يومنا هذا .

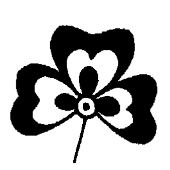
---

(١) اعلام الورى ، ص : ٤٢١ ، وغيبة الشيخ الطوسي ، ص : ١٧٢ . ويبدو أن الوضع الارهابي في هذه الفترة من العصر العباسي قد ازداد عما كان عليه في بداية الدولة العباسية وفي العصر الأموي بحيث دفع الإمام إلى تجميد حركة الشيعة نحو الزيارة ، -وهذا ما لم يحدث في عصر الإمام الصادق (ع) الذي وردت عنه أكثر روايات الزيارة مع الخـوف ، وفي بعضها يوجه الشيعة إلى عدم اعتبار الخوف ذريعة للإمتناع عن الزيارة . من مثل قوله لمعاوية بن وهب : « يـا معاوية لا تدع زيارة قبر الحسين (ع) لخوف .. » كامل الزيارة . باب : ٤٥ ، ص : ١٢٦ .

بعد أن عرفنا الزيارة من خارج : دوافعها وتاريخها ، ومعوّقاتهـا ، وظروفها ، وأوقاتها ، ونموّها المطرد ـ علينا أن نتعرَّف عليها من الداخل ـ إذا صحَّ التعبير ـ فنستعرض نماذج من النصوص التي رويت عن أئمة أهل البيت (ع) ليزار بها الحسين (ع) مع تحليل موجز لكل منها .

ونورد هنا نموذجين لزيارات الحسين : أحدهما مطوَّل ومفصَّل ، والآخر موجز ومجمل ، ويعتبر هذان النموذجان ممثلين لعشرات النصوص التي وردت عن أئمة أهل البيت ليزار بها الحسين ، وكذلك لتلك النصوص التي وضعت ليزار بها غير الحسين من أئمة أهل البيت .

وهذان النموذجان مرويان عن الامام أبي عبد الله الصادق .





٥- نموذجان من زيارات الحسين

ـ ١ ـ عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق ؛ قال : إذا دخلت الحائر[1] فقل :

١ ـ « أللهمّ هذا مقام أكرمتني به ، وشرّفتني به . أللهمَّ فأعطني فيه رغبتي على حقيقة إيماني بك وبرسُلك » .

استهلال الزيارة بشكر الله تعالى على إكرام الزائر وتشريفه بإتاحة بإتاحة فرصة الزيارة له ، ثم دعاء الله تعالى بأن يستجيب له ويعطيه سؤله على حقيقة إيمانه بالله والنبوّات :

٢ ـ سلام الله عليك يا بن رسول الله ، وسلام ملائكته فيما تروح وتغتدي به الرائحات الطاهرات لك وعليك . وسلام على ملائكة

---

(١) الحائر في الأصل الموضع المطمئن الذي يحار الماء فيه . بمعنى أنه لا يكون له منفذ يسيل منه ، وورد في حديث أهل البيت إسماً لمساحة محيطة بقبر الحسين هي محل خلاف من حيث التحديد بين الفقهاء بسبب كونها موضوعاً لحكم فقهي هو تخيير المسافر بين قصر الصلاة وإتمامها في الحائر . فابن إدريس الحلي ذهب إلى أنه ما دار سور المشهد والمسجد عليه . وعن بعضهم انه مجموع الصحن المحيط بالمشهد والمسجد ، وعن بعض آخر أنه ما أظلته القبة المقامة فوق القبر ، وعن بعض خزانة الروضة المقدسة وما أحاط بها من العمارات المقدسة من الرواق والمقتل والخزانة وغيرها . والأظهر عند المجلسي صاحب البحار (أنه مجموع الصحن القديم ، لا ما تحدد منه في الدولة الصفوية) ويرى السيد الحكيم رحمه الله أن الإقتصار على القدر المتيقن من معنى الحائر ومن معنى الحرم وهو ما يقارب الضريح المقدس ـ متعين / مستمك ٧١٨/٨ ، يبدو أن تسمية القبر وما حوله بـ (الحائر نشأت بعد محاولة المتوكل هدم القبر . (تحقيق هده النقطة) .

الله المقرَّبين ، وسلام على المسلِّمين لك بقلوبهم ،
الناطقين لك بفضلك بألسنتهم » .

وبعد الإستهلال بذكر الله وشكره يبدأ الزائر بالسلام على الحسين ، ثم يسلِّم على ملائكة الله ، ثم يسلِّم على جميع الناس المؤمنين بموقف الحسين ، المعلنين إيمانهم به .

وهذا يوحي بأن الحسين ليس وحيداً ، وان زائره المؤمن بقضيته ليس وحيداً ، وإنما هما جزء من حركة كبيرة يباركها الله ، ويسلِّم مع الملائكة على رجالها ونسائها ، ومنها الملائكة المقرَّبون ، ومنها أولئك الناس المؤمنون المصدقون بقلوبهم بالحسين ، المعلنون إيمانهم بألسنتهم .

٣ ـ « أشهد أنك صادق صدّيق ، صدقت فيما
دعوت إليه ، وصدقت فيما أتيت به ، وأنك
ثأر الله في الأرض من الدم الذي لا يدرك ثأره
في الأرض إلا بأوليائك » .

« أللهمَّ حبِّب إليَّ مشاهدهم وشهادتهم ، حتى
تُلحقني بهم ، وتجعلني لهم فرطاً وتابعاً في
الدنيا والآخرة » .

يعلن الزائر في هذه المرحلة من زيارته إرتباطه الإيماني والمبدئي بالحسين .

فهو يشهد ، أولاً ، للحسين بالصدق فيما أتى به ودعا إليه .

وهو يشهد ثانياً ، بأن الحسين ، وقد ذهب ضحية دعوته الصادقة المخلصة ، لا يختصّ بأحدٍ من الناس ، ولا يختصّ بقوم من الناس ، وإنما ملك للإنسانية بأجمعها ، وهو لذلك « ثارالله » . إن الثأر له ، إذن ، قضية عامة لا يمكن أن يتعامل معها النفعيون والمنحرفون ، وإنما يتعامل معها أولياء الله .. « من الدم الذي لا يدرك ثاره من الأرض إلا

بأوليائك » .

ثم يتوجّه الزائر بعد هذه الشهادة التي تعني الإرتباط العقلي و المبدئي ـ إلى الله تعالى سائلاً أن يربطه الله بالحسين عاطفياً .. « حبّب إليّ مشاهدهم وشهادتهم » وذلك من أجل أن يلحق بهم في جهادهم ،ويكون لهم فرطاً « مقدمة » في الشهادة ، وتابعاً لهم في المبدأ في الدنيا والآخرة .

٤ ـ « سبحان الله الذي سبّح له الملك والملكوت ، وقدست بأسمائه جميع خلقه ، وسبحان الله الملك القدوس ، ربّ الملائكة والروح .
« اللهم اكتبني في وفدك إلى خير بقاعك وخير خلقك . أللهمَّ العن الجبت والطاغوت والعن أشياعهم وأتباعهم . أللهمّ أشهدني مشاهد الخير كلها مع أهل بيت نبيّك . أللهمَّ توفّني مسلماً واجعل لي قدم صدق مع الباقين الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون من عبادك الصالحين » .

هنا عودة إلى ذكر الله وتسبيحه . ثم دعاء الله بأن يقبل وفوده وزيارته إلى الحسين ، فيكتبه في الوافدين إليه ـ وهذه نتيجة لما سبق أن أعلنه الزائر من الإرتباط المبدئي والعاطفي بالحسين وثورته ، ثم يعلن الزائر موقفه السلبي الرافض لأعداء الحسين ودعوته من بني أمية وممثّلي خطّهم في التاريخ ، وهم أتباعهم .

ثم يعود إلى الدعاء في ابتهال صادر من أعماق النفس المتعطّشة إلى لقاء الله طاهرة نقيَّة ، فيدعو الله تعالى بأن يجعله من جملة عباده الصالحين الذين تكون حياتهم سلسلة من الجهاد في سبيل الله ، وتكون نهايتها على الإيمان والإسلام .

٥ ـ « أللهمَّ اكتب لي إيماناً وثبّته في قلبي . أللهمَّ
اجعل ما أقول بلساني حقيقة في قلبي ،
وشريعة في عملي ، أللهمَّ اجعلني ممن له مع
الحسين عليه السلام قدم ثبات ، وأثبتني
فيمن استشهد معه » .

في هذه المرحلة من الزيارة يعود الزائر إلى الله سائلاً إيّاه أن يثبّته على الإيمان الصحيح ، وهنا تتضمَّن الزيارة التأكيد على مسألة كبرى من مسائل الإيمان الصحيح ، بل هي المسألة الكبرى في هذا الإيمان ، وهي أن هذا الإيمان ليس اعتقاداً فقط ، وإنما هو إعتقاد وعمل ، نظرية وسلوك ، فما يطمح إليه الزائر ليس إيماناً نظرياً ، وإنما إيمان حيّ متحرّك . وبهذا يتجلى كيف أن الزيارة موظفة لخدمة الخط الإسلامي الصافي الصريح العملي .

ثم يعود الزائر إلى الحسين فيدعو الله أن يكتبه فيمن استشهد مع الحسين ، باعتبار أن هؤلاء الشهداء يمثّلون ذروة المسلكيّة التي يتحوَّل فيها الإيمان إلى عمل وسلوك .

٦ ـ « أشهد أنك طهر طاهر من طهر طاهر .
طهرت ، وطهرت بك البلاد ، وطهرت أرض
أنت بها ، وطهر حرمك » ..
« أشهد أنك أمرت بالقسط والعدل ، ودعوت
إليهما ، وأنك ثار الله في أرضه حتى يستثير
لك من جميع خلقه .
« صلوات الله على روحك وعلى بدنك .
صدقت وأنت الصادق المصدق ، وقتل الله من
قتلك بالأيدي والألسن » .

الطهارة هنا تعني البراءة من الذنوب الدينية والأخلاقية . فالقداسة التي يتمتَّع بها الحسين ناشئة من طهارته وليس من أي منبعٍ آخر . وهذه الطهارة تنتشر حيث يحـل الإنسان الطاهر . فالأمكنة لا تتمتع ـ بذاتها ـ بأيّة قداسة ، وإنما تستمدّ قداستها من كونها مركزاً لعمل ونشاط الإنسان الطاهر .

بعد ذلك يشهد الزائر للحسين بأن ثورته كانت في سبيل العدالة : كانت العدالة شعارها وغايتها ، ومن ثم فالحسين « ثأر الله » وليس ثأراً لأحد من الناس أو فئة من الفئات ، لأن العدالة التي سعى إلى إقرارها هي عدالة الله .

ويشهد له بعد ذلك بالصدق العملي : المسلكية التي تصدّق بالفعل والمعانات والشعارات والمعتقد النظري . وهذا ما يجعله ضدّاً للحاكمين باسم الإسلام أصحاب الشعارات التي لا يشهد واقع سلوكهم ما يصدقها .

ثم يكرّر الزائر البراءة من أعداء الحسين ، الذين هم في نفس الوقت أعداء العدالة والصدق .

٧ ـ « السلام عليكم أيها الشهداء ، أنتم لنا فرط ، ونحن لكم تبع . أبشروا بموعد الله الذي لا خلف له . الله مدرك لكم وتركم ، ومدرك بكم في الأرض عدوه . أنتم سادة الشهداء في الدنيا والآخرة » .

هذه التحيّة هي للرجال الذين رزقوا الشهادة مع الحسين في كربلاء . وكل زيارة من زيارات الحسين فيها تحيّة وسلام للشهداء .

وفي هذه التحية يعلن الزائر أن الشهداء فرط له ـ سابقون عليه ـ وأنه تبع لهم ، وأنهم جميعاً ـ الزائر والشهداء ـ رفقاء في مسيرة جهادية واحدة . وهكذا يربط الزائر حياته بالنهج الذي سار عليه الشهداء ،

وماتوا من أجله .

٨ ـ « الحمد لله المتوحد في الأمور كلها . خلق الخلق فلم يغب شيء من أمورهم عن علمه ، فعلمه بقدرته .

« ضمنت الأرض ومَن عليها دمك وثأرك يا ابن رسول الله صلى الله عليك . » .

« أشهد أن لك من الله ما وعدك من النصر والفتح ، وأن لك من الله الوعد الصادق في هلاك أعدائك ، وتمام موعد الله إيّاك .

« وأشهد أن من اتبعك الصادقون الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم (**أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم**) [١] » .

بعد حمد الله وتوحيده في هذه الفقرة يعلن الزائر عن « كونية » القضية الحسينية ، فالأرض ومَن عليها ضامنون لدمه وثأره ، وذلك لأن ثورته ثورة إنسانية ذات طابع شمولي ، وليست ذات طابع عائلي أو أسري أو طائفي ، ولأنها ثورة من أجل تأكيد حقائق غير مرحلية ، بل من أجل تأكيد حقائق خالدة وممتدة في مستقبل الزمان والإنسان ، كما هي ذات جذور عميقة في ماضي الإنسان والزمان وحاضرها .

ثم يعبِّر الزائر عن الأمل ، فاستشهاد الحسين والقضاء على ثورته لا يقضي على الأمل ، ولا يلقي في وهدة اليأس المعطِّل عن العمل ، فالقضية الحسينية رأس الحربة في تاريخ طويل متلاحق من النضال في سبيل قضية الإنسان المسلم ، والإنسان بوجه عام ، ولذا فإن الوعد

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٢٣ ، ص : ٧٥ .

الإلهي بالنصر الحاسم في النهاية وعد صادق يتحقق ولا بدَّ أن يتحقَّق . ولذا فإن الشيعي يعمل في الخط الحسيني بوحي من هذا الأمل الثابت بتحقق وعد الله .

وهذه الفقرة تستدعي إلى الذاكرة كلمة الحسين التي كتب بها من مكة حين عزم على الخروج إلى أخيه محمد بن الحنفية وبني هاشم :

« أمّا بعد ، فإن من لحق بي استشهد ، ومن
لم يلحق بي لم يدرك الفتح »[1].

ثم في نهاية هذا المقطع من الزيارة ، يجدّد الزائر شهادته بصدق أنصار الحسين :

٩ ـ « الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له
شريك في الملك ، وخلق كل شيء فقدَّره تقديرا.
« أشهد أنك دعوت إلى الله وإلى رسوله ، ووفيت
لله بعهده ، وقمت لله بكلماته ، وجاهدت في
سبيل الله حتى أتاك اليقين .
« لعن الله أمّة قتلتك ، ولعن الله أمّة ظلمتك ،
ولعن الله أمّة خذلتك ، ولعن الله أمّة خذَّلت
عنك .
« أللهمّ إني أشهدك بالولاية لمن واليت ووالته
رُسُلك ، وأشهد بالبراءة ممن وبَرِئَت منه وبَرأتْ
منه رسُلك . أللهمَّ العن الذين كذَّبوا رُسُلك ،
وهدموا كعبتك ، وحرَّفوا كتابك ، وسفكوا
دماء أهل بيت نبيّك ، وأفسدوا في بلادك ،

(١) كامل الزيارة ، باب : ٢٣ ، ص : ٧٥ .

واستذلّوا عبادك ، أللهمّ ضاعف عليهم العذاب فيما جرى من سبلك ، وبرّك وبحرك ، أللهمّ العنهم في مستسرّ السرّ وظاهر العلانية في أرضك وسمائك »[1] .

في هذا المقطع تبلغ الزيارة ذروتها .

يعود الزائر إلى حمد الله وتعظيمه . ونلاحظ هنا أن ذكر الله وحمده وتعظيمه يتخلّل جميع مقاطع الزيارة ، فالزائر يذكر الله بألوان شتّى من الذكر من خلال زيارته للحسين ، وزيارته للحسين نفسها نوع من ذكر الله بذكر عبدٍ صالح من عباده جاهد في سبيله .

ثم يعود الزائر إلى إعلان شهادته للحسين بأن ثورته كانت في سبيل الله.

ثم يلعن الزائر كل القوى المضادة لدعوة الحسين وثورته : الذين خذلوه والذين خذّلوا عن نصرته ، والذين قتلوه .

ثم يعلن الزائر ارتباطه المصيري الثابت بخط الحسين النضالي ، وبراءته المطلقة من أعداء هذا الخط .

ثم يعود الزائر بأسلوب متوتر إنفعالي يناسب الحالة النفسية التي ينبغي أن يكون الزائر قد بلغها حين انتهى إلى هذه المرحلة من الزيارة ــ بعود إلى تأكيد براءته المطلقة الكاملة من أعداء الحسين بلعنهم مع ذكر الأوصاف والسلوك الموجب لهذا اللعن ، فهم قد كذّبوا الرسول ، وهدموا الكعبة ، وحرّفوا الكتاب ، وسفكوا دماء أهل البيت ، وأفسدوا البلاد واستذلّوا العباد .

وهنا إشارات واضحة إلى وقائع تاريخيّة معيّنة ، فها وقعـــة الحـــرة

---

(١) كامل الزيارات ، باب : ٧٩ ، ص :١٩٤ ــ ١٩٧ .

ومنها ثورة ابن الزبير وقضاء الحجّاج عليها ، وهدم الكعبة المشرّفة .

* * *

هذا النموذج للزيارة يمثّل القسم الأكبر من النصوص التي يزار بها الحسين ، وهو يشتمل على العناصر التالية :

١ ــ ذكر الله وتسبيحه وتحميده ، وبيان سعة سلطانه ، وقدرته وعظمته .

٢ ــ تعظيم الحسين وأهل البيت باعتبارهم ممثلين للشريعة وللسلوك المستقيم الملتزم بالشريعة ، وقضايا الإنسان المسلم ، والإنسان بوجه عام .

٣ ــ ذكر ثورة الحسين وشهادته والشهداء معه باعتبارها ذروة النضال في سبيل إحقاق الحقّ وإقامة العدل ، وإعطائها صفة الشمول والكونية ، بحيث أن شهداءها هم : « ثأر الله » .

٤ ــ التركيز على الأمل في نصرٍ آتٍ ، ورفض اليأس .

٥ ــ إعلان الإرتباط المصيري بين الإنسان الشيعي وبين الحسين ونهجه ، وإعلان البراءة المطلقة من كل القوى التي يخالف منهجها منهج الحسين .

كل هذه العناصر تتكرَّر في الزيارة بأساليب شتّى وعبارات متنوعة ومن منظورات مختلفة الزوايا لتؤدي إلى هدف واحد : جعل الثورة الحسينية بما هي ممارسة للإسلام ولمبادئه جزءاً نابضاً بالحياة في الوجدان ، موحياً بشتى المعاني المناسبة له في الحياة اليومية .

* * *

ـ ٢ ـ

عن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام ، قال :

إذا أتيت قبر الحسين بن عليّ عليهما السلام ، فقف بالباب وقل هذه الكلمات :

١ ـ « السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله ،
السلام عليك يا وارث نوح نبيّ الله ، السلام
عليك يا وارث إبراهيم خليل اللّه
السلام عليك يا وارث موسى كليم الله ،
السلام عليك يا وارث عيسى روح الله ،
السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله ،
السلام عليك يا وارث عليّ وصي رسول الله ،
السلام عليك يا وارث الحسن الرضيّ ،
السلام عليك يا وارث فاطمة بنت رسول الله » .

في هذا النموذج تقدم ثورة الحسين من منظور آخر يختلف عن المنظور الذي قدمت منه هذه الثورة في النموذج السابق .

فلقد اتهمت ثورة الحسين من قبل النظام بأنها خروج عن الخط العام ، إنها تمرّد على السلطة الشرعية ، إنها شق لعصا الجماعة ، ولذلك فإنها شذوذ في حركة سير الإسلام ، ولذلك فإنها تفقد الشرعية .

لقد حاول الأمويون إسباغ هذه الصفة على ثورة الحسين ، ولا شكّ في أن أجهزة الإعلام حينذاك « المحدثين المأجورين » والقُصّاص ؛ قد حاولوا إعطاء هذه الصورة عن ثورة الحسين للجمهور ، ولم يكتب لهذه المحاولة النجاح المرجوّ ، وإن كانت قد أفلحت في أن تكوِّن بعض المواقف التافهة لبعض الفقهاء والصوفية ، نجد حطامها في بعض كتبهم

متمثِّلاً في عبارات غير وديَّة عن ثورة الحسين .

لقد تصدّى أئمة أهل البيت وتابعوهم من العلماء لدحض هذا الإفتراء ، فبدلاً من ان توضع ثورة الحسين خارج الشرعية ، يوضع النظام الأموي كله ، خارج الشرعية ، وكذلك يوضع خارج الشرعية كل امتداد له في الزمان متمثِّلاً بأي نظام يحمل شعارات بني أميَّة .

وكانت الزيارة بوجه عام إحدى وسائل دحض هذا التزوير وفضحه ، وكان هذا النموذج من الزيارات معنياً بهذه النقطة أكثر من غيره من الزيارات .

فثورة الحسين في هذا النموذج موصولة الوشائج بحركة الإسلام ذات التاريخ العريق في عمر البشرية ، الموغل في الزمان إلى أول وجود بشري يحمل الإسلام في صيغته الأولى على هذه الأرض ممثلة بآدم أبي البشر ، مارَّةً بنوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، منتهية بعليٍّ والحسن عليهما السلام .

فليست الثورة ـ من هذا المنظور ـ حدثاً لا سابقة له ، وإنما هي جزء من حركة الإسلام في التاريخ ، إنها إمتداد لحركة أنبياء الله وأوصيائهم في الزمان والمكان والإنسان .

وإذن ، فهي تتمتَّع بالشرعية ، ومن ثم فإنها من حقها أن تنال تأييد المسلمين جميعاً ، ومن ثم فإن الضدّ القانوني والسياسي لها ، وهو النظام ، هو الذي لا يتمتع بالشرعية ، ومن ثم فإن من واجب الناس أن يحطِّموه انتصاراً لها .

هذا هو أحد أهداف هذا النموذج من الزيارات ، ولعلها أكبرها أهمية في نظر أئمة أهل البيت .

وثمة هدف آخر وهو أن يدرك الإنسان المسلم الشيعي أنه متصل من خلال ثورة الحسين بالإسلام في امتداده إلى أبعد الآماد . وأن هذا

الإسلام إذا كان متحركاً في عمود الزمان على هذا النحو فإنه لم يتوقف عند ثورة الحسين ، وإنما أخذ من هذه الثورة دفعة جديدة وقوّة جديدة ، وإنه لا يزال يختزن إمكانية الحركة الفاعلة المغيّرة من خلال البطولات الإيمانية الواعية التي تؤمن به ، وتعمل لخير الإنسانية من خلاله ، وعلى هداه .

٢ ـ « السلام عليك أيها الصدّيق الشهيد ، السلام عليك أيها الوصيّ البارّ التقيّ ، السلام عليك يا حجّة الله وابن حجّته ، السلام على الأرواح التي حلّت بفنائك وأناخت برحلك . السلام على ملائكة الله المحدّقين بك » .

بعد إعلان الزائر في المقطع السابق وعيه لموقع ثورة الحسين في حركة الإسلام التاريخيّة ، ومن ثم وعيه لشرعيتها وعدم شرعية النظام الذي قامت ضدّه ـ بعد هذا يعلن الزائر في هذا المقطع من الزيارة وعيَه للصفات التي جعلت للحسين ولثورته هذا الموقع في تاريخ الإسلام وحركته التاريخيّة .

فهو ، أولاً ، صدّيقٌ وشهيد . صدّيق حوّل إيمانه إلى ممارسة حيّة فاعلة ، ولم يبقه محصوراً في دائرة النظرية ، ولم يلتمس لنفسه المبرّرات المريحة ، وقد أدّت به هذه الصدّيقيّة إلى أن يكون شهيداً ؛ فختم حياته بأروع أعمال الصدق ، ختمها بالشهادة في سبيل إيمانه ومن أجل هذا الإيمان .

هذه الحقيقة ، حقيقة الصدّيقيّة والشهادة ، هي التي أهلته لأن يكون هو وثورته من المعالم البارزة لحركة الإسلام في التاريخ .

وهو ، ثانياً ، وصيّ . إنه وصيّ للإمام الحسن أخيه ، الوصيّ للإمام

عليّ أبيه ، الوصيّ لرسول الله (ص) .

وهو وصيّ بارٌّ وتقيّ . عمل بحقيقة كونه وصيّاً على دين الله وعلى الأمَّة ، فتحمل مسؤوليته الصعبة ، وضحَّى في سبيلها بحياته .

وهو ، ثالثاً ، حجَّة الله وابن حجَّته ، وهذه الصفة آتية من كونه وصيّاً بارّاً وتقياً . وبهذه الصفة كان وارثاً لآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد محمد (ص) كان وارثاً لعليّ وللحسن عليهما السلام . إنهم حجج الله على خلقه ، وهو مثلهم في كونه حجَّة لله على الخلق ، وهو استمرار لهم ، وثورته امتدادٌ لثوراتهم ودعواتهم ، فقد بيَّن ، ودعـا إلى الله حتى لم يعد لسلطان عصره حجَّة أو عذر في التجافي عن هدى الله ، وعن التطبيق الأمين لشريعة الله .

وأخيراً يلتفت الزائر إلى أن الحسين لم يكن وحيداً في صدِّيقيته وشهادته . إن أنصاره يشاركونه في منزلة الصدِّيقيَّة والشهادة ، ولذلك فهم أيضاً قدوة تحتذى ، ومنارات يستضاء بها في المسيرة الطويلة إلى الحقّ وإلى العدالة ، فيسلِّم الزائرعليهم إظهاراً لوعيه منزلتهم ودورهم العظيم .

ويختم الزائر هذا المقطع بالسلام عـلى الملائكة الكرام المحدقين بقبر الحسين وقبور الشهداء .

٣ ـ « أشهد أنك قد أقمت الصلاة ، وآتيت الزكاة . وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر . وعبدت الله مخلصاً حتى أتاك اليقين . السلام عليك ورحمة الله وبركاته »[1] .

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٧٩ ، ص : ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

في النهاية يعلن الزائر وعيَه لجوهر حياة الحسين ومحورها . إنه الإسلام الحيّ .

إن العلاقة مع الله ممثلة بالصلاة ، الصلاة الحقيقية « القائمة » دائماً في السلوك اليومي ، وليست الصلاة الشكلية التي تنتهي عند التسليم منها ، ان الصلاة عند المؤمن هي التي تشمل بطابعها حياة المصليّ وتصرُّفاته .

وإنه العلاقة مع الناس ممثلة بالزكاة ، الزكاة التي هي عطاء ، فموقعه من الناس موقع المعطي ، الباذل ، المتجاوز ذاته ومصالحه نحو الآخرين .

وإنه الحركة في المجتمع ممثلة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنها حركة البناء : بناء الإنسان الصالح والحياة النظيفة .

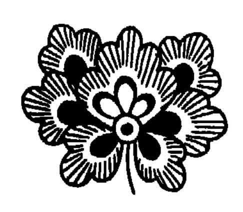
والطابع الثابت لكل مظاهر جوهر حياة الحسين ـ علاقةً مع اللّه ، وعلاقةً مع الناس ، وحركةً في المجتمع ـ الطابع الثابت لكل هذه الممارسات هو الإخلاص المطلق لله ، والفناء المطلق بالله ، والعزوف عن كل شيء عدا رضوان الله .

هذان نموذجان لعشرات النصوص التي يزار بها الحسين عليه السلام ، وآله ، وأصحابه الشهداء في كربلاء ، في جميع الأوقات ، وفي أوقات مخصوصة تقدمت الإشارة إليها .

وقد اتّسع نطاق الزيارة لتشمل جميع أئمة أهل البيت وأنصارهم الذين استشهدوا معهم ، أو شغلوا حيّزاً هامّاً من العمل في سبيل الإسلام على عهدهم بتوجيه منهم .

وفي الكثرة الساحقة من النصوص التي يزار بها الأئمة الآخرون وأصحابهم يرد ذكر الحسين وثورته وأصحابه بالتكريم ، والتفجع لما أصابهم ، والبراءة من أعدائهم .

وقد أدَّت الزيارة وظيفتها التي أريد لها أن تؤدّيها في تكوين الإنسان المسلم الشيعي وكينونته التاريخيَّة ؛ فأبقته على صلة حيَّة نابضة بأئمَّة أهل البيت ، ورؤيتهم ، وحركتهم المعارضة البنّاءة ، وأبقته على صلة بالإسلام المكافح في سبيل رفع الظلم وإقرار العدل بين الناس جميعاً ، لا ، بالإسلام من خلال مؤسساته الرسمية الحاكمة ، فلم يكن لأهل البيت ولا لشيعتهم في عهود حكم الإسلام حظ يذكر في المؤسسات الرسمية لدولة الإسلام .





٦ـ
الزّيارة
في شعر الرّثاء الحسيني

لقد عبَّر شعراء الرثاء الحسينيون في ثنايا قصائدهم التي أنشؤوها في مديح أهل البيت ورثائهم ورثاء الحسين ـ عبّروا عن شعيرة الزيارة منذ النصف الأول من القرن الرابع الهجري وهو التاريخ الذي نملك عليه شاهداً شعرياً ، وإن كنّا نقدّر أن شعر الرثاء اشتمل على هذا المقصد قبل هذا التاريخ ، ولكن ليس قبله بكثير .

وذلك لأن انعكاس همٍّ من هموم الناس في الشعر يعني شيئين : الأول ـ : أن هذا الهمّ الذي عكسه الشعر هو شأن عام يثير إهتمام جماعات كثيرة من الناس متنوعة المذاهب والمشارب ، وأن هذا الشأن العام يثير في الناس عواطفهم ومشاعرهم نحوه بالحبّ ، أو الرهبة ، أو العداء . والثاني ـ : أن التعبير عن هذا الهمّ العامّ وممارسته ليس فيه خطر ، أو ليس فيه خطر كبير على الأقل ؛ وإلا لما عبَّر عنه الشعراء في شعر يسير على ألسن الناس ويتلى في محافلهم .

على ضوء هذا التحليل نقدّر أن الشعر جعل التعبير عن الزيارة من وجوه شتّى من جملة مقاصده عندما غدت الزيارة هاجساً عامّاً لدى الشيعة ، ولم تعد مقصورة على خواصّهم ، وعندما غدت جزءاً من نشاطهم الديني الثابت ذي الصفة الإجتماعية ـ السياسية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى عندما غدت ممارستها تتم بأمان ولا تعرّض سلامة الزائر للخطر .

ونقدّر أن هذين الأمرين ـ شيوع الزيارة ، وحرية ممارستها بأمان ـ قد تحققا في العصر العباسي الثاني ، وبعد سيطرة البويهيين على السلطة

الفعلية في العراق وإيران ، وسيطرة الحمدانيين على السلطة في سوريا .

في هذه الفترة تمَّ استيعاب الوجدان الشعبي بصورة شاملة للزيارة ، وغدا هذا الوجدان يعبّر عن استيعابه لها بمواسم حافلة يجتمع فيها الألوف من الناس ، وغدت كربلاء تشهد دائماً حركة الوافدين الزائرين لقبر الحسين ، فغدت مقصداً من مقاصد الشعر الحسيني عبَّر عنها شعراؤه بأساليب شتَّى ، ونظروا إليها من جوانب مختلفة .

* * *

لعلَّ أبا بكر ، أحمد بن محمد بن الحسن بن مراد الضبّي الحلبي الأنطاكي ، المعروف بالصنوبري ، (توفي سنة : ٣٣٤) من أوائل شعراء الرثاء الذين عكسوا في شعرهم شأن زيارة الحسين عليه السلام . وقد قضى الصنوبري حياته ما بين حلب ودمشق ، ولهذا فإن اشتمال شعره على ذكر الزيارة في عدة قصائد من شعره يكشف بلا ريب عن حقيقة تاريخية هامة في هذا الشأن ، وهي أن وفود الزائرين في هذه الفترة التاريخية كانت تتدفق على كربلاء من المنطقة السورية ، وهي ظاهرة تدل أولاً على أن شعيرة الزيارة غدت ظاهرة شعبية شيعية عامّة تتعدى حدود المنطقة الجغرافية لكربلاء وهي العراق إلى مناطق جغرافية أخرى . وتدل ثانياً : على أن عنصر الأمان قد ازداد بحيث يسمح لأعداد كبيرة من الناس أن تقطع هذه المسافة الطويلة بين سوريا والعراق دون مخاوف كبرى .

قال الصنوبري من قصيدة في رثاء الحسين :

عرّجا بدار الطف ، بالدار التي	ورث الهدى أهلوه عن أهليها
نبكي قبوراً إن بكينـا غيرها	بعض البكاء فإنمـا نعنيها

وقال من قصيدة أخرى :

أنيخا بنا العيس في كربلا ... مناخ البلاد مناخ الكرب
نشمُّ ممسَّك ذاك الثرى ... ونلثم كافور تلك الترب
ونقضي زيارة قبرٍ بها ... فإن زيارته تستحبّ
سآسي لمن فيه كل الأسى ... وأسكب دمعي له ما انسكب

وقال من قصيدة ثالثة :

سرّ راشداً يا أيها السائر ... ما حار من مقصده الحائر
ما حار من زار إمام الهدى ... خير مزور زاره الزائر

ويخيّل إلينا أن هذه القصيدة ربما تكون قد قيلت في وداع ركبٍ من الزائرين متوجّه إلى كربلاء .

* * *

إن أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج النيلي البغدادي (توفي سنة : ٣٩١) يأتي بعد نصف قرن تقريباً من الصنوبري ليعكس لنا في إحدى روائع شعره صورة عن الزيارة تدل على عمق تغلغل شعيرة الزيارة في الوجدان الشعبي وعلى لأنها غدت مؤسسة ذات تقاليد .

وقد تحدث الحسين بن الحجاج في قصيدته عن زيارة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، وهي تصوّر ما كان عليه الحال في حرم الإمام الحسين .

قال الحسين بن الحجاج في قصيدة أنشدها في حرم أمير المؤمنين :

يا صاحب القبّة البيضاء على النجف ... من زار قبرك واستشفى لديك شفي
زوروا أبا الحسن الهادي لعلّكم ... تحظون بالأجر ، والإقبال والزلف
زوروا لمن تسمع النجوى لديه فمن ... يزره بالقبر ملهوفاً لديه كفي

إذا وصلت فأحرم قبل أن تدخله ... ملبياً ، واسع سعياً حوله وطفِ
حتى إذا طفت سبعاً حـول قبّتـه ... تأمّل الباب تلقى وجهه فقفِ
وقل : سلام من الله السلام عـلى ... أهل السلام وأهل العلم والشرف
إني أتيتك يا مولاي من بلدي ... مستمسكاً من حبال الحقّ بالطرف
راجٍ بأنك يا مولاي تشفع لـي ... وتسقني من رحيق شافي اللهف
لأنـك العروة الوثقى فمن علقـت ... بها يداه فلن تشقى ولم يخف

إلى آخر ما قال :

وهو يصوّر بعض العادات الشعبية عند الزيارة ، كما يعبّر عن بعض الأفكار المتداولة في بعض نصوص الزيارات .

* * *

وهذا شاعر معاصر للحسين بن الحجاج ، هو أبو الحسن ، عليّ ابن حماد بن عبيد الله بن حماد العدوي العبدي البصري (توفي في أواخر القرن الرابع ـ ؟) يعبّر في إحدى قصائده الرثائية عن شعيرة الزيارة وعن البركات الإلٰهية التي وُعِدَ بها الزائرون ، قال :

لو درى زائر الحسين بما أوجبه ذو الجلال للزوار
فله عفوه ورضوانه عنهم وحط الذنوب والأوزار
وتناديهم الملائك قد أعطيتم الأمـن من عذاب النار
ويقول الإله جلّ اسمـه الأعلى لمن يهبطون في الأخبار
بشِّروهم بأنهم أوليائي في أماني و ذمّتـي وجـواري
وخُطاهم محسوبـة حسناتٍ وخطاهم عفو من الغفـار
وعليه إخلاف ما أنفقـوه الضِّعف من درهم ومن دينار
فإذا زرته فزره بإخباتٍ ونسكٍ وخشيةٍ ووَقـار

وادع مـن يسمع الدعاء من الزائر في جهـرةٍ وفي إسوار

ويردّ الجـواب إذ هو حيٌّ لم يمت عند ربّه القهـار

ثم طف حـول قبره والتثم تربة قبرٍ معظّم المقـدار

فيه ريحانـة النـبيّ حسين ذلـك الطهر خامس الأطهار

إلى آخر ما قال . وقال من قصيدة أخرى :

مصارع أولاد النـبيّ بكربلا   يزلزل أطـواد الحجا ويزيـل

فأي أمـرئٍ يرنو قبورهـم بها   وأحشاؤه ُبالدمع ليس تسيلُ

قبـور عليها النـور يزهـو وعندها   صعود لأمـلاك السما ونزول

قبور بها يستدفع الضرّ والأذى   ويعطي بها رب العلى وينيل

أتيت إليهـا زائـراً يستشفـي   هـوىً وولاء ظاهر ودخيـل

ولما رأيت الحير حـارت مدامعي   وكان لها من قبل ذاك همول

ومثل لي يـوم الحسين ووعظـه   لأعدائه بالطفّ وهـو يقول...

إلى آخر ما قال .

* * *

والشريف الرضي ، أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الموسوي (٣٥٩ ـ ٤٠٦) عبَّر في إحدى روائعه عن شعيرة الزيارة ، متشوّقاً إلى زيارة أمير المؤمنين ، والإمام الحسين ، منوهاً بأنه يشبع غليل الشوق في قلبه بزيارة قبري الإمامين الكاظميين (الإمام موسى بن جعفر الكاظم والإمام محمد الجواد) في بغـداد . وهذا يدلّ على أن الزيارة في هذا العصر غدت عادة شعبيـة شاملة لقبور أئمة أهل البيت في العراق .

قال من قصيدة :

صلاة الله تخفق كل يومٍ   على تلك المعالم والقبـاب

وإني لا أزال أكـر عـزمي   وإن قلّـت مساعدة الصحاب

وأخذت الرياح إلى نسيم — تطلع من تراب أبي تراب
بودي أن تطاوعني الليالي — وينشب في المنى ظفري ونابي
فأرمي العيس نحوكم سهاماً — تغلغل بين أحشاء الروابي
ترامى باللغام على طلاها — كما انحدر الغثاء عن العقاب[1]
وأجنب بينها خرق المذاكي — فاملي باللغاب على اللغاب
لعلي أن أبل بكم غليلاً — تغلغل بين قلبي والحجاب
فما لقياكم إلا دليل — على كنز الغنيمة والثواب
ولي قبران بالزوراء أشفي — بقربهما نزاعي واكتئابي
أقود إليهما نفسي وأهدي — سلاماً لا يحيدُ عن الجواب
لقاؤهما يطهّر من جناني — ويدرأ عن ردائي كل عاب

* * *

وأبو الحسن ، مهيار بن مرزويه الديلمي ، الشاعر المشهور ، (توفي سنة : ٤٢٨) أحد من عبّروا في هذه الفترة عن شعيرة الزيارة في قصيدة رثاء للإمام أمير المؤمنين عليّ والإمام الحسين ، وذلك في شهر محرم سنة إثنتين وتسعين وثلاثمائة (٣٩٢ هـ) ،ويعرض في حديثه عن الزيارة إلى عادة التبرُّك بتراب قبر الحسين عليه السلام ، ويبدو من النصّ أن الزوّار كانوا يعودون بشيء من تراب كربلاء يذرونه على من يطلب ذلك من أهلهم وأصدقائهم تبرُّكاً واستشفاءاً ، وهذه عادة غير موجودة في هذا العصر ، وهي نقطة ينبغي أن تبحث من الناحية التاريخيّة .

---

(١) اللغام : لعاب الإبل ، والطلى : العنق ، والغثاء : البالي من ورق الشجر المخالط زبد السيل ، والعقاب جمع عقبة : مرعى صعب من الجبال .

قال مهيار الديلمي :

أيا عاطشاً في مصرعٍ لو شهدته سقيتك فيه من دموعي الذوارف

سقى غلّتي بحر بعبرك إنني على غير إلمامٍ به غير آسف

وأهدى إليه الزائرون تحيتي لأشرف إن عيني له لم تشارف

وعادوا فذرُّوا بين جنبيَّ تربة شفائي مما استحقبوا في المخاوف

* * *

والشريف المرتضىٰ ، علم الهدى ، أبو القاسم عليّ بن الحسين بن موسى الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) أحد الأعلام الذين عكس شعرهم شعيرة الزيارة .

قال الشريف المرتضى في يوم عاشوراء سنة ٤٣٠ هـ :

فسقىٰ الله قبوراً لهم العذب الفضيضا

وأبت إلاّ ثرىٰ الأخضر والروض الاريضا

وإليهنَّ يشدّ القوم هاتيك الفروضا

ما نحوهنَّ لندبٍ إنما قضُّوا فروضا

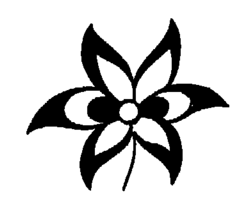
وحيّوهنَّ استلاماً يترك الأفواه فوضىٰ

* * *

وهكذا مضى شعراء الرثاء الحسيني يعكسون في شعرهم شعيرة الزيارة إلى قبر الحسين ، وإلى سائر قبور أهل البيت ، معبرين عن علاقة الإنسان الشيعي العقيدية والعاطفيَّة بالحسين الشهيد . هذه العلاقة التي تعتبر الزيارة إحدى أبرز وسائل التعبير عنها .

وقد كثر الشعر الذي يتناول موضوع الزيارة في العصور الأخيرة ،

بحيث أن بعض الشعراء جعلها مقصداً وحيداً لبعض القصائد ، وهو يعكس نموّ هذه الشعيرة في الوجدان الشعبي كمظهر من مظاهر ثورة الحسين في الوجدان الشعبي .



٧- مُلحق

١- زيارة العبّاس بن علي بن أبي طالب
٢- زيارة عليّ (الأكبر) بن الحسين بن علي بن أبي طالب
٣- زيارة شهداء كربلاء



١- زيارة العبّاس بن عليّ بن أبي طالب

- ١ -

ولد العباس سنة ست وعشرين للهجرة .

أمّه : فاطمة بنت حزام بن خالد بن ربيعة ـ أخي الشاعر لبيد ـ بن عامر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة الكلابية ، واشتهرت بكنيتها : « أم البنين » .

تزوَّج بها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بإشارة من أخيه عقيل بن أبي طالب الذي كان عالماً بأنساب العرب ، فقد قال له : « انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوّجها فتلد لي غلاماً فارساً » فأشار عليه بها .

وقد تزوجها بعد وفاة السيدة فاطمة الزهراء . أو بعد زواجه من أمامة بنت زينب بنت رسول الله (ص) .

وقد ولدت لأمير المؤمنين أربعة أولاد هم ؛ : العباس (وهو أكبرهم) وعبد الله ، وجعفر ، وعثمان . فهؤلاء هم بنوها ، وبهم تكنّى ، فيقال : « أم البنين » .

وقد استشهدوا جميعاً بين يدي أخيهم الإمام الحسين في كربلاء .

وقد عاش العباس مع أبيه الإمام عليّ أربعة عشر عاماً . وكان عمره يوم استشهد حوالي أربعة وثلاثين عاماً .

تزوّج من لبابة بنت عبيد الله بن العباس بن عبد المطّلب ، وولد له منها ولدان ، هما : عبيد الله بن العباس بن عليّ ، والفضل بن العباس بن عليّ ، وبه يكنّى فيقال له : « أبو الفضل العباس » .

كان أيّداً ، فارساً ، طويل القامة « يركب الفرس المطهّم ورجلاه

تخطّان في الأرض » ، شجاعاً ، وسيماً يلقّب بـ « قمر بني هاشم » لجماله ، كما لُقِّب في كربلاء وبعد استشهاده بـ « السقّاء » و « أبي قربة » لأنه خاطر بنفسه في سبيل تزويد معسكر الحسين بالماء بعد أن ضرب عليه الجيش الأموي حصار العطش ، فأغار على الفرات أكثر من مرة جلب فيها الماء واستشهد في إحدى محاولاته هذه في اليوم العاشر من المحرم بعد أن قطعت يداه أثناء القتال وهو ممسك بقربة ملأها بالماء ليروي بها الأطفال العِطاش .

كان حامل راية الحسين في كربلاء ، وكان موقعه في القلب عندما عبَّأ الحسين أصحابه صبيحة اليوم العاشر من المحرَّم . واستشهد بعد إخوته الذين طلب منهم أن يتقدَّموه في القتال .

- ٢ -

كان العباس ذا منزلة علمية . وقد ورد في شأنه عن أمير المؤمنين عليّ : « إن ولدي العباس قد زقَّ العلم زقّاً » .

وورد في شأنه عن الإمام الصادق : « كان عمّنا العباس نافذ البصيرة ، صلب الإيمان ، له منزلة عند الله يغبطه بها جميع الشهداء » .

ويبدو من الرجز المنسوب إليه ، وكان ينشده في المعركة التي استشهد فيها على ضفاف الفرات ، يبدو من هذا الرجز انه كان في أعلى مستوى من الوعي الإيماني ، فعلى الرغم من أنه يخوض معركة يقودها أخوه ضدّ أسرة معادية لأسرته ، لم يظهر في رجزه ظلّ لعاطفته الشخصية ، وإنما عبّر فيه عن قيمة دينية يجسِّده الحسين أخوه بكونه إماماً . قال :

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمامٍ صادق اليقين نجل النبيّ الطاهر الأمين

ويتميَّز العباس عن جميع الشهداء من الهاشميّين وغيرهم بقبر

مستقل شيّد عليه مشهد عظيم .

- ٣ -

ورد ذكر العباس في جميع شعر الرثاء الـذي قيل في كربلاء باعتباره أحد أبرز الشهداء مقاماً بعد الحسين أو أبرزهم على الإطلاق ، وأنشأ فيه شعراء الشيعة المتأخرون مراثي خاصة .

وله في المأتم الحسيني مركز خاصّ ، فيذكر بتكريم خاص ، ويحظى بشرح كامل لسيرة حياته وشهادته ، وتخصّص له مآتم خاصة في عاشوراء ، فقد اعتاد خطباء المنبر الحسيني في العراق أن يتحدّثوا عنه في ليلة اليوم السابع من شهر محرم .

ويتمتع العباس بحضور قوي جداً في الوجدان الشعبي عند الشيعة العراقيين والإيرانيين ، ينعكس بشكل واضح في الإقبال الشديد والكثيف عـلى زيارة قبره .

يتبوّأ العباس مركزاً خاصاً في الزيارة ، فإن ذكره يرد مقروناً بالسلام عليه وتمجيد موقفه في كل زيارة من زيارات الإمام الحسين تقريبـاً كما وردت عـن أئمة أهل البيت زيارات خاصة به نذكر فيما يلي نموذجاً منها ما رواه أبوحمزة الثمالي عن الإمام الصادق عليه السلام قال : قال الصادق عليه السلام : « إذا أُردت زيارة قبر العباس بن عليّ عليهما السلام ، وهو على شط الفرات بحذاء الحائر فقف على باب السقيفة وقل :

١ ـ « سلام الله ، وسلام ملائكته المقرّبين ، وأنبيائه المرسلين ، وعباده الصالحين ، وجميع الشهداء والصدّيقين ، والزاكيات الطيبات فيما تغتدي وتروح ، عليك يا ابن أمير المؤمنين .

« أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبيّ المرسل ، والسبط المنتجب ، والدليل العالم ، والوصيّ المبلِّغ والمظلوم المهتضَم .

« فجزاكَ الله عن رسوله ، وعن أمير المؤمنين ، وعن الحسن والحسين صلوات الله عليهم أفضل الجزاء بما صبرت واحتسبت وأعنت ، فنعم عقبى الدار .

« لعن الله من قتلك . ولعن الله من جهل حقَّك واستخفَّ بحرمتك . ولعن الله من حال بينك وبين ماء الفرات » .

من خلال السلام بهذه الصيغة ، تُظهِر الزيارة الفئة التي ينتمي إليها العباس ، فهو ينتمي إلى فئة الملائكة والأنبياء والشهداء والصدِّيقين .

وتأتي الشهادة التالية لمقطع السلام لتبيّن المبرّرات لانتماء العباس إلى هذه الفئات من عباد الله الصالحين : فهو مسلم ، مصدِّق ، وفيٌّ ، ناصح للإمام الحسين ، أي أنه وفيّ بالتزامه الإيماني النابع من كونه مسلماً مخلصاً ، لأن الحسين هنا ليس أخاً ، إنه قائد الإسلام .

وينتهي هذا المقطع من الزيارة بالدعاء للعباس بأن يحسن الله جزاءه على موقفه العظيم . ثم البراءة باللعن ، من أعدائه ، أعداء الشرعية ، ويبرز في هذا المقطع دور العباس المميّز في كربلاء الذي لازم ذكراه في الوجدان الشعبي وهو كونه أبرز المعنيين بتزويد معسكر الحسين الظامئ بالماء .

٢ ـ « أشهد أنك قتلت مظلوماً وأن الله منجز لكم ما وعدكم . جئتك يا ابن أمير المؤمنين وافداً إليكم ، وقلبي مسلم لكم ، وأنا لكم تابع ،

ونصرتي لكم معدَّة حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ؛ فمعكم معكم ، لا مع عدوّكم . إني بكم وبإيابكم من المؤمنين ، وبمن خالفكم وقتلكم من الكافرين . قتل الله أمّة قتلتكم بالأيدي والألسن » .

في هذا المقطع يشهد الزائر بعدالة القضية التي من أجلها استشهد العباس لأنه قتل مظلوماً ولذا فإن قاتليه ظالمون . ولكن الزائر غير يائس بسبب النتيجة التي انتهى إليها نضال العباس ، إنه واثق بـنـصـر الله وبقيام دولة الحق والعدل . ويعلن الزائر إلتزامه بنفس الخط النضالي الذي سار عليه العباس وعليه مات ، كما يعلن براءته من الخط المقابل ، خط الظالمين الذي سار عليه الأمويون .

٣ ـ « السلام عليك أيها العبد الصالح المطيع لله ولرسوله ولأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام . السلام عليك ورحمة الله وبركاته ورضوانه وعلى روحك وبدنك .

« أشهد وأُشهد الله إنك مضيت على ما مضى عليه البدريون المجاهدون في سبيل الله الناصحون له في جهاد أعدائه ، المبالغون في نصرة أوليائه ، الذابّون عن أحبّائه ، فجزاك الله أفضل الجزاء وأكثر الجزاء وأوفر الجزاء وأوفى جزاء أحد ممن وفى ببيعته ، واستجاب له دعوته ، وأطاع ولاة أمره .

« وأشهد أنك قد بالغت في النصيحة ، وأعطيت غاية المجهود ، فبعثك الله في الشهداء ، وجعل

روحك مع أرواح الشهداء ، وأعطاك من جنانه أفسحها منزلاً ، وأفضلها غرفاً ، ورفع ذكرك في علّيين ، وحشرك مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .
« أشهد أنك لم تهن ولم تنكل ، وأنك مضيت على بصيرة من أمرك مقتدياً بالصالحين ، ومتّبعاً للنبيين ، فجمع الله بيننا وبينك وبين رسوله وأوليائه في منازل المخبتين ، فإنه أرحم الراحمين » .

* * *

في هذا المقطع يستهلّ الزائر خطابه بالسلام والدعاء الذي يظهر فيه عنصر الطاعة الإيمانية التي تنبع من إدراك الواجب الشرعي والإلتزام به .

ويتلو السلام والدعاء الشهادة من الزائر بأن هذه الطاعة لم تكن شكلية ، وإنما عبّرت عن نفسها بالإلتزام العملي . وهنا تظهر فئة أكثر تحديداً ينتمي إليها العباس ، وهي ذات أثر حاسم في مسيرة الإسلام وهي « البدريون » ، وهؤلاء يحتلون أسمى مرتبة في قوافل الشهداء الكرام الذين رزقوا الشهادة بين يديّ رسول الله (ص) .

ثم الشهادة بأن العباس في جهاده قد تجاوز المستويات المفروضة عليه بحكم كونه مسلماً مطيعاً إلى مستوى أعلى من ذلك هو كونه قد « بالغ في النصيحة وأعطى غاية المجهود » .

ثم الشهادة له بأنه مارس دوره العظيم في كربلاء ، مصمماً على المضيّ فيه إلى النهاية ، عن وعي مبدئي ، فإيمانه إيمان واعٍ وليس إيماناً أعمى لأنه ليس في الإسلام إيمان أعمى : « ..إنك مضيت على بصيرة

من أمرك » ولذا فإنه في موقفه الأخلاقي العالي الذي حقَّق به أعلى مستويات الأخلاقية الإسلامية في تجاوز الذات[1] إنه في هذا الموقف « لم يهن ولم ينكل » وهذا الثبات في المواقف هو نتيجة الوعي « البصيرة »[2].

٤ ـ « روى أبو حمزة الثمالي عن الإمام الصادق أنه قال : إذا ودَّعت العباس فأته ، وقل :

« أستودعك الله وأسترعيك ، وأقرأ عليك السلام . آمنَّا بالله وبرسوله وبكتابه وبما جاء به من عند الله . أللهمَّ فاكتبنا مع الشاهدين . أللهم لا تجعله آخر العهد من زيارة قبر ابن أخي نبيِّك ، وارزقني زيارته أبداً ما أبقيتني ، واحشرني معه ومع آبائه في الجنان . أللهمَّ وعرِّف بيني وبينه وبين رسولك وأوليائك . أللهم صلِّ على محمد وآل محمد ، وتوفَّني على الإيمان بك ، والتصديق برسولك ، والولاية لعليّ بن أبي طالب والأئمة من ولده ، والبراءة من عدوّهم ، فإني قد رضيت بذلك يا ربّ »[3] .

صيغة الوداع هذه تكشف عن عمق الصلة العاطفية والمبدئية بين الزائر وبين العباس ، فهو مرتبط بالعباس برباط الحب الناشئ عن كونهما ملتزمين مبدأً واحداً يمثل العباس فيه دور النموذج المحتذى .

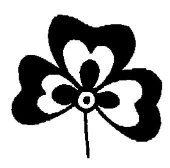
---

(١) لاحظ كتابنا «بين الجاهلية والإسلام» طبعة دار الكتاب اللبناني ـ ١٩٧٥م ، فصل (الأخـلاق).

(٢) لاحظ كتابنا « أنصار الحسين » دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٧٥ ـ فصل (النخبة) ص ١٦٥ ـ ١٧٠ ففيه بحث عن (أهل البصائر) .

(٣) كامل الزيارة ، باب : ٨٥و٨٦ ، ص : ٢٥٦ ـ ٢٥٨ .

ثم يعلن الزائر إيمانه ، ويوجّه دعاءه إلى الله تعالى بأن يجعله على صلة دائمة بالعباس في الدنيا والآخرة . ويدعو الله بأن يثبّته على الإيمان ويتوفّاه على الإسلام والولاية لأئمة أهل البيت .



٢- زيارة عليّ (الأكبر) بن الحسين بن علي بن أبي طالب

- ١ -

ولد في اليوم الحادي عشر من شهر شعبان سنة ثلاث وثلاثين للهجرة . فيكون عمره يوم استشهد في اليوم العاشر من المحرم سنة إحدى وستين سبعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر .

أمّه ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي . وعروة بن مسعود هو عظيم القريتين : مكة والطائف . وجدته لأمّه ميمونة بنت أبي سفيان أخت معاوية وعمّة يزيد .

يكنّى (أبا الحسن) . وقد وردت رواية عن الإمام الرضا بأنه تزوَّج من أم ولد . وهي رواية نشكّ في صحّتها . وورد في زيارته تعبير يدل على أن له عقباً ، وهو « صلى الله عليك ، وعلى عترتك ، وأهل بيتك وآبائك وأبنائك » ؛ وربما كانت كلمة أبنائك) من زيادة الناسخ أو تصحيفاً لـ(آبائك) . والكنية ليست دليلاً على أنه قد تزوج وله عقب ، فلعلها من جهة المناسبة للإسم (علي ـ أبو الحسن) وقد جرت العادة على أن يكنى الطفل حين يولد في جملة مستحبات أخرى ذكرها الفقهاء ، تبعاً لما ورد من روايات عن أئمة أهل البيت في هذا الشأن . وعلى أي حال فكون علي بن الحسين (الأكبر) قد تزوج موضع شك عندنا .

وكان عليّ يلقَّب بالأكبر تمييزاً له عن أخيه الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين .

وكان يشبه رسول الله (ص) في الخلق والخلق والمنطق ، وكان صبيح الوجه جميلاً .

وعليّ الأكبر هو أول الشهداء من الهاشميين بعد أن استشهد جميع

أنصار الحسين من غير بني هاشم . فحين لم يبق مع الإمام الحسين إلا أهل بيته أقبل بعضهم يودّع بعضاً ، وتقدم عليّ الأكبر يستأذن أباه الإمام الحسين في القتال ، فاطرق الحسين باكياً ، ثم رفع رأسه مبتهلاً إلى الله قائلاً :

« أللهمّ اشهد على هؤلاء القوم ، فإنه قد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك . وكنا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إليه ».

وحين برز ليقاتل عَرِض عليه الأمان رعاية لرحمه من يزيد بن معاوية من جهة جدته لأمه ميمونة بنت أبي سفيان ، ولكنه رفض الأمان المعروض عليه قائلاً : « إن قرابة رسول الله (ص) أحقّ أن ترعى » .

وقد باشر القتال وهو يعاني من عطش شديد ، وعاد إلى معسكر أبيه الإمام الحسين ـ بعد أن قاتل قتالاً شديداً وقتل عدداً كبيراً ـ وقد غدا عطشه عذاباً لا يطاق . ولما ذكر لأبيه عطشه بكى وقال : « واغوثاه . ما أسرع الملتقى بجدك فيسقيك بكأسه شربة لا تظمأ بعدها .. وأخذ لسانه فمصّه ، ودفع إليه خاتمه ليضعه في فيه . .

وعاد عليّ الأكبر إلى القتال فاستشهد .

ـ ٢ ـ

كان عليّ الأكبر يتمتّع بأعلى مستويات الوعي الإيماني ، وثمة نصّ واضح الدلالة على هذه الحقيقة . قد جرى حوار بين الإمام الحسين وبين ابنه عليّ الأكبر وذلك بعد أن علم الحسين وصحبه بما جرى على مسلم بن عقيل في الكوفة ، واتّضح للجميع المصير الذي ستنتهي إليه الثورة ، فبينما الحسين يسير بصحبه :

« سُمِع الحسين يقول : إنّا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله ربّ العالمين ، فسأله عليّ الأكبر عن استرجاعه ، فقال : إني خفقت برأسي

فعنّ لي فارس وهو يقول : القوم يسيرون
والمنايا تسري إليهم ، فعلمت أنها أنفسنا نعيت
إلينا . فقال : علي الأكبر : لا أراك الله سوءاً
ألسنا على الحقّ ؟ قال : بلى ، والذي إليه
مرجع العباد . فقال عليّ : يا أبت إذن لا نبالي
أن نموت محقّين . فقال الحسين : جزاك الله
من ولد خير ما جزى ولداً عن والده » .

ـ ٣ ـ

ورد ذكر عليّ الأكبر في جميع شعر الرثاء الذي قيل في الحسين . وقد نظم فيه شعراء الشيعة المتأخرون مراثي خاصة ، مستعرضين في قصائدهم صفاته ، واستئذانه أباه في القتال ، وعطشه ، ولهفة أمه ليلى وإشفاقها وفجيعتها به حين استشهد .

يتمتع عليّ الأكبر بمركز بارز في المأتم الحسيني ، وتخصّص له ليلة من ليالي العاشوراء ، يذكر فيها خطباء المنبر قصة شهادته .

ويتبوّأ مركزاً مميّزاً في الزيارة ، ففي جميع زيارات الحسين يذكر ابنه عليّ الأكبر بالخصوص ، وترد في زيارته عبارات السلام والتكريم ، والمدح لجهاده ، وفجيعة المسلمين به . وجميع ما ورد في زيارته ورد في ضمن زيارة الإمام الحسين ، ولم ترد له ــ فيما نعلم ــ زيارة مستقلّة كما هو الشأن بالنسبة إلى عمّه العباس ، ولعلّ ذلك ناشئ من كون قبره مجاوراً لقبر أبيه الإمام الحسين بخلاف العباس الذي يبعد قبره عن قبر أخيه .

ومن زيارات عليّ الأكبر التي وردت ضمن زيارة أبيه الإمام الحسين ما رواه أبو حمزة الثمالي عن الإمام الصادق قال ، بعد أن علّمه كيف يزور الإمام الحسين :

أ ـ « ثم مر إلى قبر عليّ بن الحسين ، فهو عند

رجل الحسين ، وقل :

« السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته ، وابن خليفة رسول الله ، وابن بنت رسول الله ورحمة الله وبركاته . مضاعفةً كلما طلعت شمس أو غربت . السلام عليك وعلى روحك وبدنك » .

« بأبي أنت وأمّي من مذبوح ومقتول من غير جرم . بأبي أنت وأمي دمك المرتقى به إلى حبيب الله . بأبي أنت وأمي من مقدّم بين يدي أبيك يحتسبك ويبكي عليك . محترقاً عليك قلبه ، يرفع دمك بكفّه إلى عنان السماء لا يرجع منه قطرة ، ولا تسكن عليك من أبيك زفرة ، ودَّعك للفراق . فمكانكما عند الله مع آبائك الماضين ، ومع أمهاتك في الجنان منعمين . أبرأ إلى الله ممن قتلك وذبحك » .

يبدأ هذا المقطع من الزيارة بسلام تظهر فيه العلاقات النسبية لعليّ الأكبر وهذه العلاقات النسبية يظهر فيها رسول الله ، فعليّ الأكبر ابن رسول الله ، وابن خليفة رسول الله ، وقد عبّر عن الحسين بهذا الوصف ، ولم يعبّر عنه باسمه ، كما عبَّر عن السيدة الزهراء بأنها ابنة رسول الله ، وذلك لإظهار ما يتمتَّع به عليّ الأكبر من قداسة حيث ان علاقاته النسبية تلتقي كلها عند صفة « رسول الله » .

ثم تعرض الزيارة صُوَراً من كربلاء في هُتافٍ عاطفيّ صادر من القلب : « بأبي أنت وأمّي » : مشهد عليّ الأكبر وهو يتقدم من أبيه طالباً الإذن بالقتال . مشهد الحسين منحنياً على جسد ولده الصريع يأخذ

من دمه بكفّه ويرمي به إلى السماء . ثم يبرأ الزائر ممن ارتكبوا جريمة القتل .

٢ ـ « سلام الله وسلام ملائكته المقرّبين ، وأنبيائه المرسلين ، وعباده الصالحين ، عليك يا مولاي وابن مولاي ورحمة الله وبركاته . صلى الله عليك وعلى عترتك وأهل بيتك وآبائك وأبنائك وأمهاتك الأخيار الأبرار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً . »

« السلام عليك يا ابن رسول الله ، وابن أمير المؤمنين ، وابن الحسين بن عليّ ، ورحمة الله وبركاته . لعن الله قاتلك ، ولعن الله من استخفّ بحقّكم وقتلكم . لعن الله من بقي منهم ومن مضى . نفسي فداؤكم . صلى الله وملائكته عليكم وسلّم تسليماً كثيراً » .

في هذا المقطع يكرّر الزائر السلام على عليّ الأكبر بصيغة أخرى . السلام من الله ومن نخبة الجنس البشري : الأنبياء وأبنائهم المخلصين ، ويظهر من خلال هذا السلام الفئة الخيّرة التي ينتمي إليها عليّ الأكبر ، كما تظهر صيغة السلام الأخرى العلاقات النسبية لعليّ الأكبر من زاوية أخرى تختلف عن صيغة السلام في المقطع الأول . ويختم الزائر هذا المقطع بالبراءة من أعداء أهل البيت .

قال الإمام الصادق لأبي حمزة الثمالي : ثم ضع خدّك على القبر وقل :

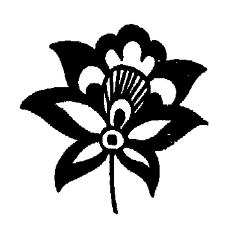
٣ ـ « صلى الله عليك يا أبا الحسن (ثلاثاً) بأبي أنت وأمّي ، أتيتك زائراً ، وافداً ، عائذاً مما جنيت على نفسي ، واحتطبت على ظهري .

أسأل الله وليّك ووليّ أن يجعل حظّي من
زيارتك عتق رقبتي من النار »[1].

ربما كان إرشاد الإمام الصادق إلى وضع الخدّ على القبر إيماء إلى ما فعله الإمام الحسين حين وقف على مصرع ولده عليّ ، فقد وضع خدّه على خدّه قائلاً :

« على الدنيا بعدك العفا .. ما أجرأهم على الرحمٰن
وعلى انتهاك حرمة الرسول »[2].

فتكون حركة وضع الخدّ على القبر تعبيراً عن عاطفة الحبّ والحزن والولاء . ويختم الزائر زيارته داعياً الله أن يغفر له ذنبه ، وأن يعتقه من النار .



---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٧٩ ، ص : ١٣٩ ـ ١٤٠ .
(٢) الطبري : ٥ /

٣ - زيارة شهداء كربلاء

- ١ -

يتمتع شهداء ثورة الحسين في كربلاء بحضور قويّ جداً في الوجدان الشعبي . وتنطوي لهم القلوب على عواطف الحب والإعجاب والتقديس النابعة من مواقفهم وتضحيتهم في كربلاء .

وقد أصدرنا عنهم كتاباً بعنوان (أنصار الحسين ـ دراسة عن شهداء ثورة الحسين : الرجال والدلالات) وقد طبعته ونشرته دار الفكر في بيروت سنة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

ومجال الحديث عن هؤلاء الرجال الأبرار رضوان الله عليهم واسع عريض ، وحياتهم التي توَّجوها بجهادهم وتضحيتهم حافلة بالعِبَر والعظات لكل جيل يطمح إلى أن ينال شرف الريادة في التغيير الإجتماعي السليم .

وليس من أهداف هذا «الملحق» أن يشتمل على أبحاث عن عددهم وترجمة حياة كل منهم وتفصيل مساهمة كل منهم في كربلاء ، فهذه أبحاث خصَّصنا لها كتابنا (أنصار الحسين) المشار إليه ، إنما نهدف هنا إلى إظهار كينونتهم وحضورهم في الوجدان الشعبي كما تنعكس في الزيارات التي يخاطبون فيها من قبل زائريهم كما وردت عن أئمة أهل لبيت ، مع الإشارة إلى كينونتهم في الوجدان الشعبي كما تنعكس في الشعر والمآتم .

* * *

لقد عبَّر شهداء ثورة الحسين عن مستوى وعيهم الإيماني العالي بإصرارهم على المضيّ في الثورة إلى النهاية التي علموا بأنها ستكون الشهادة . وقد رفضوا الإنتفاع بإذن الحسين لهم بأن يتفرَّقوا وينجو كل واحد منهم بنفسه ، وذلك حين جمعهم في مساء اليوم التاسع من المحرم (ليلة العاشر) وكان مما قال لهم :

« .. ألا وإني أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، وإني قد أذنت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم من ذمام ، وهذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً ، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً خيراً ، وتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يطلبوني ، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري ».

فقال مسلم بن عوسجة :

« أنحن نخلّي عنك !!؟ وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقّك ؟ أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك » .

وقال سعيد بن عبد الله الحنفي :

« والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله فيك . أما والله لو علمت أني أقتل ، ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذرّى ، يفعل بي ذلك سبعين مرة لما فارقتك حتى

ألقى حمامي دونك . وكيف لا أفعل ذلك
وإنما هي قتلة واحدة ، ثم هي الكرامة التي
لا انقضاء لها أبداً » .

وقال زهير بن القين :

« والله وددت أني قتلت ثم نشرت ، ثم قتلت ،
حتى أقتل كذا ألف مرّة ، وأن الله عزَّ وجلّ
يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء
الفتيان من أهل بيتك » .

« وتكلّم باقي الأصحاب بما يشبه بعضه بعضاً .. »[١].

* * *

كما رفضوا أن يتقدم أحد من أهل البت إلى القتال قبلهم ، فتقدموا إلى مواجهة الجيش الأموي حتى استشهدوا جميعاً .

وقد أبّنهم الحسين بكلمات قد حفظ الرواة بعضها تعبّر عن التكريم والحبّ ، منها ما قاله لمسلم بن عوسجة حين صرع : « رحمك الله يا مسلم بن عوسجة منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً »[٢]. وقال للحرّ عندما صرع : « أنت الحرّ كما سمتك أمّك ، وأنت الحرّ في الدنيا والآخرة »[٣]. وقال لزهير بن القين حين صرع : « لا يبعدنك الله يا زهير . ولعن قاتليك لعن الذين مسخوا قردة وخنازير »[٤].

---

(١) الطبري : ٥/٤١٩ وما بعدها ، واليعقوبي : ٢/٢٣١ ، والخوارزمي : ١/٢٤٧ .

(٢) الطبري : ٥/٤٣٥ ـ والآية في سورة الأحزاب : ٢٣ والإرشاد للشيخ المفيد ـ ص : ٢٣٧ .

(٣)

(٤)

وكان الحسين قد قال فيهم : « .. إني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي »[1] .

* * *

ولم يخل الشعر الرثائي من الإشارة إلى أنصار الحسين والإشادة بهم وتمجيد موقفهم وتضحيتهم . ولا تذكر في شعر الرثاء أسماء للشهداء إلا قليلاً وذلك بذكر بعض البارزين منهم كالحرّ بن يزيد الرياحي ، ومسلم بن عوسجة ، وزهير بن القين ومن إليهم . ولم نعثر على شعر قيل في رثائهم بالخصوص .

كذلك الشأن في المأتم ، فإن المأتم الحسيني لا يخلو من ذكرهم حين تقضي مناسبة الموضوع بذكرهم . وربما ذكر بعض البارزين منهم بأسمائهم حين يقضي الموضوع برواية حادث كان أحدهم طرفاً فيه .

ولكننا نرى أن شهداء كربلاء لم ينالوا ما يستحقون من تكريم في شعر الرثاء وفي المآتم . فشعر الرثاء والمآتم لا يهتمان بهم إلا اهتماماً عرضياً ، ولم يحدث أن جعلوا مقصداً مستقلاً بنفسه في شعر الرثاء وفي المآتم ، كما لاحظنا في كتابنا (أنصار الحسين) إنهم لم ينالوا ما يستحقون من الرواة والباحثين والمؤلّفين . وقلنا هناك :

« ربما يكون الوهج الساطع الذي يشعّ من
شخصية الإمام الحسين والظلّ الكبير الذي
تتركه هذه الشخصية العظيمة في نفس الباحث
مسؤولين إلى حدٍّ ما عن إهمال المؤرّخين

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف : ١٩٦٢م = ١٣٨١هـ / ص : ٢٣١ .

والإخباريين لتزويدنا بالمادة الأساسية لهـذه الدراسة على نحو أفضل »[1].

ونقول هنا انه ربما يكون الوهج الساطع الذي يشعّ من شخصية الإمام الحسين ، والظل الكبير الذي تتركه هذه الشخصية العظيمة في نفس الشاعر وخطيب المأتم الحسيني مسؤولين عن التقصير الحاصل بالنسبة إلى هؤلاء الشهداء رضوان الله عليهم في شعر الرثاء الحسيني وفي المأتم الحسيني ، ونرى أن شعراء الرثاء سيجدون ينبوعاً ثرياً من الصـور والعواطف والمشاعر ، والصراعات الغنية بالمعاني الإنسانية في سِيَر هؤلاء الشهداء ، وكذلك خطباء المأتم سيجدون في سِيَرهم مادة عظيمة القيمة في التربية والتوجيه تجعل المأتم الحسيني أكثر غنىً وأكثر جاذبية .

ويبدو أنه حدث في نهاية الدور الثاني للمأتم الحسيني إتجاه لجعل الأنصار مقصداً مستقلاً من مقاصد المأتم الحسيني . نجد تباشير هذا الإتجاه عند الشيخ فخر الدين فـي كتابـه « المنتخب » في عدة مجالس من الكتاب المذكور[2] ، ولكن يبدوأنه إتجاه لم يكتب له البقاء .

إننا نوجّه الأنظار إلى هذه المسألة لتحظى بالعناية التي تستحقّها من جميع من يهمّهم إغناء الشعر الحسيني والمأتم الحسيني ، وتطويرهما نحو الأفضل والأنفع في الشكل وفي المحتوى ، وسنعود إلى معالجة هذه المسألة في فصل ا(المأتم الحسيني) .

---

(١) أنصار الحسين : ص ١١ .

(٢) الطريحي . المنتخب ، ص ٣٦ و٧٦ و١٠٠ و٤١٥ .

وإذا كان شهداء كربلاء رضوان الله عليهم قد حرموا حقهم في التكريم والتعظيم في شعر الرثاء الحسيني وفي المأتم الحسيني ، وإذا كان الإنسان الشيعي قد حرم من الإنتفاع الكامل بِسِيَرهم في هذين المجالَين ، فإن الأمر يختلف في الزيارة ، حيث أنهم لا تكاد تخلو زيارة من زيارات الحسين العامة والخاصة من زيارة لهم حافلة بعبارات التكريم والحب ، مبرزة لأدوارهم في خدمة الإسلام بجهادهم وتضحيتهم . وهذه واحدة من الزيارات التي وردت فيهم :

١ ـ « السلام عليكم أيها الربّانيون . أنتم لنا فرط وسلف ، ونحن لكم أتباع وأنصار . أشهد أنكم أنصار الله ، كما قال الله تبارك وتعالى في كتابه (**وكأين من نبيّ قاتل معه ربّيّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا**) فما وهنتم ، وما ضعفتم ، وما استكنتم حتى لقيتم الله على سبيل الحق ونصرة كلمة الله التامّة . صلى الله على أرواحكم وأبدانكم وسلّم تسليماً » .

في صيغة السلام تُبرز الزيارة صفة الربّانية ، والربانية هي علاقة عالية المستوى بالله تعالى تجعل حياة الإنسان الرباني عملاً متصلاً في سبيل الله ومن أجل الله ، بحيث تكون الرغبات الشخصية متحدة مع التكاليف الشرعية والأخلاقية الإلهية ، ولا تكون شيئاً مخالفاً لهذه التكاليف . إن الربانية في الإنسان تحقق صفة « الحب في الله والبغض في الله » .

ثم يعبّر الزائر عن أنه متصل بهم معتنق لمبدئهم ، سائر على طريقتهم ، فهو يعتبر نفسه تابعاً لهم وناصراً ، ويراهم فرطاً له وسلفاً ، فثمة طريقة

واحدة مستمرة ، وسبيل واحد متصل الحلقات ، هم حلقة متقدمة فيه والزائر حلقة تابعة لهم في هذه السبيل ، وهكذا يعبّر الزائر عن ارتباطه المبدئي بالثورة الحسينية .

ثم يعلن الزائر شهادته لهم بأنهم أنصار الله الصامدون الأقوياء الأعزاء ، وهم يشبهون الأنصار المخلصين للأنبياء المقاتلين مع أنصارهم في سبيل الله .

٢ ـ « أبشروا بموعد الله الذي لا خلف له ، إنه لا يخلف الميعاد . الله مدرك لكم ثأر ما وعدكم . أنتم سادة الشهداء في الدنيا والآخرة ، أنتم السابقون ، والمهاجرون ، والأنصار » .
« أشهد أنكم قد جاهدتم في سبيل الله ، وقتلتم على منهاج رسول الله وابن رسول الله . الحمد لله الذي صدقكم وعده وأراكم ما تحبّون »[(١)] .

يعبّر الزائر في هذا المقطع من زيارته عن أمله الراسخ بأن الأهداف السامية التي قاتل من أجلها أنصار الحسين ستتحقق لأن ذلك هو وعد الله الذي لا خلف لوعده ، ولذا فإن الزائر غير يائس بسبب استشهاد أنصار الحسين دون أن يحققوا في حياتهم أهدافهم .

ثم يصفهم الزائر بأوصاف قرآنية وردت في شأن النخبة المؤمنة ، فهم السابقون إلى الإيمان ، وهم المهاجرون إلى الله ، وهم الأنصار لدين الله.

إنهم السابقون بكل ما تعنيه صفة السبق من شجاعة تحمل صاحبها على أن يتجاوز مواقف أهل عصره التقليدية الجامدة ويحقق رؤياه المستقبلية في حركة إقتحام قد تكلّفه حياته ولكنها تحقق للأجيال قدوة

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٧٩ ، ص : ٢٠٤ .

وأسوة حسنة ، وبذلك يستحق التكريم العظيم . وقد كان أنصار الحسين ـ بهذا الإعتبار ـ من السابقين ، لقد تجاوزوا مواقف جيلهم ، وأعراف مجتمعهم الجبان في حركة إقتحام شقوا فيها طريقاً للأجيال .

وإنهم المهاجرون بكل ما تعنيه الهجرة من الخروج عن العادي والمألوف والمريح والمضمون ، إلى الغرابة ، والنصب ، والمخاطرة في سبيل الآخرين وليس في سبيل الذات . إن الهجرة تجاوز للذات نحو الآخرين في سبيل الله .

وإنهم الأنصار بكل ما تعنيه النصرة من إيثار ومشاركة وتحمّل للأخطار في سبيل الله .

ويختم الزائر زيارته بالشهادة التي تنبثق من هاتيك الصفات : إنهم جاهدوا في سبيل الله ، وقتلوا على منهاج رسول الله والإمام الحسين .

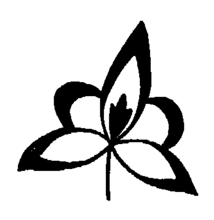
* * *

وقد وردت نصوص عن أئمة أهل البيت في وداع الشهداء حين يفرغ الزائر من زيارته للحسين وهم فيها :

« أللهمَّ لا تجعله آخر العهد من زيارتي إيّاهم ،
وأشركني معهم ، وأدخلني في صالح ما أعطيتهم
على نصرهم ابن بنت نبيّك ، وحجتك على
خلقك ، وجهادهم معه في سبيلك » .
« أللهمَّ اجمعنا وإيّاهم في جنّتك مع الشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .
« أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام . أللهمَّ

ارزقني العود إليهم ، واحشرني معهم يا أرحم
الراحمين »[1].

إن الوداع هنا دعاء ينبض بالرجاء من الله ، وبالحب للشهداء ، وبالرغبة إلى الله في أن يوفّق الزائر إلى أن يعبّر عن وشائج حبّه بالعود إلى هؤلاء الشهداء . رضوان الله عليهم أجمعين .



---

(١) كامل الزيارة ، باب ٨٧ ، ص : ٢٥٩ .



الفصل الثالث

الشعر الرثائي

١- الخلفية العقيدية لأدب رثاء الحسيني
كمظهر لثورة الحسين في الوجدان الشعبي
موقف السلطات المضاد

المحتوى الشعري
والموقف النفسي للإنسان

مقاصد
شعر الرثاء الحسيني
قيمة الشعر الحسيني



الشِعْرُ الرّثائي

لقد بدأت تظهر آثار ثورة الحسين في الوجدان الشعبي من خلال شعر الرثاء لشهداء الثورة ، وفي شعر الندم والتوبة من أولئك الذين قعدوا عن مناصرة الثورة أو ساهموا في الحرب ضدها .

وقلة الآثار الشعرية التي ترجع إلى الحقبة الأولى بعد الثورة تعود إلى الخوف من اضطهاد الأمويين الذين شنّوا حملة واسعة النطاق لحصر أثر الثورة في حيّز ضيّق ، وذلك بعد أن اكتشفوا خطر التفاعلات التي أطلقت الثورة عقالها .

ولكن نشوب الثورة في الحجاز ضد الحكم الأموي ، وامتدادها إلى العراق وغيره ، وانطلاق الأعمال الإنتقامية ضد الأمويين وأعوانهم في آخر العهد الأموي وأوائل الدولة العباسية أطلق فيضاً من الشعر الرثائي لثوار كربلاء لم يتوقف تدفّقه إلى الآن .

* * *

أغنى مقصد من مقاصد الأدب العربي بالإنتاج الشعري هو شعر الرثاء إذا لاحظنا حجم الإنتاج الشعري في رثاء الحسين بوجه خاص ، وفي ثورة الحسين في كربلاء بوجه عام : فمن المؤكد أن ما قيل من شعر في رثاء الحسين وآله وصحبه ، وما قيل من شعر في شأن كربلاء بوجه عام هو أكثر وأغزر مما قيل في أي موضوع آخر منفرد على الإطلاق . ولا يختص ذلك بالعربية الفصحى ، فإن العامية العراقية ـ الخليجية

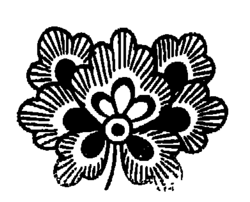
تملك تراثاً ضخماً من هذا الشعر الرثائي في الحسين وثورته .

بل إن الأدب الفارسي في هذا الشأن كالأدب العربي ، ولعله يزيد عليه ، فقد اشتمل الشعر الفارسي على أعمال كثيرة جداً في رثاء الحسين وتمجيد ثورته بأساليب شتّى .

بل إن المسلمين الشيعة قد أنشؤوا في هذا المقصد ـ بأية لغة تكلّموا من عربية أو فارسية أو تركية أو إردية أو غيرها ـ أعمالاً شعرية تتجاوز في حجمها ما أنشؤوه في المقاصد الأخرى[1].

وقد نشأت ظاهرة الشعر الرثائي الحسيني في الأدب الشيعي نتيجة لكون المسألة الحسينية ليست ذات بعد عاطفي فقط ، وإنما هي بالإضافة إلى ذلك ذات بعد ديني أيضاً يجعل تخليدها في الشعر عملاً من أعمال التقوى .

وندرس فيما يلي هذه الظاهرة من عدة جوانب



(١)......ان شاعرا واحدا وهو الشيخ أحمد البلادي من شعراء القرن الثاني عشر الهجري نظم ألف قصيدة في رثاء الإمام الحسين عليه السلام ودونها في مجلدين ضخمين كما روى ذلك الشيخ الأميني في موسوعته، وان الشيخ الخليعي جمال الدين بن عبد العزيز وهو من شعراء القرن التاسع لـه ديوان شعر في الإمام الحسين (ع) . واني وقفت على ديوان للشيخ حسن الدتستاني من شعراء القرن الثالث عشر كله في يوم كربلاء وللشيخ محمد الشوبكي من شعراء القرن الثاني عشر ديوان في مدائح النبي وآله وآخر في مراثيهم سماه سيل العبرات يحتوي على خمسين قصيدة . وبين أيدينا كتاب (المنتخب للشيخ محي الدين الطريحي المتوفي في القرن الثاني عشر وفيه عشرات القصائد ولا يعلم قائلها ، ومثله مئات المقاتل التي تروي قصة الحسين عليه السلام وتثبت شواهد من الشعر الذي قيل في رثائه ، اوبين أيدينا مجاميع خطية في المكتبات العامة والحاصة وفيها المئات من القصائد الحسينية ولم يذكر أسم ناظمها) .

(أدب الطف) ١/١٨ .

١- الخلفيّة العقيديّة لأدب الرّثاء الحسينيّ كمظهر لثورة الحسين في الوجدان الشعبيّ

روي عن الإمام الصادق أنه قال :

« ما قال فينا قائل بيتاً من الشعر حتى يؤيّد بروح القدس »[١].

« من قال فينا بيتاً من الشعر بنى الله له بيتاً في الجنة »[١].

وروى أبو هارون المكفوف ، قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : يا أبا هارون أنشدني في الحسين علية السلام قال فأنشدته فبكى فقال : أنشدني كما تنشدون ، يعني بالرقة[٢] ، قال فأنشدته :

أمـــرر عـــلى جدث الحسين ... فقـــل لأعظمـــه الزكيـة

قال : فبكى ، ثم قال : زدني ، قال : فأنشدته القصيدة الأخرى ، قال : فبكى وسمعت البكاء من خلف الستر . قال ؛ قال : فلما فرغت قال لي : يا أبا هـارون من أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبكى عـشراً كتبت له الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فبكى وأبكى خمسة كتبت له الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فبكى وأبكى واحداً كتبت لهما الجنّة .. إلى آخر الحديث[٣].

---

(١) الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه أبو جعفر القمي . عيون أخبار الرضا ـ مطبعة دار العلم ـ قم إيران /١٣٧٧هـ/ ج١ / ٧ .

(٢) يعني بأسلوب نائح باكٍ انفعالي ، ويبدو أن المأتم الحسيني قد بلغ في عهد الإمام الصادق مرحلة متقدمه بحيث أنه اتسم بأسلوب خاص في الانشاد .

(٣) كامل الزيارة ، باب : ٣٣ ، ص : ١٠٤ ـ ١٠٦ .

روى أبو عمارة المنشد عن الإمام الصادق ، قال : قال لي ، : يا أبا عمارة أنشدني للعبدي في الحسين عليه السلام ، قال : فأنشدته فبكى ، ثم أنشدته فبكى ، ثم أنشدته فبكى . قال : فوالله ما زلت أنشده ويبكي حتى سمعت البكاء من الدار . فقال لي : يا أبا عمارة من أنشد في الحسين عليه السلام شعراً فأبكى خمسين فله الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى أربعين فله الجنّة ، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنّة ... إلى آخر الحديث[1] .

وروى الحارث الأعور قال : قال عليّ عليه السلام : بأبي وأمي الحسين المقتول بظهر الكوفة ، والله كأني أنظر إلى الوحوش مادة أعناقها على قبره من أنواع الوحش يبكونه ويرثونه ليلاً حتى الصباح ، فإذا كان ذلك ، **فإياكم والجفاء** »[2] .

وقال أبو عبد الله الصادق لسفيان بن مصعب : أنشدني في الحسين ، وأمر بتقريب أم فروة وعياله ، فلما حضرن قال سفيان :

فرو جودي بدمعك المسكوب ... ...

فصاحت أم فروة وصحن النساء ، فقال أبو عبد الله : الباب ، الباب ، واجتمع أهل المدينة ، فأرسل إليهم أبو عبد الله : صبيّ غشي عليه »[3] .

* * *

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٣٣ ، ص : ١٠٤ ـ ١٠٦ .

(٢) كامل الزيارة ، باب : ٢٦ ، ص : ٧٩ ـ ٨٠ .

(٣) الكليني ، روضة الكافي ، رقم الحديث : ٢٦٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كان أئمة أهل البيت يحتفون احتفاءاً كبيراً بالشعراء الذين ينشئون هذا اللون من الشعر في رثاء أهل البيت ومدحهم والحسين منهم بوجه خاص .

ومن ذلك قول الإمام محمد الباقر للكميت بن زيد الأسدي لما أنشده قصيدته :

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

بل هواي الذي أجن وأبدي لبني هاشم أجلّ الأنام

« لا زلت مؤيّداً بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت »[1].

واستأذن الكميت على الإمام الصادق في أيام التشريق ، وأراد أن ينشده قصيدته ، فكبر على الإمام أن يتذاكروا الشعر في الأيام العِظام ، ولما قال له الكميت : إنها فيكم ، أنس الإمام ، ثم دعا بعض أهله فقرب ، ثم أنشده الكميت ، فكثر البكاء ، ولما أتى على قوله :

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم فيا آخراً أسدى له ألغي أول

رفع الصادق يديه وقال : أللهم اغفر للكميت ما قدم وأخّر ، وما أسرَّ وأعلن ، وأعطه حتى يرضى »[2] .

وإذن فالشعر الذي قاله الشيعة في رّثاء الحسين وأهل البيت لم يكن في معظمه ، شعر مناسبات ، وإنما كان عملاً دفعت إليه العاطفة ودفع إليه الدين .

دفعت إليه العاطفة من جهة العلاقة الحميمة بين الإنسان الشيعي وبين إمامه الثائر المظلوم .

ودفع إليه الدين متمثلاً في النصوص التي ذكرنا بعضها ، الداعية إلى إنشاء الشعر في أهل البيت ، المرغِّبة فيه ، وفي هذه المواقف الشخصية

---

(١) الكشي : كتاب الرجال : ١٨١ .

(٢) الأغاني

التي كان يتّخذها أئمة أهل البيت من الشعراء الحسينيين ، وقد عرضنا بعضها آنفاً .

لهذا وذاك ، غدا نظم الشعر وإنشاده عملاً دينياً يدخل في تعظيم شعائر الله . فالحسين لم يَسْعَ من وراء ثورته إلى مجد شخصي ، وإنما قام بها خدمة للشعب على هدى الإسلام ، فتخليد الثورة في شخصه ، ونشر شعاعها وتأثيرها في المجتمع بالشعر وغيره ، وهو عمل من أعمال التقوى «**ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**»[1] .

وقد عبَّر الشعراء أنفسهم عن هذه الرؤية الدينية لعملهم الشعري في رثاء الحسين نتيجة لتوجيه أئمة أهل البيت .

فمن أقدم النصوص الشعرية التي تعكس هذه الرؤية الدينية للشعر الرثائي الحسيني ما قاله أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو (توفي سنة : ٦٩ هـ ، وبلغ عمره خمساً وثمانين سنة) ، في قصيدة يرثي بها الحسين ومن أصيب معه من بني هاشم :

سأجعل نفسي لهم جُنَّة	فلا تكثري لي من اللائمة
أرجو بذلك حوض الرسول	والفوز والنعمة الدائمة
لتهلك إن هلكت برة	وتخلص إن خلصت غانمة[2]

ومن ذلك قول أبي محمد سفيان بن مصعب العبدي الكوفي (توفي سنة ١٢٠ هـ ؟ في الكوفة) من قصيدة في أهل البيت ، ويخاطب علياً :

يا صاحب الكوثر الرقراق زاخره	ذد النواصب عن سلساله الخصب
قارعت منهم كماةً في هواك بما	جردت من خاطر أو مقول ذرب
حتى لقد وسمت كلماً جباههم	خواطري بمضاء الشعر والخطب

(١) سورة الحج (الآية : ٣٢) .

(٢) جواد شبر ، أدب الطف (الطبعة الأولى – بيروت – ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م) ج١ ص : ١٠١ .

إن ترضَ عني فلا أسديت عارفة إن ساءني سخط أم برة دأب
صحبت حبك والتقوى وقد كثرت لي الصحاب فكانا خير مصطحب
ألفيت نفسي في مديحك عارفة بأن راحتها في ذلك التعب[1]

والكميت بن زيد الأسدي (توفي سنة : ١٢٦ هـ) قال للإمام الباقر بعد أن أنشده قصيدته :

من لقلب متيم مستهـــام غير ما صبـوة ولا أحـلام

وعرض عليه الإمام مالاً فلم يقبل : « والله ما قلت فيكم شيئاً أريد به عرض الدنيا ، ولا أقبل عليه عوضاً ، إذ كان لله ورسوله » فقال له الإمام : « فلك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا زلت مؤيّداً بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت » .

وقال الكميت في بعض هاشمياته :

إلى النضر البيض الذين بحبهـم إلى الله فيما نابني اتقرب

ومن ذلك قول السيد الحميري (إسماعيل بن محمد ـ توفي سنة : ١٨٣ ، أو ١٨٧ هـ . في بغداد) :

جعلت آل الرسول لـي سببـاً أرجو نجاتي به مـن العطب
عـلى مَ ألحـى على مودّة مـن جعلتهـم عـدة لمنقلـــبي

ومن ذلك قول محمد بن إدريس الشافعي ، إمام المذهب (توفي سنة : ٢٠٤ هـ بمصر) من قصيدة في رثاء الحسين :

لئن كـان ذنبـي حب آل محمد فذلـك ذنب لست عنه أتوب
هم شفعائي يوم حشري وموقفي إذا ما بدت للناظرين خطوب

ومن ذلك قول دعبل الخزاعي (توفي سنة : ٢٤٦ هـ) في تائيته المشهورة :

ملامَكَ في آل النـبيّ فإنهم أحبائي ماداموا وأهل ثقاتـي

---

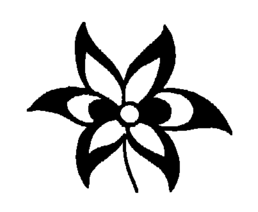
(١) أدب الطف : ١/١٧٩ ـ ١٨٠ .

تخيَّرتهم رشداً لنفسي إنهـــم   علـى كل حال خيرة الخيرات
فيا رب زدنـــي في هواي بصيرة   وزد حبهم يا رب في حسناتي
... ...
فإني مـن الرحمان أرجو بحبهم   حياة لدى الفردوس غير ثبات

* * *

نكتفي بهذه النماذج دليلاً على الخلفية الدينية لشعر الرثاء الحسيني ، ويجد الباحث مظاهر هذه الخلفية الدينية عند شعراء الرثاء الحسيني في جميع العصور منذ القرن الهجري الأول إلى يومنا هذا .

ونلاحظ أن الخلفية الدينية لشعر الرثاء الحسيني شديدة الظهور في هذا الشعر في العصور المتأخرة .



مَوقِفُ السُّلطَاتِ المُضَادُّ

لقد رأينا كيف أن أئمة أهل البيت بيّنوا المنزلة العالية عند الله تعالى ، والجزاء الأوفى في الآخرة لمن يساهم بالشعر في رثاء الحسين وأهل البيت ، ورأينا كيف كانوا يكرّمون شعراءهم ، ويدعون لهم ، ويغمرونهم بالحب والرعاية .

ورأينا كيف أن هذا الموقف أعطى للشعر الرثائي حافزاً دينياً إلى جانب الحافز العاطفي ، وقد حمل هذان العاملان شعراء الشيعة وغيرهم على أن يكثروا من هذا اللون في شعرهم ويتفنّنوا فيه .

ولا بدَّ لنا أن ننبه هنا على أمر في غاية الأهمية يتصل بما ورد في أخبار أهل البيت ـ التي قدمنا بعضها ـ من الثواب الجزيل عند الله تعالى لمن أنشأ أو أنشد شيئاً من الشعر في أهل البيت ، فقد يدهش القارئ المعاصر ويتساءل : أيستحق عمل بسيط كهذا ثواباً كثيراً كالذي ورد في تلك النصوص عن أئمة أهل البيت ؟

وفي الجواب عن هذا التساؤل نقول : إن هذه المنزلة العالية التي ينالها الشاعر الحسيني أو المنشد الحسيني ليست مطلقة ، وإنما هي ناشئة من طبيعة الظروف التي كانت سائدة في ذلك العهد ، حيث كان نظم الشعر في مديح أئمة أهل البيت ، والحسين منهم بوجه خاصّ ، ورثائهم ، وذكر ما نزل بهم من الظلم ، والبراءة من ظالميهم ... كان هذا يتضمَّن موقفاً سياسياً رافضاً للسلطة القائمة ، ويعني موقفاً سياسياً موالياً لأهل البيت ولنهجهم السياسي والتشريعي ، وكان الشعراء ـ كما يدلنا على ذلك التاريخ الأدبي ـ موضع مراقبة من السلطات السياسية في عهودهم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكـان اكتشاف موقف مـوال لأئمة أهل البيت مـن خـلال شعـر شاعر أو تأليف كاتب خليقاً بأن يؤدي بصاحبه إلى الموت على أيدي رجال السلطة ، أو إلى التشريد والمطاردة ، والسجن والمصادرة . كل ذلك بسبب أن الموقف الشعري لم يكن يعني في الماضي موقفاً ذهنياً وعاطفياً فقط ، وإنما كان يعني موقفاً سياسياً أيضاً .

ومن الواضح أن عملاً بهذا الحجم والخطورة أهل لأن يبوئ صاحبه المنزلة العالية التي تحدثت عنها النصوص الواردة في هذا الشأن ، وأن يستحقّ التكريم وانثناء الجزيل من أئمة أهل البيت .

وسنرى فيما يأتي من هذا الفصل صورة عن موقف السلطات المضاد الذي كان يعاقب بقسوة كل شاعر يستجيب لنداء أهل البيت .

أمّا حين يكون نظم الشعر وإنشاده ، وتأليف الكتب ونشرهـا في شأن أهل البيت والحسين منهم بوجه خاص عملاً ثقافياً لا يعرّض صاحبه لأي خطر ولا يسبب له أية متاعب مع السلطة أو مع الناس ، فإنه عمل جيد ومبرور ويثاب عليه صاحبه من الله بكل تأكيد ، ولكنه - بكل تأكيد أيضاً لا يصل في الفضل والنبل إلى مستوى الشعراء الأبطال الذي غنوا ثورة أهل البيت ومأساتهم في تلك الظروف القاسية ، وعرّضوا بذلك أنفسهم وأهلهم وأولادهم لأعظم الأخطار ، وحققوا بشعرهم التزامهم المطلق بقضية الإنسان المسلم بقدر ما أسعفتهم ظروفهم ووسائلهم حينذاك . فهؤلاء ـ الذين سنقدم فيما يأتي من هذا الفصل صورة عما كانوا يعانون منه ـ يستحقون من الثناء والتكريم ما يستحقه الأبطال .

* * *

لقد أدركت السلطات الحاكمة على اختلاف العهود السياسية ، في العصر الأموي ، ثم في العصر العباسي وما تلاه خطورة هذا اللون

من الشعر ، فهو يؤجّج الحمية الدينية ، ويعزّز العلاقة العقيدية والعاطفية بالمعارضة ، ويثير الشبهات حول شرعية الحكم القائم .

ونتيجة لهذا الإدراك فقد واجهت السلطات شعراء أهل البيت بالقمع والتنكيل . ولذلك فقد كان الشعر الرثائي يتداول بين الشيعة سرّاً ، وكان الشعراء يتكتمون أمام السلطان ويحرصون على أن لا يعرفوا بشيء من هذا الشعر الذي إذا عرفوا بشيء منه فإنهم يلاحقون .

ونذكر هنا بما مرَّ آنفاً من ردّ الإمام الصادق لمن جاء يستطلع من أهل المدينة حين سمعوا صوت البكاء وتوريته بأن صبياً في المنزل غشي عليه ، فإن تصرّف الصادق هذا في أغلب الظن جاء رغبة منه في عدم شهر «سفيان بن مصعب» صاحب القصيدة ، حماية له من عسف السلطان .

وقال أبو الفرج الاصفهاني :

«قد رثى الحسين بن عليّ ، صلوات الله عليه ، جماعة من متأخري الشعراء أستغني عن ذكرهم في هذا الموضع كراهية الإطالة . وأما من تقدم فما وقع إلينا شيء رثي به ، وكانت الشعراء لا تقدم على ذلك مخافة من بني أمية ، وخشية منهم»(١) .

وهذا النص يدل على أن رثاء الحسين كان عملاً محظوراً يعاقب عليه ، وأن الإنفراج حدث بعد ذلك . ولا ننسى أن أبا الفرج الاصفهاني ألّف كتابه (مقاتل الطالبيين) في العهد البويهي ، بعد أن ضعفت السلطة العباسية ، ووجد الشيعة شيئاً من القدرة على التعبير العلني عن معتقدهم .

---

(١) مقاتل الطالبيين : ١٢٢ ـ شرح وتحقيق السيد أحمد صقر ـ .

وقال ابن الأثير في تاريخه عندما روى قصيدة أعشى همدان التي رثى بها التوابين ، ومطلعها :

ألمَّ خيال منك يا أمّ غالـــب فحييت عنا مـن حبيب مجانب

وفيها يقول :

فساروا وهم ما بين ملتمس التقىٰ وآخر مما جرَّ بالأمس تائب

فلاقوا بعين الوردة الجيش فاصلاً إليهم فحسّوهم ببيضٍ قواضب

قال عنها ابن الأثير : « وهي مما يكتم في ذلك الزمان »[1].

وعن معجم الشعراء للمرزباني : أن عوف بن عبد الله الأزدي له قصيدة طويلة رثى بها الحسين : « وكانت هذه المرثية تخبّأ أيام بني أمية ، وإنما خرجت بعد كذا » .

ومنها :

ونحن سمونا لابن هند بجحفــل كرجل الدَّبا يزجي إليه الدواهيا[2]

وقد كاد الكميت بن زيد الأسدي أن يقتل حين سمع هشام بن عبد الملك قصائده الهاشميات ، ولم ينج من القتل إلا بحيلة فر بها من السجن.

وقد صرَّح في شعره بما يلاقيه من عداوة وتأنيب نتيجةً لموقفه المعلَن في شعره يقول :

وأَرمي وأرمى بالعداوة فيهـــم وإنيِ لأؤذى فيهـم وأُؤنّـــبُ

يعيّــرني جهّال قــومي بحبهـــم وبغضهم أدنى لعارٍ وأعطــب

... ...

وأحمل أحقاد الأقارب فيكـــم وينصب لي في الأبعدين فانصب

يشيرون بالأيدي إليَّ وقـولهـم ألا خاب هذا والمشيرون أخيب

---

(١) إبن الأثير ــ الكامل / ج٤ /ص ؛ : ١٨٦ ــ ١٨٩ .

(٢) الكنى والألقـــاب .

وطائفة قد كفرتني بحبكم ... وطائفة قالوا مسيء ومذنب
ألم ترني من حب آل محمد ... أروح وأغدو خائفاً أترقب
على أي جرم أم بأيّة سيرة ... أُعنَّف في تقريضهم وأؤنَّب

* * *

وحين سمع هارون الرشيد قصيدة منصور النميري اللامية في رثاء الحسين ومدح أهل البيت ، ومطلعها :

شاء من الناس راتع هامل ... يعللون النفوس بالباطل

غضب غضباً شديداً، وأمر أبا عصمة ـ أحد قواده ـ أن يذهب من فوره إلى الرقة . ويأخذ منصور النميري ويقطع لسانه ويقتله ويبعث إليه برأسه ، فلما وصل أبو عصمة إلى باب الرقة رأى جنازة النميري خارجة منه ، فعاد إلى الرشيد وأخبره بوفاة النميري ، فقال الرشيد : فألا إذا صادفته ميتاً أحرقته بالنار .

ودعبل الخزاعي يصرّح بخوفه في تائيته المشهورة :

وأكتم حبَّكم مخافة كاشح ... عنيد لأهل الحق غير مواتي
لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها ... وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي

* * *

وقد انتشر في أدب الرثاء الحسيني ما يسمى شعر الجن الذين رثوا الحسين .

وقد عقد أبو القاسم بن قولويه القمي في كتابه (كامل الزيارة) باباً خاصاً بهذا الموضوع أسماه «الباب التاسع والعشرون : نَوح الجن على الحسين بن عليّ عليهما السلام» .

وذكر فيه نماذج من هذا الشعر الذي يتّسم بأنه مقاطع قصيرة ، تغلب عليها الركّة والتفاهة ، وبعضها منسوب إلى رجال تاريخيين ، كالرجز المعروف للطرماح الطائي :

يا ناقتي لا تذعري من زجري ... ... إلخ..

فإنه منسوب في الفصل المذكور إلى الجن .

كما وردت نصوص منسوبة إلى الجنّ في كثير من كتب التاريخ والأدب .

ويبدو لنا أن أكثر هذا الشعر لشعراء إنسيين مغمورين أرادوا ضمان انتشار الدعاية للثورة ، والمساهمة في عمل من أعمال التقوى المحبوبة دون أن يخاطروا بأنفسهم ويتعرّضوا لنقمة السلطة ، فأنشؤوا هذه الأبيات ونسبوها إلى الجنّ . ولعلّ بعض هذا الشعر من عمل النائحات اللاتي كنّ يزاولن النوح في المآتم النسائية على الحسين ، وكنّ يردن الإغراب وإثارة الدهشة بنسبة ما ينحن به إلى مخلوق غير بشريّ ، وهو ما يلائم العقلية الشعبية المولعة بأمثال هذه الأمور .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الظاهرة تدلّ بوضوح على جوّ الخوف والحذر الذي كان يسود الأوساط الأدبية والشعبية حين تقترب من موضوع رثاء الحسين وأهل البيت إنشاءً وإنشاداً .

ولكن هذا الموقف المضاد الذي اتخذته السلطات المتعاقبة من موضوع رثاء الحسين لم يؤثّر على نموّ الشعر الحسيني الرثائي ، بل لعلّه زاده نموّاً وحرارة ، وجعل شعراء الشيعة يمارسونه بروح الفداء والتضحية والتقوى .

لقد كان موقف السلطات المضاد لهذا الرثاء يجعل هذه السلطات في الوجدان الشعبي شريكة بشكل ما للأمويين ، ويجعلها في هذا الوجدان مشاركة للأمويين في اضطهاد الحسين .

* * *

المحتوى الشعري
والموقف النفسي للإنسان

كان شعر الرثاء الحسيني صورة للموقف النفسي للإنسان الشيعي بوجه خاص ، وللإنسان المسلم بوجه عام .

فقد كان شعر الرثاء الحسيني حزيناً في غير ذلٍّ ولا روحٍ انهزامية أمام قسوة الواقع وتحدياته . كان شعراً رثائياً حزيناً ، وهذا أمر طبيعي ومقبول في شعر الرثاء بوجه عام ؛ فكيف به إذا كان صادراً عن عاطفة حب صادقة ، وعن لوعة في القلب صادقة كما هو الشأن في شعر الرثاء الحسيني ، وكيف به إذا كان ، بالإضافة إلى الحافز العاطفي ، صادراً عن حافز ديني كما هو الشأن في شعر الرثاء الحسيني . إن شعر الرثاء الحسيني لم يكن هذا فقط ، لقد كان أيضاً شعراً فيه روح العزّة وروح الثأر ، وكان حافلاً بمعاني القوة والتهديد لأولئك الذين ساهموا ــ بشكل أو بآخر ــ في فاجعة كربلاء : النظام الأموي وأعوانه . وكان الشاعر الحسيني يعبّر في شعره عن استعداده للنضال والبذل في سبيل الثأر من الجناة الذين ارتكبوا جريمة قتل الحسين وآله وصحبه في كربلاء .

وما وصل إلينا من شعر الرثاء الحسيني مما أنشئ في القرن الأول والقرن الثاني الهجريين يجد فيه الباحث نماذج كثيرة حافلة بهذه المعاني التي ذكرناها بنسب متفاوتة .

ونعرض فيما يلي بعض النماذج لهذا اللون من شعر الرثاء الحسيني .

من هؤلاء الشعراء عبيد الله بن الحرّ الجعفي ، وكان من الزعماء البارزين في الكوفة ، وقد امتنع من نصرة الحسين حين طلب الحسين

إليه ذلك ، ثم ندم ورثى الحسين وصحبه في شعر فيه حزن وندامة ورغبة في الثأر .

وبعد أن أعلن عصيانه على النظام الأموي ممثلاً بعبيد الله بن زياد ، اجتمع إليه أصحابه ، ثم خرج حتى أتى كربلاء ، فنظر إلى مصارع الحسين ومن قتل معه ، فاستغفر لهم ، ثم مضى إلى المدائن ، وقال :

يقول أمير غادر وابن غادر ألا كنت قاتلت الحسين بن فاطمة
ونفسي على خذلانه واعتزاله وبيعة هذا الناكث العهد لائمة
فيا ندمي ألا أكون نصرته ألا كل نفس لا تسدّد نادمة
وإني لأني لم أكن من حماته لذو حسرة ما إن تفارق لازمة
سقى الله أرواح الذين تبادروا إلى نصره سقياً من الغيث دائمة
وقفت على أجداثهم ومحالهم فكاد الحشى ينقض والعين ساجمة
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى سراعا إلى الهيجا ، حماة ، خضارمة
تآسوا على نصر ابن بنت نبيهم بأسيافهم آساد غيل ضراغمة
فإن يقتلوا فكل نفس تقية على الأرض قد أضحت لذلك واجمة
وما إن رأى الراؤون أفضل منهم لدى الموت سادات وزهر قماقمة
أيقتلهم ظلماً ويرجو ودادنا فدع خطة ليست لنا بملائمة
لعمري لقد أرغمتمونا بقتلهم فكم ناقم منا عليكم وناقمة
أهمّ مراراً أن أسير بجحفلٍ إلى فئة زاغت عن الحق ظالمة
فكفوا وإلا زدتكم بكتائبٍ أشدّ عليكم من زحوف الديالمة

في هذا الرثاء حزن وندامة عميقة في القلب ، وتهديد بالثأر . وقد قتل عبيد الله بن الحرّ الجعفي سنة ٦٨ هـ بعد معركة خاضها ضد عبيد الله بن العباس السلمي أحد قواد مصعب بن الزبير في العراق .

* * *

وقال سليمان بن قتة العدوي التيمي حين مرَّ على كربلاء بعد قتل الحسين بثلاث ، فنظر إلى مصارعهم وقال :

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلت
ألم ترَ أن الشمس أضحت مريضة ... لقتل حسين والبلاد اقشعرت
وكانوا رجاءً ثم أضحوا رزيةً ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وتسألنا قيس فنعطي فقيرها ... وتقتلنا قيس إذا النعل زلَّت
وعند غني قطرة من دمائنا ... سنطلبها يوماً بها حيث حلَّت
فلا يبعد إلٰه الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغم تخلَّت
وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذلَّ رقاب المسلمين فذلَّت
وقد أعولت تبكي السماء لفقده ... وأَنجُمُنا ناحت عليه وصلَّت

وفي هذه الأبيات حزن صادق ، وفيها تهديد ووعيد ، ولكنه ليس تهديداً للنظام ، فإنه يهدد قيساً وغنياً ، إلا إذا اعتبرنا تهديده لقيس تهديداً للنظام كله على اعتبار أن القيسية كانوا يشكلون أكثرية الجيش الأموي في كربلاء .

* * *

وقال أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو توفي سنة : ٦٩ هـ) :

يا ناعي الدين الذي ينعى التقى ... قم وانعِه والبيت ذا الأستار
أبني عليٍّ آل بيت محمد ... بالطف تقتلهم جفاة نزار ؟
سبحان ذا العرش العلي مكانه ... أنّى يكابره ذوو الأوزار
أبني قشير إنني أدعوكمو ... للحق قبل ضلالة وخسار
كونوا لهم جُنناً وذودوا عنهم ... أشياع كل منافق جبار
وتقدموا في سهمكم من هاشم ... خير البرية في كتاب الباري
بهم اهتديتم فاكفروا إن شئتموا ... وهم الخيار ، وهم بنو الأخيار

وهذا الشعر وإن كان خالياً من حرارة العاطفة ، إلا أنه يؤكِّد على المعنى الديني لأهل البيت ، ويدعو إلى الثأر .

* * *

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطَّلب بن هاشم :

بكيت لفقد الأكرمين تتابعوا ... لوصل المنايا دارعون وحسَّر
من الأكرمين البيض من آل هاشم ... لهم سلف من واضح المجد يذكر
بهم فجعتنا والفواجع كاسمها ... تميم ، وبكر ، والسَّكون وحمير
وفي كل حيٍّ نفحة من دمائنا ... بنيّ هاشمٍ يعلو سناها ويشهر
فلِلّه محيانا وكان مماتنا ... ولله قتلانا تدان وتنشر
لكل دمٍ مولى ومولى دمائنا ... بمرتقب يعلو عليكم ويظهر
فسوف يرى أعداؤنا حين نلتقي ... لأي الفريقين النبيّ المطهّر
مصابيح أمثال الأهلة إذ هم ... لدى الحرب أو دفع الكريهة أبصر

ومن الواضح ما في هذا الشعر من تهديد بالثأر .

وقال الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطَّلب :

كلما أحدثوا بأرضٍ نقيقباً ... ضمنونا السجون أو سيّرونا
قتلونا بغير ذنبٍ إليهم ... قاتل الله أمَّة قتلونا
ما رَعَوا حقَّنا ولا حفظوا فينا ... وصاة الإله بالأقربينا
جعلونا أدنى عدوٍّ إليهم ... فهم في دمائهم يسبحونا
أنكَروا حقَّنا وجاروا علينا ... وعلى غير إحْنة أبغضونا
غير أن النبيّ منَّا وإنّا ... لم نزل في صِلاتهم راغبينا

إن دَعونا إلى الهدى لم يجيبونا — وكانوا عن الهدى ناكبينا
فعسى الله أن يديل أناساً — من أناس فيصبحوا ظاهرينا
فتقرّ العيون من قوم سوءٍ — قد أخافوا وقتلوا المؤمنينا
من بني هاشمٍ ومن كل حيّ — ينصرون الإسلام مستنصرينا
في أناس آباؤهم نصروا — الدين وكانوا لربهم ناصرينا
تحكم المرهفات في الهام منهم — بأكفّ المعاشر الثائرينا
أين قتلى فهم بغيتم عليهم — ثم قتلتموهم ظالمينا
أرجعوا هاشماً وردّوا أبا اليقظان — وابن البديل في آخرينا
وأرجعوا ذا الشهادتين وقتلى — أنتم في قتالهم فاجرونا
ثم ردّوا أبا عمير وردّوا — لي رشيداً وميثماً والذينا
قُتِلوا بالطفوف يوم حسين — من بني هاشم وردّوا حسيناً
أين عمرو وأين بشر وقتلى — معهم بالعراء ما يدفنونا
أرجعوا عامراً وردّوا زهيراً — ثم عثمان فارجعوا غارمينا
وأرجعوا هانباً وردوا إلينا — كل من قد قتلتم أجمعينا

وفي هذه القصيدة رؤية واسعة بعيدة المدى ، فهو يشير إلى النزاع القديم منذ عهد رسول الله (ص) ، وذلك في إشارته إلى ذي الشهادتين وغيره من شهداء حروب الإسلام الأولى ، ويعرض لحرب صفين وشهدائها مع الإمام عليّ ، ثم للشهداء الذين قتلهم زياد في الكوفة « رشيد الهجري ، وميثم التمار » ، ثم يعرض لثوّار كربلاء .

وهو يهدد بالثأر ، وكأنه يومئ إلى الأنصار ، من اليمن ، وذلك بقوله : « في أناسٍ آباؤهم نصروا الدين ... » .

وقال عوف بن عبد الله بن الأحمر الأزدي :

... ...

ألا وانع خير الناس جداً ووالداً حسيناً لأهل الدين إن كنت ناعياً

ليبك حسيناً مرمل ذو خصاصة عديم وأمام تشكي المواليا

فأضحى حسين للرماح دريئة وغودر مسلوباً لدى الطفّ ثاويا

سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى بغربية الطف الغمام الغواديا

فيا أمّة تاهت وضلت سفاهة أنيبوا فارضوا الواحد المتعاليا

ومنها :

ونحن سمونا لابن هند بجحفل كرجل الدَّبا يزجي إليه الدواهيا

فلما التقينا بيّن الضرب أينا بصفين كان الأضرع المتوانيا

ليبك حسيناً كلما ذرَّ شارق وعند غسوق الليل من كان باكيا

لحا الله قوماً أشخصوهم وغرَّروا فلم ير يوم البأس منهم محاميا

ولا موفيا للعهد إذ حمس الوغى ولا زاجراً عنه المضلّين ناهيا

فيا ليتني إذ ذاك كنت شهدته فضاربت عنه الشانئين الأعاديا

ودافعت عنه ما استطعت مجاهداً وأعملت سيفي فيهم وسنانيا

وفي هذا الشعر حزن بيّن ، ورغبة في الثأر عارمة . ويبدو أن الشاعر قد أنشأ هذه المرثية أثناء ثورته ، فهو أحد التوابين الذين ثاروا على بني أمية مع سليمان بن حر الخزاعي .

* * *

وقال أبو دهبل ، وهب بن زمعة الجمحي :

إليك أخا الصب الشجيّ صبابة تذيب الصخور الجامدات همومها

عجبت وأيام الزمان عجائب ويظهر بين المعجبات عظيمها

تبيت النشاوى من أمية نوَّماً وفي الطفّ قتلى ما ينام حميمها

وتضحي كرم من ذؤابة هــاشمٍ ... يحكّم فيها كيف شاء لئيمها
وتغدو جسوم ما تغذّت سوى العلى ... غذاها على رغم المعالي سهومها
وربات صون ما تبدت لعينها ... قبيل السبا إلا لوقت نجومها
تزاولها أيـدي الهـوان كإنما ... تقحم ما لا عفو فيه أثيمهـــا
وما أفسد الإسلام إلا عصابــة ... تأمر نكاها ودام نعيمهــــا
وصارت قناة الدين في كفّ ظالمٍ ... إذا مال منها جانب لا يقيمها
وخاض بها طخياء لا يهتدي لها ... سبيل ولا يرجى الهدى من يعومها
ويخبط عشواء لا يراد مرادهـا ... ويركب عميا لا يردّ عزومها
يجشّمها ما لا يجشّمه الــردى ... لأودى وعادت للنفوس جسومها
إلى حيث ألقاها ببيداء مجهــل ... تضل لأهل الحلم فيها حلومها ..
رمتها لأهل الطف منها عصابــة ... حداها إلى هدم المكارم لومها
فشنّت بها شعواء في خير فتيــة ... تخلّت لكسب المكرمات همومها

... ...

فما صعّرت خداً لإحراز عــزّة ... إذا كان فيها ساعة مـا يضيمها
أولئك آل الله آل محمــــدٍ ... كرام تحدّث ما حداها كريمها

... ...

يخوضون تيار المنايا ضوامنـــاً ... كما خاض في عذب الموارد هيمها
يقوم بهم للمجد أبيض ماجــد ... أخو عزمات أقعدت من يرومها
حمى بعدما أدى الحفاظ حماية ... وأحمى الحماة الحافظين زعيمها
إلى أن قضى من بعد ما إن قضى على ... خمــاءٍ يسـلي بالسهــام فطيمها
أصابته شنعاء فلو حلّ وقعهـــا ... على الأرض دكّت قبل ذاك تخومها
فأيّمها لم تلق بالطف كافــلاً ... ولم ير من يحنو عليه فطيمها
أضاءت غراب البين فيهم فأصبحت ... من الشجو لا تأوي العمارة بومها
فقصر فما طول الكلام ببالــغٍ ... مداها رمي بالعي عنها كليمها

فما حملت أم الرزايا بمثلهـــا وإن ولدت في الدهر فهي عقيمها
أتت الطير فيها بأول مفضـــل فما ذا الذي شحت على من يسومها
فأقسم لا تنفك نفسي جزوعة وعيني سفوحاً لا يملُّ سجومها
حياتي أو تلقى أميّة وقعـــة يذل لها حتى الممات قرومها

... .

في هذه القصيدة نجد الوعي لوضعية النظام الأموي : المترف ، الظالم ، المحرَّف عن الإسلام وفقاً لشهواته في الحكم والسيطرة . ونجد فيها الحزن الصادق ، ونجد فيها روح الثأر جليَّة واضحة ، وهو ثأر هادف ، وليس لمجرَّد الإنتقام وشفاء النفس ، وإنما لإقامة العدل ، وردّ الحق إلى نصابه .

وعن الشاعر قال السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة ج١/قسم ٢/ ص١٦٣ :

« أبو دهبل الجمحي ، وهب بن زمعة ، وهو معاصر لمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد ، ورثى الحسين وهجا بني أميّة مع تحامي الناس ... وهو من المائة الأولى » .

* * *

هذا اللون من شعر الرثاء الحسيني هو ـ فيما نعتقد ـ اللون السائد من شعر الرثاء في العهد الأموي ، مع افتراض وجود نماذج لا تمثل روح عصرها وخصائص نفسية الإنسان الشيعي في ذلك العصر . أما في العصر العباسي فقد خفَتَ صوت الثأر من الأمويين في شعر الرثاء الحسيني ، وأخلى مكانه للون من الرثاء فيه حزن ، وفي بعضه رضا بأن العباسيين قد أخذوا بثأر شهداء كربلاء .

لقد كان الأمويون يمثّلون الخصم الذي ارتكب الجريمة ، فكان الشاعر الشيعي يعبّر عن نقمته ونقمة الجمهور الشيعي عليهم بالتهديد والوعيد والتحريض على الثأر . ونعتقد أن ما وصلنا من شعر الرثاء الحسيني في تلك الفترة يمثل بعض النماذج القليلة لهذا اللون من الرثاء ، وأن أكثر هذا اللون من الرثاء وأشدّه وقعاً ، وأحفله بمعاني القوّة والثأر قد ضاع ونسي نتيجه للظروف التي كانت سائدة حينذاك ، ظروف الخوف من الإضطهاد والقتل التي كانت تحمل شعراء الشيعة على إخفاء هذا اللون من الشعر ، وكانت تمنع الرواة من تداوله ، وتمنع الناس من تناشده ، فوصل إلينا منه القليل .

أما بعد ان زالت دولة الأمويين ، وورثت سلطانها دولة أخرى وفقاً لعقلية جديدة في فهم مهمة الحكم وأسلوب جديد في ممارسته ، أمّا بعد هذا فقد زال الخصم المباشر وزالت دولته ، وجاءت دولة أخرى من شعاراتها « يا لثارات الحسين » وهي دولة العباسيين ، الهاشميين ، أبناء عم الحسين وآله .

لقد استمرَّ شعراء الشيعة وغير الشيعة في إنشاء المراثي بطبيعة الحال ، ولكن بعض الشعراء حاول في رثائه أن يعكس الواقع الجديد الذي نشأ بقيام الدولة العباسية الهاشمية على أنقاض الأمويين ، فأنشأ بعض الشعراء قصائد في رثاء الحسين فيها حزن ولوعة ، ولكن فيها أيضاً ـ كما أشرنا ـ فرحاً وغبطة بأن الأمويين الظالمين قـد نالوا جزاءهم الأوفى على أيدي العباسيين .

من هؤلاء الشعراء عبد الله بن المعتزّ (٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ) فهو يقول من قصيدة في رثاء الحسين :

... ...

وما خفنـا مـن الناسِ وهـل في الناس إنسـان

جزينـا الأمـــويين ودناهـم كما دانـوا
وذاقـوا ثمـر البغـي وخناهم كمـا خانـوا
وللخـــير وللشـّــر بكفّ اللّـــه مـيزان
ولـولا نحـن قد ضاع دم بالطفّ مجـــان
فيا مــن عنـده القبر وطـين القـبر قربـان
بأسيـاف لكـــم أودى حسين وهـو ظمـآن
يـرى في وجهـه الجهم لـوجه المـوت ألـوان
ودأب العلـويـين لهم جحـد وكفـران
فهـلاّ كـان إمساك إذا لم يـك إحسان
يلـومونهـم ظلمـاً فهلاّ مثلهـم كانـوا

ويقول من قصيدة أخرى في الإمام عليّ ورثاء الحسين :

... ...

ولا عجب غير قتـل الحسين ظمـآن يقصـى عـن المشرب
فيا أسداً ظـلَّ بين الكلاب تنهشـه دامـي المخلـب
لئـن كان روعنـا فقـده وفاجـأ مـن حيث لم يحسب
وكم قـد بكينـا عليـه دماً بسمر مثقفـة الأكعـب
وبيض صـوارم مصقولة متى يمتحـن وقعهـا تشرب
وكم مـن شعار لنـا باسمـه يجـدد منها عـلى المذنب
وكم مـن سواد حددنا بـه وتطويـل شعر عـلى المنكب
ونـوح عليـه لنا بالصهيـل وصلصلة اللّجـم في منقـب
وذاك قليل لـه مـن بني أبيـه ومنصبـه الأقـرب

فإبن المعتزّ في هذين النموذجين يعتبر أن العباسيين جزوا الأمويين على فعلهم ولولا ذلك لذهب دم الحسين مجاناً وهدراً . ويعتبر في قصيدته الأخرى أن العباسيين لم يبكوا على الحسين بالدموع وإنما بالدماء

تقطر من السيوف التي حطَّمت دولة الأمويين (هل هذا تعريض بأئمة أهل البيت وشيعتهم) وان العباسيين رفعوا الشعارات باسمه ، وأطالوا شعورهم ولبسوا السواد حداداً عليه .

* * *

ومن هؤلاء الشعراء القاسم بن يوسف بن صبيح ، (توفي في أوائل القرن الثالث الهجري) وكان أخوه أحمد بن يوسف بن صبيح من أفاضل كتاب المأمون (توفي سنة ٢١٣ هـ) وعاش أخوه القاسم من بعده) فمما قاله القاسم بن يوسف بن صبيح في رثاء الحسين :

سلِّم على قبر الحسين وقل له	صلى الإله عليك من قبر
وسقاك صوب الغاديات ولا	زالت عليك روائح تسري
يا ابن النبيّ وخير أمّته	بعد النبيّ مقال ذي خبر
أصبحت مغترباً بمختلف	للامسات وواكف القطر
ونأيت عن دار الأحبةواستوطنت دار البُعد والقفر	
بل جنَّة الفردوس تسكنها	جار النبيّ ورهطه الزهر
ماذا تحمّل قاتلوك من	الآصار والأعباء والوزر
خرجوا من الإسلام ضاحية	واستبدلوا بدلاً من الكفر
... ...	... ...
جعلوا سميّة منكم خلفاً	وبني أميَّة حاملي الإصر
قتلوك واتخذوهم ستراً	ما دون علم الله من ستر
فأبادهم سيف الفناء	بأيدي الطالبين بذلك الوتر
يجدون بالمرصاد ربهم	بُعداً لأهل النكث والغدر
أبني سمية أنتم نفرٌ	ولد البغايا غير ما نكر

قلتم عبيـــــد لا نقرّ بـه ونقـــرّ بالعياب والعهـــر
منكـــم بشط الـــزاب مجتـــزر للعاسلات العبس والبســـر
ولكـــم مصارع مثـــل مصرعه ما حـــنَّ ذو وكـــرٍ إلى وكر
وبنـــو أميَّة سومروا تلفـــاً بالمشرفيـــة والقنـــا السمـــر
هشموا بهاشمـــة وحـــاق بهم ما قدّمـــوا مـــن سيّء المكر
ولهـــم ، فلا فوت ولا عَجَـــل أمثالهـــا في غابـــر الدهـــر

... ...

وهذا تصريح بأن العباسيين (الطالبين بذلك الوتر) قد أدركوه ، وقتلوا بني أمية الذين (هشموا بهاشمة) الهاشميين العباسيين .

ربما كان العباسيون وراء محاولة تكوين تيّار رثائي يظهرهم للشيعة رسل الإنتقام الإلهي ، فيكسبون بذلك شعبية عند شيعــة أهل البيت ، يستغلّونها في التخفيف من حدة معارضة العلويين لهم ، هذه المعارضة القاسية الضارية التي ظهرت في وقت مبكّر بعد قيام الدولة العباسية .

وربما يعزّز هذا الرأي أن الشواهد الشعرية التي قدمناها لهذا اللون من الرثاء الحسبني هي لرجلين من رجال النظـــام العباسي .

فعبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد ، أمير كبير من أمراء الأسرة العباسية الحاكمة ، ومن مصلحته ومصلحة أسرته أن ينتشر مذهب شعري في الرثاء الحسيني يتبنّى فكرة أن العباسيين قد حقّقوا الثأر للحسين ، ولا نشكّ لحظة في أنه قـــال ما قال في رثاء الحسين إنطلاقاً من مصلحته الخاصة والعائلية ، وليس انطلاقاً من عاطفة صادقة ، فموقفه العاطفي من الطالبيين عموماً والعلويين بوجه خاص موقف معادٍ مبغض ، وله في ديوانه قصيدة مكوَّنة من أربعين بيتاً يهجو بها الطالبيين والعلويين[1] .

---

(١) تذكر القصيدة في الهامش .

والقاسم بن يوسف بن صبيح من أسرة تعمل في خدمة العباسيين ونظامهم ، فأخوه أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح (توفي سنة : ٢١٣ هـ) وُصِف بأنه من أفاضل كتّاب المأمون . وشاعرنا القاسم تولى للمأمون خراج السواد « فجباه فضلاً مما جباه غيره في أيام المأمون » كما في كتاب « الأوراق » للصولي ، وهي شهادة تعني انه ظلم الناس وعاملهم بالقسوة ، وإن كان قد حسَّن مركزه عند سيّده المأمون .

وربما كانت هذه المحاولة جزءاً من خطة عباسية واسعة النطاق لتقليص حجم العلويين في الذهنية الإسلامية بوجه عام ، وذهنية شيعة أهل البيت بوجه خاص .

فأئمة أهل البيت يستندون ، في ذهنية الأمّة إلى سلوكهم المثالي المبرّأ من العيوب والمآخذ ، وإلى كونهم أبناء رسول الله (ص) ، وإلى تسلسل الإمامة بالنَّص عليهم ، وإلى كونهم مظلومين من قبل الأمويين باعتبار أن الأمويين اغتصبوا السلطة بعد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بحيث لم يتمكَّن الإمام الحسن من الإستمرار بالحكم ، وإلى كونهم مصدراً تشريعياً للأحكام بحكم كونهم ورثة علم الرسول وأئمة المسلمين .

والخطة العباسية كانت تقضي بتجريدهم من هذه الميّزات .

فقد حاول العباسيون باستمرار إهانة أئمة أهل البيت ، وحاولوا تشويه سمعتهم عند الناس دون جدوى ، فقد كان سلوكهم ناصعاً لا مغمز فيه لأحد .

وحاول العباسيون إظهار جهل أئمة أهل البيت بأحكام الشريعة ففشلوا بعدما بذلوا بعض المحاولات مع الإمام الرضا ومع الإمام محمد الجواد ، ومن ثم عدلوا إلى تشجيع نشوء تيارات فقهية أخرى .

وحاول العباسيون تجريدهم من ميزة كونهم أبناء رسول الله بمحاولة سلبية ، هي تركيز أن ابن البنت ليس إبناً ، ومحاولة إيجابية هي تركيز

ان العمّ أقرب إلى الإنسان من ابن بنته ، على اعتبار أنهم أبناء العباس عمّ النبيّ ، ومن ثم فهم أولى بالخلافة من أئمة أهل البيت الحسينيين وأولى من أبناء الحسن بالخلافة التي هي ميراث رسول الله .

وحاول العباسيون تجريدهم من صفة المظلومية ببيان أنهم هم الذين انتقموا وثاروا للحسين وغيره ممن استشهد من الطالبيين أيام بني أميَّة ، ومن ثم فإن الطالبيين والعلويين منهم بوجه خاصّ قد حقَّقوا غايتهم بالثأر الكامل ، فليس لديهم بعد ما يشكون من فقدانه .

إذا كان ثمة خطة كهذه فقد فشلت فشلاً ذريعاً ، ولم تحقّق أيّ هدف من أهدافها على الإطلاق .

وفيما يعود إلى بحثنا فإن محاولة تكوين مذهب في شعر الرثاء الحسيني يتبنّى فكرة أن الثأر حصل بالعباسيين قد فشلت بسرعة .

لقد كان التناقض الأساسي بين طموح العلويين (الحسينيين بوجه خاص) وتمسك العباسيين بالسلطة خليقاً بأن يقضي على أي محاولة تخفّف من حدَّته . لقد فتك العباسيون بالعلويين المعارضين لهم وبشيعة العلويين فتكاً ذريعاً ، وطاردوهم على كل أرض ، وخنقوا نشاطهم بقسوة لا مثيل لها ، وقد أدَّت هذه السياسة إلى جعل العباسيين في الوجدان الشيعي كالأمويين ، بل جعلت صورتهم أقبح وأشدّ نكراً .

ومن ثم فقد نشأ رثاء حسيني حافل بالنقمة على العباسيين أيضاً إلى جانب إدانته للأمويين .

فمن شعراء هذا اللون من الرثاء منصور النميري (١٩٠ أو ١٩٣ هـ) قال :

آل النبي ومن يحبهم   يتطامنون مخافة القتل
أمنوا النصارى واليهود وهم   من أمّة التوحيد في أزل [1]

---

(١) الأزل : الضيق .

قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء « وأنشد الرشيد هذا بعد موته فقال : لقد هممت أن أنبشه ثم أحرقه » .

وقال :

شاء مـن الناس راتـع هامـل ... يعلّلون النفـوس بالباطـل
تقتـل ذرية النـبيّ ويرجـون ... جنان الخلـود للقاتـل
ويلك يا قاتـل الحسين لقد ... بؤت بحمـل ينـوء بالحامل
أيّ حبـاء حبـوت أحمـد في ... حفـرته مـن حرارة الثاكـل
بأيّ وجـه تلقى النـبيّ وقـد ... دخلت في قتله مـع الداخل
هلمَّ فاطلـب غـداً شفاعته ... أو لا ، فرِد حوضـه مع الناهل
ما الشكُّ عندي في كفـر قاتله ... لكنني قـد أشكُّ في الخاذل
نفسي فـداء الحسين حـين غدا ... إلى المنايا غدوّ لا قافـل
ذلـك يوم أنحـى بشفرتـه ... عـلى سنام الإسلام والكاهـل
حتى متى أنت تعجلـين ألا ... تنزل بالقـوم نقمـة العاجل
لا يعجـل الله إن عجلـت وما ... ربّـك عما ترين بالغافـل
أعـاذلي إني أحـب بنـي أحمـدٍ فالـترب في فم العاذل
قـد دنت ما دينكـم عليـه فما ... رجعت مـن دينكم إلى طائل
جفـوتم عـترة النـبيّ وما ... الجـافي لآل النبيّ كالـواصـل
مظلـومة والنـبيّ والدهـا ... تدير أرجـاء مقلـة حافـل
ألا مصاليـت يغضبـون لها ... بسلَّـة البيض والقنـا الذابـل

في هذا الشعر حزن معتدل ، وفيه رؤية دينية واضحة للمسألة الحسينية ، وأخطر ما فيه اعتباره الحكم العباسي استمراراً قانونياً للحكم الأموي الذي قتل الحسين ، ومن ثم فهو يرى أن الثأر من هؤلاء ثأر من أولئك أيضاً ، لأن موقف الأمويين والعباسيين من عترة النبيّ موقف واحد . ولعل هذا هو الذى حمل هارون الرشيد حين سمع قصيدته هذه

على أن يأمر بقتله ، فأدركوه وقد مات وحملت جنازته إلى القبر .

* * *

وقال دعبل بن عليّ الخزاعي (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) :

جاؤا مــن الشام المشومة ، أهلها ... للشوم يقدم جندهــم إبليس
لعنوا وقد لعنوا بقتل إمامهــــم ... تركوه وهو مبضــع مخمــوس
وسَبوا ، فواحزني ، بنات محمد ... عــبرى حواسر ما لهــن لبوس
تبّاً لكــم يا ويلكـم أرضيتـم ... بالنار ؟ ذلَّ هنالك المحبوس
بعتم بدنيا غـيركم جهلاً بكـم ... عــزَّ الحياة وإنــه لنفيســـس
أخزى بها من بيعة أمويـــة ... لعنت وحــظ البائعــين خسيس
بؤساً لمــن بايعتـــم وكأننـــي ... بإمامكم وسط الجحيم حبيس
يا آل أحمــد ما لقيتم بعـــــده ... من عصبــة هم في القياس مجوس
كم عبرة فاضت لكم وتقطّعت ... يوم الطفوف عــلى الحسين نفوس
صـبراً موالينا فسوف نديلكـــم ... يوماً عــلى آل اللعين عبوس
ما زلت متّبعاً لكم ولأمـــركم ... وعليه نفسي ما حييت أسوس

في هذا الشعر يبرز دعبل الحقيقة التالية : إن النظام الفاسد يستخدم الشعب لدعم سلطة رجاله وأجهزته لا لخير الشعب ، إن الحصيلة التي يخرج بها الشعب من الرضا بالنظام الظالم هي أنه يفقد شخصيته ، ويفقد « عز الحياة ، وإنه لنفيس » .

ودعبل يعِد آل أحمد بأنه وقـومـه سوف يديلونهم في يومٍ آت « على آل اللعين » فهو يعِد بالثأر . ولكن ممن الثأر ؟ من الأمويين ؟ لقد ذهب الأمويون إلى غير رجعة ، ودعبل ولد بعد سقوط دولتهم . يبدو لنا أنه كسابقه ، منصور النميري ، يتحدث عن الثأر من الإستمرار

القانوني للأموي المتمثّل في النظام العباسي الذي لم يكن بالنسبة إلى « آل أحمد » خيراً من النظام الأموي ، بل لعلّه كان شرّاً منه في كثير من الأحيان .

* * *

وقال من قصيدة أخرى :

لولا تشاغل نفسي بالأولى سلفوا	من أهل بيت رسول الله لم أقر
وفي مواليك للحزون مشغلة	من أن تبيت لمفقود على أثر
كم من ذراع لهم بالطف بائنة	وعارض من صعيد الترب منعفر
أنسى الحسين ومسراهم لمقتله وهم	يقولون هذا سيّد البشر
يا أمّة السوء ما جازيت أحمد عن	حسن البلاء على التنزيل والسور
خلفتموه على الأبناء حين مضى	خلافة الذئب في أبقار ذي بقر
وليس حيٌّ من الأحياء تعلمه	من ذي يمان ومن بكرٍ ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم	كما تشارك أيسار على جزر
قتلاً وأسراً وتحريقاً ومنهبة	فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أميّة معذورين إن قتلوا	ولا أرى لبني العباس من عذر
أبناء حرب ومروان وأسرتهم	بنو معيط ولاة الحقد والوغر
قوم قتلتم على الإسلام أولهم	حتى إذا استمكنوا جازوا على الكفر
أربع بطوس على قبر الزكيّ بها	إن كنت تربع مِن دين على وطر
قبران في طوس : خير الناس كلهم	وقبر شرّهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي وما	على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات على امرئ رهن بما كسبت	له يداه فخذ ما شئت أو فذر

* * *

ومن هؤلاء الشعراء البسامي - عليّ بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام البغدادي - (توفي سنة : ٣٠٢) قال لما هدم المتوكّل العباسي قبر الحسين بن عليّ :

تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيّها مظلوماً
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرك قبره مهدوماً
أسفوا على ألا يكونوا شايعوا في قتله فتتبّعوه رميماً

* * *

ومن هؤلاء الشعراء القاضي التنوخي - عليّ بن محمد - (توفي سنة : ٣٤٢) قال راداً على قصيدة ابن المعتزّ التي هجا بها الطالبيين والعلويين :

... .

وقلتم : نهضنا ثائرين شعارنا بثارات زيد الخير عند التحارب
فهلا بإبراهيم كان شعاركم فترجع دعواكم لقلة خائب
فكم مثل زيد قد أبادت سيوفكم بلا سبب غير الظنون الكواذب
وما حمل المنصور من أرض يثرب بدور هدى تجلو ظلام الغياهب
وقطعتم بالبغي يوم محمد قرائن أرحام له وقرائب
وفي أرض باخمرى مصابيح قد ثوت متربة الهامات حمر الترائب
وغادر هاديكم بفخٍ طوائفاً يغاديهم بالقاع بقع النواعب
وهارونكم أودى بغير جريرة نجوم تقىً مثل النجوم الثواقب
ومأمونكم سم الرضا بعد بيعة تهدّ ذرى شمّ الجبال الرواسب
فهذا جواب للذي قال : ما لكم غضاباً على الأقدار يا آل طالب

وهكذا تحوّل العباسيون - كالأمويين - في الوجدان الشيعي

إلى رموز للقمع ، لأنهم تابعوا سياسة القتل والإضطهاد ضدّ العلويين وشيعتهم .

ومن هؤلاء الشعراء الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦) قال من قصيدة في رثاء الحسين :

ويا ربّ أدنى من أميّة لحمة ... رمونا عن الرِّنّان رمي الجلامد
طبعنا لهم سيفاً فكنّا لحدّه ... ضرائب عن إيمانهم والسواعد
ألا ليس فعل الأوّلين وإن علا ... على قبح فعل الآخرين بزائد
يريدون أن نرضى وقد منعوا الرضى ... لير بني أعمامنا غير قاصد
كذبتك إن نازعتني الحق ظالماً ... إذا قلت يوماً أنني غير واجد

ـ ٢ ـ

النصف الثاني

لقد تحوّل شعر الرثاء الحسيني ، في النصف الثاني من العصر العباسي وما بعده ، بوجه عام إلى شعر باكٍ خالٍ من التحدي وروح المقاومة وشعارات الثأر . وهذا لا ينفي وجود بعض الأعمال الشعرية النادرة التي تحافظ على روح المدرسة القديمة في العصر الأموي ، ولكنها أعمال تفتقر إلى الصدق والواقعية ، إن تحدياتها مجرد بطولات خيالية منفصلة عن الواقع ، ونجد نماذج كثيرة من هذا اللون في شعر المتأخّرين كالسيد حيدر الحليّ وأمثاله : إن هذا اللون يؤكد القاعدة القائلة بأنه كلما أفلس الواقع وانحطّ نما أدب التعويض الباحث عن بطولات خيالية ، أو الباعث لبطولات ماضية لا علاقة لها بالحاضر المعاش .

وربما يستثنى من هذه القاعدة في هذه الفترة التاريخيّة بالنسبة إلى موضوعنا بعض الأعمال الشعرية للشريف الرضي الذي كان يومئ بها إلى الدولة الفاطمية في مصر باعتبارها ممثلةً ـ بشكل ما ـ للعلويين ،

ومرشحة للأخذ بثاراتهم من الأمويين والعباسيين ، وذلك كقوله :

بني أمية ما الأسياف نائمـــة عن ساهر في أقاصي الأرض موتور
والبارقات تلوى في مغامــدها والسابقات تمطى في المطامير
إني لأرقب يوماً لا خفاء لــه عريان يقلق منه كل مغرور
وللصـــوارم ما شاءت في مضاربها من الرقاب شراب غير منزور

وربما تكون الإشارة في هذه الأبيات إلى المهديّ ، / والمرتضى ٢٧٨/٢

كما إن لديه شعراً من هذا اللون الذي لا يعبّر عن الواقع ، وإن كان يوميء فيه إلى حالة كان يعيشها تمثل تمرداً مخنوقاً على الحكم العباسي الذي كان يعيشـــ في ظله (أدب الطف ٢١٥/٢) .

وكذلك أخوه المرتضى ج٢٧٤/٢ و ٢٧٦ و ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

لقد تحوَّل الشعر الحسيني في هذه الفترة إلى الرثاء الخالص الخالي من روح التحدي وشعارات الثأر ، فإن رموز الثأر المباشرة قد تحطمت بسقوط دولة الأمويين وقتلهم ونبش قبورهم[1].

هذا بالإضافة إلى أن انفصاماً قد حصل داخل الكتلة العلوية ، فقد واصل العلويون الحسنيون النضال ضد العباسيين مشعلين الأرض بالثورات دون جدوى ، جالبين على أنفسهم وشيعتهم الدمار والموت والتشريد ، بينما انتهج أئمة أهل البيت نهجاً آخر هو البناء الثقافي للإنسان المسلم ، وتكوين المناخ الثقافي لمعارضة تقوم على تغيير عقلية القاعدة الشعبية للحكم القائم بالفكر ، وذلك بتحويل الشيعة إلى قوَّة

---

(١) وإن كنا نقع في عصر متأخرجداً عن عصر قيام الدولةالعباسية على ما يشي فإن فكرة الثأر كانت لا تزال صالحة لأن تكون شعاراً يرفع في بعض الحروب التوسعية لاجتذاب ولاء وتأييد بعض الفئات المذهبية . كـــان تيمورلنك قد فتح دمشق تحت شعار الإنتقام للحسين من نسل يزيد بن معاوية ، ويعني بذلك أهل دمشق .

الشيخ محمد جعفر المهاجر : هجرة اللبنانيين (رسالة ماجستير في الآداب من الجامعة اليسوعية في بيروت / ص ٤٨ .

فكرية فاعلة في المجتمع العام[1].

ومن هنا فإن الرثاء الحسيني ـ كالزيارة ـ لم يفقد الحاجة إليه باعتباره عاملاً ثقافياً يساهم مع غيره من العوامل الثقافية في توثيق علاقة الإنسان بالإسلام المكافح ورجاله وحركاتهم ، وإن كان ـ نتيجة لتغير موضوعي على ساحة الواقع السياسي هو زوال الأمـويين ـ قد فقد مبرر أحد عناصره وهو عنصر التحدي والثأر ، ولكن الشعر الرثائي الحسيني لم يهمل ذكر الأمويين في هذه الفترة ، لأنهم زالوا ، كما لن يهمل ذكرهم على الإطلاق في جميع العصور ، بل حافظ على ذكرهم ، ولكن ليس كموضوع للثأر ، وإنما لأجل لعنهم والبراءة منهم ومن نهجهم وأفعالهم ، مضيفاً إليهم العباسيين في هذه المرحلة من مراحل تطوّر الرثاء الحسيني نتيجة لتغيير دخل على نفسية الإنسان الشيعي وظروفه .

* * *

هذا في المشرق العربي ، حيث سلطان الدولة العباسية ، وأمّا في شمال أفريقيا فقد كان الوضع السياسي لهذه المنطقة يختلف .

لقد تأسّست فيها الدولة الفاطمية ، وهي دولة هاشمية علوية ، تجاورها في إسبانيا دولة الأمويين ، وتناصبها العداء في الشرق دولة العباسيين .

---

(١) ولعل إدراك القيادات الثقافية الرسمية في المجتمع الإسلامي آنذاك ، تأثراً منها بالموقف السياسي العام للسلطة السياسية هو الذي كان يدفعها إلى التدقيق في كل نص أدبي لاكتشاف علاقته بموقف أئمة أهل البيت الفكري ، وحين ذاك يقال عن صاحبه أنه شيعي ، ويقال عن الأثر الأدبي أن فيه (رائحة التشيع) أو فيه (تشيع قبيح) وما شابه هذا من التحذيرات التي يراد لها أن تحول بين الإنسان العادي وبين التعامل مع هذا الإتجاه الفكري .

لقد كان ثمة موضوعان للعداء عند الفاطميين : ؛ الأمويون في الأندلس ، المنافسون لهم سياسياً والورثة النسبيون للأمويين في دمشق الذين قتلوا الحسين ، ونكّلوا ببني عليّ ، والعباسيون في بغداد المنافسون لهم سياسياً في مصر وسوريا ، والذين انتهجوا سياسة الأمويين في التنكيل ببني عليّ ، وزادوا عليها .

إن شعر الرثاء وشعر المدح الذي يتضمن الفخر والرثاء الذي كان يزجيه شعراء الفاطميين لسادتهم في المناسبات يختلف في محتواه عن شعر المشارقة الرثائي في هذه الفترة ، فهو يشتمل على روح التهديد والوعيد ، ويرفع شعارات الثأر ، ويذكر الإنتصارات السياسية والعسكرية التي حققها الفاطميون على أنها نصر للدين وثأر من أعدائه قتلة أهل البيت الأمناء على دين الله ، ويعد بالمزيد من الإنتصارات .

إن الممثل البارز لهذا اللون الشعري في هذه الفترة في الدولة الفاطمية هو محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأندلسي (٣٢٠ أو ٣٢٦ هـ ـ ٣٦٢ هـ) .

قال يمدح المعز لدين الله الفاطمي ويذكر ما جرى على الحسين :

... ...

قصاراك ملك الأرض لا ما يرونه ... من الحظ فيها والنصيب المعشم

ولا بد من تلك التي تجمع الورى ... على لاحبٍ يهدي إلى الحق أقوم

فقد سئمت بيض الصبا من جفونها ... وكانت متى تألف سوى إلهام تسأم

وقد غضبت للدين باسط كفِّه ... إليهن في الآفاق كالمتظلّم

وللعرب العرباء ذلّت خدودها ... وللفترة العمياء في الزمن العمي

وللعزّ في مصر يرد سريره ... إلى ناعب بالبين ينعق أسحم

وللملك في بغداد إن رد حكمه ... إلى عضد في غير كفٍّ ومعصم

سوام رتاع بين جهل وحيرة ... وملك مضاع بين ترك وديلم

كان قد كشفت الأمر عن شبهاته ... فلم يضطهد حقٌّ ولم يتهضم
وفاض رماق الفرات ولم يجز ... لوارده طهر بغير تيمّم
فلا حملت فرسان حرب جيادها ... إذا لم تزرهم من كميت وأدهم
ولا عذب الماء القراح لشارب ... وفي الأرض مروانية غير أيم
ألا ان يوماً هاشمياً أظلهم ... يُطيرُ فراش الهام من كل مجثم
كيوم يزيد والسبايا طريدة ... على كل موار الملاط عثمثم
وقد غصت البيداء بالعيس فوقها ... كرائم أبناء النبيّ المكرم
فما في حريم بعدها من تحرج ... ولا هتك ستر بعدها بمحرم
فإن يتخرم خير سبطي محمد ... فإن وليّ الثأر لم يتخرم[1]
ألا سائلوا عنه البتول فتخبروا ... أكانت له أمّاً وكان لها ابنم
وأولى بلوم من أميَّة كلها ... وإن جَلَّ أمر عن ملام ولوم
أناس هم الداء الدفين الذي سرى ... إلى رمم بالطف منكم وأعظم
وهم قدحوا تلك الزناد التي روت ... ولو لم تشبّ النار لم تتضرم

... ...

وفي البيت الأخير وما يليه يثير ابن هاني قضية تاريخية على جانب كبير من الخطورة ، وإن كانت النصوص لا تسعف دعواه ، وهي أن العباس ساعد أبا بكر على تولي السلطة بعد الرسول ، وصرف الأمر عن عليّ بن أبي طالب .

وقال يمدح المعز لدين الله الفاطمى :

... ...

(١) يلاحظ أنه عبر عن الحسين بأنه « خير سبطي محمد » ، والظاهر أن ذلك ناشئ من كون الحسين يصلح ـ لأنه ثائر فعلا ـ لأن يكون موضوعاً شعرياً مناسباً لخدمة الأهداف السياسية للفاطميين ضد الأمويين والعباسيين ، ولأن أبناء الحسين المعاصرين لم تكن لهم مطامح سياسية بارزة . بينما الإمام الحسن ، لأنه لم يكن ثائراً فعلاً ـ لا يصلح لأن يكون موضوعا شعريا مناسباً للغايات السياسية الفعلية . هذا بالإضافة إلى أن الحسنيين كانوا يقومون بالثورات في سبيل الحكم ومن ثم فدعمهم معنوياً لا يناسب الفاطميين الذين يريدون الحكم لأنفسهم .

هــذا معد والخــلائق كلهـــا   هــذا المعــز متــوجاً والدين

...   .

ووراء حق أبــن الرســول ضراغم   أسد وشهبـاء الســـلاح منون

...   .

وأذن لــه يفــرق أميَّـة معلنـــاً   ما كــل مأذون له مأذون

واعــذر أمية أن تغص بريقهـــا   فالمهــل ما سقيتــه والغسلـين

ألقت بأيدي الذل ملقى عمرهـــا   بالثوب إذ فغرت له صفــين

قــد قاد أمــرهم وقلد ثغــرهم   منهــم مهين لا يكاد يبيــن

لنحكمنــك أو تـزايل معصمـــاً   كــف ويشخب بالدماء وتين

...   .

كذبت رجال ما ادَّعت من حقِّكم   ومــن المقال كأهلــه مأفون

ابني لــؤي أين فضــل قديمكــم   بل أين حلم كالجبال رصين

نازعتم حــق الــوصي ودونـــــه   حــرم وحجر مانع وحجـون

...   .

وهكذا يمضي في نقد الأمويين والعباسيين ...

وقال يمدح المعز ويذكر فتح مصر :

تقول بنو العباس هل فتحت مصـر   فقل لبني العباس قد قضي الأمر

...   .

وذا ابن نبــي الله يطلب وتـــره   وكان حريٌّ ألا يضيع له وتر

...   .

أطيعــوا إمامـــاً للأئمة فاضلاً   كما كانت الأعمال يفضلها البر

ردوا ساقيـاً لا تنزفــون حيـاضـه   جموحاً كما لا ينزف الأبحر الـدر

فـإن تتبعــوه فهو مولاكــم الــذي   لــه برسول الله دونكــم الفخــر

وإلا فبعـــداً للبعــــد فبينـــه   وبينكـــم مـا لا يقــرّ بــه الدهــر

أفي ابن أبي السبطين أم في طليقكم تنزلت الآيات والسور الغر
أسرتم قروناً بالعراق أعزة فقد فك من أعناقهم ذلك الأسر

ألا تلكم الأرض العريضة أصبحت وما لبني العباس في عرضها فِتْرٌ
فقد دالت الدنيا لآل محمد وقد جررت أذيالها الدولة البكر
وردَّ حقوق الطالبيين من زكت صنائعه في آله وزكا الذخر
معز الهدى والدين والرحم التي به اتصلت أسبابها وله الشكر

وهكذا يمضي ابن هاني في شعره يرفع للفاطميين شعارات الثأر وشعارات النصر على الأمويين والعباسيين في شمال أفريقيا ومصر ، في الوقت الذي خَفَتَ فيه هذا الصوت في أراضي الخلافة الشرقية ، وفقد الرثاء الحسيني والشعر المقول في أهل البيت بوجه عام هذا العنصر من بين عناصره المكونة له .

ومن هؤلاء الشعراء الفاطميين الأمير تميم بن الخليفة المعز لدين الله (ت/٣٧٤ هـ) قال من قصيدة في رثاء الحسين :

وإن لم أعاد عبد شمس عليكم فلا اتسعت بي ما حييت بلاد
وأطلبهم حتى يروحوا وما لهم على الأرض من طول القرار مهاد

ونترك هذا الشعر الفاطمي لنعود إلى شعر الرثاء الحسيني في مواطنه العريقة ، فنعود إلى ملاحظة انه تحول بعد سقوط الأمويين إلى شعر باكٍ خالٍ من التحدي لهم ، وروح الثأر منهم ، ولكنه لم يتحول إلى اليأس ، لقد بقي بنبض بالأمل بأن يوم الثأر الكبير آتٍ .

إن فكرة الثأر المباشر أخلت مكانها ـ بعد سقوط الأمويين لفكرة الثأر بالمهديّ ، الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً غدت أحد العناصر البارزة في شعر الرثاء الحسيني في القرن الثاني وما بعده إلى أيامنا هذه . فالمهدي هو الذي سيثأر للحسين ولجميع المظلومين من جميع ظالميهم : أمويين وعباسيين

وغيرهم ، وسيكون عقابه رهيباً يوازي بشاعة الجرائم التي ارتكبها الظالمون .

وقد حفظت عقيدة المهديّ التماسك النفسي لدى الإنسان الشيعي ، فإنه لم ييأس ، ولم يتحطَّم نفسياً نتيجة لاكتشافه أن العباسيين ليسوا ـ بالنسبة إلى العلويين وشيعتهم ـ إلا نسخة هاشمية من الأمويين ، بل لقد تبيَّن أنهم شرّ من الأمويين ، ولذا نجد أن العباسيين ، ومن بعدهم ، اعتبروا ـ في الوجدان الشعبي ـ استمراراً قانونياً للأمويين ، وقد اشتملت نصوص كثيرة من الزيارات على مقاطع تتضمَّن لعن الأمويين والبراءة منهم وممن تابعهم وشايعهم ومضى على سنَّتهم .

لقد كانت طبيعة الأشياء تقضي بأن يذوب الإنسان الشيعي ويتحطَّم نتيجةلقسوة الواقع ومرارته ، ولكن عوامل كثيرة ، تشريعية وعقيدية ، من جملتها العقيدة بالمهديّ ، حفظت تماسكه النفسي ، وغذَّته بالأمل في الفرج الآتي .

لقد جاءت العقيدة بالمهديّ ملاذاً نفسياً وعقيدياً أنقذ الإنسان الشيعي من اليأس من نصر دنيوي ، هذا اليأس الذي يبدو انه كاد أن ينشر ظلّه ، في هذا الوقت المبكِّر ـ على نفسية قطاعٍ ما في الشيعة ، فقد عبَّر ديك الجن (١٦١ ـ ٢٣٥) أو ٢٣٦ هـ) عن أمله في أن ينال الظالمون جزاءهم في الآخرة ، قال من قصيدة في رثاء الحسين :

يا نفس لا تسأمي ولا تضيقي وأرسي على الخطب رسوة الهضب

صوني شعاع الضمير واستشعري الصبر وحسن العزاء واحتسبي

فالخلق في الأرض يعجلون ومولاكِ على تؤد ومرتقب

لا بدَّ أن يحشر القتيل وأن يُسأل ذوو قتله عن السبب

فالويل والنار والثبور لمن قد أسلموه للجمر واللهب

* * *

وكل نفس لحينهـا سبـــب يسري إليها كهينــه اللعب
والناس بالغيب يـرجمون ومـا خلتهم يرجمون عن كثب
وفي غـدٍ فاعلمـي لقاءهـم فإنهم يرقبـون فـارتقـب

هذه الروحية المهزومة دنيوياً ، المستسلمة للطغيان ، الآملة بالتغيير والإنتقام في الآخرة سنجدها شيئاً شائعاً في الشعر الرثائي في عصر متأخر عن هذا العصر . ولكن يبدو ، بقرينة أن هذه الفكرة لم يعبّر عنها ـ فيما نعلم ـ في نصوص آخرى ، ان اليأس قد أخلى مكانه للأمل الكبير بنصر دنيوي كبير على يد الإمام المهدي .

إن القـرن الثالـث (هـ) شهد بداية نمّو هذه الفكرة ، فكرة المهديّ ، في شعر الرثاء الحسيني ، وصرورته عنصراً أساسياً في هذا الشعر على مدى العصور التالية . ومن أوائل الشعراء الذين ظهرت هذه الفكرة في شعرهم دعبل الخزاعي (١٤٨ ـ ٢٤٦ هـ) ، قال من قصيدة في رثاء أهل البيت ومدحهم :

... ...

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غدٍ تقطع نفسي إثرهم حسرات
خروج إمام لا محالة خـارج يقوم عـلى اسم الله والـبركات
يميّز فينا كـل حـقٍ وباطل ويجزي عن النعماء والنقمـات
فيا نفس طيبي ثم يا نفس ابشري فغير بعيد كل ما هو آت
ولا تجـزعي من مدة الجـور إنني أرى قوتي وقد آذنت بثبات
فإن قرب الرحمان من تلك مـدتي وأخّر من عمري ووقت وفاتي
شفيت ولم أترك لنفسي غصَّـة ورويت منهم غضّتي وقناتـي

والقاسم بن يوسف الكاتب (توفي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري) ، قال من قصيدة في رثاء الحسين :

... ...

إني لأرجو أن تنالهم — مني يدٌ تشفي جوى الصدر
بالقائم المهدي إن عاجلاً — أو آجلاً إن مدَّ في العمر
أو ينقضي من دونه أجَلي — فالله أولى فيه بالعذر
ولكل عبد غيب نيّته — في الخير مسطور وفي الشرّ

وعلي بن إسحاق الزاهي (٣١٨ ـ ٣٥٢ هـ) قال في أهل البيت :

وأعيننا تجري دموعاً عليهم — لما كابروا تلك الملوك الجبابرا
وسوف يديل الله من كل ظالم — بقائم عدل يعلن الحق ظاهرا

وعليّ بن حماد العبدي (توفي في أواخر القرن الرابع الهجري) قال من قصيدة في رثاء الحسين مخاطباً المهديّ :

فيا غائباً في حظيرة القدس حاضراً — ويا ناظراً من حيث ندري ولا ندري
متى ينجز الوعد الذي قد وعدته — وتأتي به الأوقات من زاهر العصر
حقيق على الرحمان إنجاز وعده — وتبليغه حتى نرى راية النصر
قيام إمام لا محالة قائم — يقيم عماد الدين بالبيض والسمر
يقوم بحكم العدل والقسط والهدى — يؤازره عيسى ويشفع بالخضر
لعلّ ابن حماد يجرّد سيفه — ويقتصّ من أعداء سادته الغرّ
فإن قصرت كفي بيومي فإنني — سأقتلهم باللعن في محكم الشعر

ومهيار الديلمي (توفي سنة : ٤٢٨) قال من قصيدة :

عسى الدهر يشفي غداً من عِداك قلب مغيظ بهم مكمد
عسى سطوة الحق تعلو المحال — عسى يغلب النقص بالسؤدد
وقد فعل الله لكنني — أرى كبدي بعد لم تبرد
بنسمعي لقائمكم دعوة — يلبي لها كل مستنجد

فمهيار هنا يرى أن الإنتقام قد حلَّ بالأمويين على يد العباسيين ولكنه انتقام غير كافٍ فهو ينتظر الإنتقام الكبير على يد المهديّ .

والسيد المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) ج٢ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

وقد استمرَّ التعبير عن الأمل بالنصر على يد المهدي عنصراً ثابتاً في شعر الرثاء الحسيني إلى العصر الحديث .
(نذكر بعض الأمثلة من القرون الأخيرة ومن القرن الرابع عشر الهجري)

* * *

ولكن عنصراً آخر دخل في الشعر الرثائي إلى جانب فكرة الثأر بالمهديّ . فمنذ منتصف القرن الرابع الهجـري بدأت تظهر في الشعر الرثائي فكرة أن الثأر لن يكون دنيوياً ، ـ وإنما سيكون في الآخرة ، واقتصر دور الشاعر على تعداد الفضائل ، وتصوير الفاجعة ، والتقرّب إلى الله بالشعر الرثائي رجاء الحصول على الثواب ودخول الجنَّة .

ولعلَّ أبا فراس الحمداني (٣٢٠ ـ ٣٥٧) أول من ظهرت في شعره هذه الفكرة في تباشيرها الأولى ثم تأصّلت في الشعر الرثائي فيما بعد وهـذا أمـر يثير الإنتباه ، فإن شخصية أبا فراس ونفسيَّته ، ومركزه في السلطة وتشيعه والموقع الجغرافي للدولة الحمدانية بين العباسيين والفاطميين كل ذلك كان يقضي بأن يكون للإنتقام والثأر عنده طابع دنيوي وشخصي . فهل يـدلّ ظهور فكرة للإنتقام الأخروي في شعره على ان قضية أهل البيت في عهده بدأت تفقد فاعليتها السياسية في الحياة العامة في المنطقة وتغدوموضوعاً تاريخيّاً تبركياً فقط ، كما حدث فيما بعد.

يقول أبو فراس من قصيدة في رثاء الحسين :

... ...

يـومٌ بعين الله كـان دائمـاً ... يمـلي لِظلم الظالمـين اللّـهُ
تبّاً لقـومٍ تابعـوا أهواءهـم ... فيما يسوؤهـم غـداً عقبـاهُ
أظننتـم أنّ تقتلـوا أولاده ... ويُظلّكُم يـوم المعاد لـواهُ

أو تشربـوا من حوضـه بيمينـه كأساً وقد شـرب الحسين دماه

ومن الشعراء الذين ظهرت هذه الفكرة في رثائهم أبو الحسن عليّ ابن أحمد الجرجاني الجوهري (توفي في حدود ٣٨٠ هـ) يقول من قصيدة في رثاء الحسين (ع) :

واخجلتا من أبيهم يوم يشهدهم مُضرَّجين نشاوى من دمٍ قانِ
يقول يا أمة حفَّ الضلال بهـا فاستبدلت للعمى كفراً بإيمانِ
قتلتم لولـدي صبراً على ظمـأ هذا وترجون يوم الحوض احساني
يا رب خذ لي منهم إذ هُمُ ظلموا كرام رهطي وراموا هدم بنياني
ماذا تجيبون والزهـراء خصمكم والحاكم الله للمظلوم والراني

ومن الشعراء الذين ظهرت هذه الفكرة في شعرهم وتكررت في أكثر من قصيدة واحدة الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥) قال من قصيدة :

سوف تأتي الزهراء تلتمس الحكم إذا حان محشر التعديـل
وأبـوها وبعلها وبنـوها حولها والخصام غـير قليل
وتُنادي يا رب ذبـح أولادي لماذا ؟ وأنت خـير مديـل
فينادي بمـالـك ألهب النار وأجج وخذ بأهل الفلـول
ويجازى كل بمـا كـان منـه من عقاب التخليـد والتنكيـل

وقال من أخرى :

يا شيعة الهادين لا تتأسفـي وثقي بحبـل الله لا تتعجـلي
فغداً ترون الناصبـين ودارهـم قعر الجحيم من الطباق الأسفل
وتنعمون مع النبـي وآلـه في جنة الفردوس أكرم موئل

وقال من أخرى :

رفقاً ففي يوم القيامـة غنيـة والنار باطشة بسوط عقـاب
ومحمـد ووصيـه وابنـاه قد نهضوا بحكم القادر الغلاب

فهناك عضّ الظالمـــون أكفهـــم والنار تلقاهم بغير حجـــاب

وقال من أخرى :

لو رأى أحمـــــد مـــا كـــان دهاه ودهاها
ورأى زينـب وَلهـيَ ورأى شمراً سباهـا
لشكا الحال إلى الله وقـــد كان شكـاهـا
وإلى الله سيــــأتي وهو أولى مـــن جزاها

ومن هؤلاء الشعراء عليّ بن حماد العبدي البصري (ولد في أوائل القرن الرابع الهجري وتوفي في أواخره ، يقول من قصيدة) :

سيعلم أعداء الحسين ورهطـــه إذا ما هـــم يـــوم المعاد أُعيدوا
وأقبلت الزهراء فاطم حـــولها ملائكـــة الرب الجليـــل جنود
وفي يدها ثـــوب الحسين مُضَمَّخٌ دماً ودَجٌ يجـري به ووريـد
فتبكي لها الأملاك كلاًّ وعنـــدها ينادي منادي الحق أين يزيد
فيؤتى به سحباً ويؤتى بقـــــومه وأوجههم بين الخلائـــق سود
فيأمر ذو العرش المجيد بقتلهـــم فإن قتلوا من بعد ذاك أُعيدوا
وتقتلهم أبناء فاطم كلهـــــم وشيعتهـــم والعالمـــين شهـــود
ويحشرهم ربي إلى ناره الـــتي يكـــون بها للظالمـــين خلـــود
إذا نضجت فيها هناك جلودهـــم أعيدت لهم من بعد ذاك جلود

ومن هؤلاء الشعراء الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦) قال من قصيدة :

أيـــن عنكم للـــذي يبغي بكـــم مع رسول الله فوزا ونجـــا
يوم يغدو وجهـــه عـــن معشـــر معرضاً ممتنعـــاً عند اللقـــــا
شاكيـــاً منهـــم إلى الله وهـــــل يفلح الجيـــل الذي منهم شكـا
رب ما آووا ولا حامـــوا ولا نصـــروا أهـــلي ولا أغنـــوا غِنا
بدّلـــوا ديني ونالـــوا أســـرتي بالعظيمات ولم يـــرعوا الولا

... ...

رب اني اليــوم خصم لهـــم   جئت مظلوماً وذا يوم اللقــا

ومن هؤلاء الشعراء السيد الشريف المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦) قال من قصيدة في رثاء الحسين (ع) :

حلأتم بالطــف قــوماً عــن المـــــاء فَحُلِئتم به عــن الكوثرا
فإن لَقـــوا ثمَّ بكم منكــــراً   فسوف تلقون بهـــم منكـــراً
في ساعة يحكـــم في أمـــرها   جَدُّهـــم العـــدل كما أمـّـرا

ومن هؤلاء الشعـــراء معين الدين يحيى بن سلامة الحصفكي (٤٦٠ ـ ٥٥٣ هـ) :

ومصـــرع الطـــف فلا أذكـــره   ففي الحشى منـــه لهيـــب يقِد
يرى الفرات ابن الرسول ظـــامئاً   يلقى الردا وابـــن الدعي يرد
حسبك يا هـــذا وحسب من بغى   عليهم يوم المعاد الصمـــــــد

وهكذا غدت فكرة الإنتقام الإلهي من الظالمين في الآخرة إلى جانب فكرة الإنتقام من الظالمين بالمهدي عنصرين ثابتين في شعر الرثاء الحسيني .

ونلاحظ مدى ما أصاب نفسية الإنسان مــن تغيــر إذا قارّنا بين هذا الموقف الإنتقامي وبين الموقف القديم الذي يهدد بالإنتقام المباشر ، وحين يهدد بالإنتقام الإلهي فإنه يجعل له أداة دنيوية منظورة وموجودة ، كما يعبّر عن ذلك قول خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد :

ابنـي أميَّة هـــل علمتم اننـــي   أحصيت ما بالطَّف مـــن قبر
حسب الإله عليكـــم غضبـــاً   أبناء جيش الفتـــح أو بـــدر

وقد دخلت بعد ذلك في شعر الرثاء الحسيني أفكار أخر ، إحداها فكرة الخلاص برثاء الحسين ، فالشاعر ينظم ويختم قصيدته بالتوسل إلى أهل البيت والحسين بأن يكونوا شفعاءه عند الله تعالى في

القيامة ، وكثيراً ما يذكر اسمه في القصيدة ، وكأنه يحملها توقيعه ، وهذا ظاهر جداً في شعر الرثاء منذ القرن التاسع الهجري . والفكرة الأخرى هي الزهد وذم الدنيا ، وهذه الفكرة تظهر بشكل محدود جداً منذ القرن الرابع الهجري ، ولكنها تختفي لتعود إلى الظهور بقوّة في القرن العاشر الهجري . والفكرة الثالثة التي بدأت تظهر في شعر الرثاء الحسيني هي فكرة الجبر ، وأن الله قدّر ما حدث ، ولولا ذلك لما حدث ما حدث .

إن دخول هذه الأفكار في المحتوى الشعري الرثائي يؤشر إلى حدوث تغيّرات في نفسية الإنسان الشيعي وفي واقع حياته وجهة تفكيره على هذا النحو ، وعبّر الشعراء عن هذه التغيّرات بصورة غير مباشرة عن طريق الشعر الرثائي .

فمن ناحية أساسية لم تعد قضية كربلاء ، بما هي قضية سياسية ، لتؤثر في الحياة السياسية اليومية للناس ، فقد انقطعت الصلة بين الناس وبين الصراع السياسي حول هذه القضية ، وقد تخلّى الطامحون إلى السلطة عن استعمال شعارات كربلائية في حروبهم ونزاعاتهم تعيد إلى الواقعة قدرتها على التأثير السياسي في الذهنية العامّة .

ولم يعد ثمة في الواقع السياسي القائم رمز تتوجّه إليه عاطفة الإنتقام فكل الفرقاء السياسيين على ساحة العمل السياسي في العالم الإسلامي يتعاطفون وجدانياً مع القضية الحسينية ، ويعترفون بعدالتها ، ولكن باعتبارها شيئاً حدث في التاريخ لا باعتبار أنها تعني شيئاً للحاضر ، بل كان التشيّع ـ بشكل أو بآخر ـ قد اجتاح الرقعة الإسلامية كلها تقريباً ، فالعباسيون فقدوا سلطانهم حين طبّق نظام إمرة الأمراء في دولة الخلافة ، وغدا الحكام الفعليون في بغداد شيعة أو يتظاهرون بالتشيّع ، والحاكمون في مصر شيعة فاطميون .

وفي هذا الوقت بدأت عوامل التفسخ الداخلي في العالم الإسلامي تعمل عملها المدمر في تمزيق الكيانات السياسية الكبرى فيه ، ثم في تجزئة الكيانات السياسية الصغرى أيضاً ، وتدفع بالفئات الدينية والسياسية والعنصرية والإقليمية نحو حروب أهلية كانت تجر وراءها الخراب والبؤس والدمار للناس والإستياء في المدن والأرياف .

وقد رافق هذا الوضع السياسي نمّو الحركة الصوفية على اختلاف إتجاهاتها ومنابعها بحيث غدت قوّة ثقافية كبرى في مقابل الفقهاء وفي مقابل القوى الثقافية الأخرى: الأدب . العلوم . والفلسفة . لقد أصبح التصوف هو المعين الثقافي ـ الديني الذي ينهل منه الإنسان العادي .

لقد عانى الإنسان المسلم من التشريد عن وطنه وأرضه ، ومن الإستبداد به وهدر كرامته ، ومن استلابه رزقه وقوته . ومن شعور دائم بالخوف على النفس والعرض والكرامة ، وعانى من المجاعات . والأوبئة الفاتكة التي كانت تحصد الألوف من الناس ، ومن عمليات الإجتياح العسكرية للمدن والأرياف التي كانت تخلف ورائها الخراب والبؤس .

وقد تكونت لدى الإنسان المسلم نتيجة لهذا الواقع نظرة متشائمة ، حذرة ، خائفة من المستقبل ، فيها القليل من الأمل إن بقي ثمة أمل .

وقد كوَّن هذا الواقع أرضية صالحة لتقبل أفكار وتوجيهات التصوف المرضي الذي يركّز على فكرة الموت والفناء والشر في العالم والفساد في النفس ، ويحرض على هجر النشاط الدنيوي ، ويدفع نحو فكرة للزهد غير إسلامية ، الزهد السلبي من الحياة ، ومن النشاط الدنيوي .

قلنا أن هذه الفكرة عن الزهد غير إسلامية ، فإن الزهد الإسلامي كما ورد في الكتاب والسنة . وممارسات الممثلين الكبار للإسلام في التشريع والسلوك ، هو زهد إيجابي يعتنق فكرة العمل الإنتاجي والمواقف

الإيجابية الفاعلة مع التماسك النفسي والعقلي إزاء الكوارث والمصائب بحيث لا تستغرق الدنيا نشاط الإنسان ولا تملك عليه أقطار تفكيره (يلاحظ دراسات ...) .

لقد انعكس هذا الواقع النفسي لدى الإنسان المسلم على حياته ، ولوّن جميع إنتاجه الثقافي ، ومن جملة ذلك شعر الرثاء الحسيني الذي احتوى هذه النظرة المستسلمة اليائسة من أي تغيير .

نتيجة لهذا انقطع الشعر الحسيني عن واقع الأمّة ، وأخذ الشاعر يتحدث عن الفاجعة كتاريخ ، ويتحدث عن المناقب ، ويقارن بين الأمويين والعباسيين من جهة ، وبين العلويين من جهة أخرى ، ويعبر عن عواطفه الحزينة الباكية .

لقد غدت ثورة الحسين قضية عاطفية ــ دينية ، تمارَس كطقس من الطقوس وليس كمعاناة حقيقية في الواقع اليومي للإنسان في علاقته بالسلطة والمجتمع .

ومن العناصر الفكرية الجديدة التي دخلت في شعر الرثاء الحسيني نتيجة للواقع النفسي لدى الإنسان :

١ ــ ذم الدنيا ، والخوف من تقلُّباتها وهو من آثار الزهد الصوفي المرضي

٢ ــ اعتبار أن رثاء الحسين سبيل الخلاص في الآخرة .

٣ ــ وسنجد في منتصف القرن الثالث بدايات التعبير عن فكرة قدرية في الشعر الرثائي ، حيث يعبر الشاعر عن أن ما حدث ما كان ليحدث لولا قدر الله تعالى ، وربما وجدنا بعض الأفكار التنجيمية .

* * *

بالنسبة إلى الفكرة الأولى نجد التعبير عنها تارة بصورة مباشرة ، وأخرى بصورة غير مباشرة تبين للباحث في الجوّ العام الذي يعبّر عنه الرثاء .

فمن شواهد التعبير المباشر قول أحمد بن محمد بن الحسن الصنوبري (توفي سنة : ٣٣٤ هـ) من قصيدة :

عجبي والخطوب تبرح فينا وتسنح
لطلابي لراحة العيش والموت أروح
قل لباغي ربحٍ إذا ظل يمدح
مدح آل النبيّ يا باغي الربح أربح

ومن شواهد ذلك قول الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ـ٣٨٥هـ) :

... وانبرت تبغي حسيناً وغزته وغزاها
وهي دنيا ليس تصفو لابن دين مشرعاها

ومن شواهد ذلك قول عليّ بن حماد العبدي (توفي في أواخر القرن الرابع) :

...والدهر أحسد شيء للقريبين يرمي وصالها بالبعد والبين
لا تأمن الدهر إن الدهر ذو غير وذو لسانين في الدنيا ووجهين
أخنى على عترة الهادي فشتتهم فما ترى جامعاً منهم بشخصين
كأنما الدهر آلى أن يبيدهم كعاتب ذي عناد أو كذي دين

ومن شواهد ذلك قول الشريف الرضي (٣٥٩ـ٤٠٦ هـ) :

راحل أنت والليالي نزول ومضر بك البقاء الطويل
لا شجاع يبقى فيعتنق البيض ولا آمل ولا مأمول
غاية الناس في الزمان فناءٌ وكذا غاية الغصون الذبول
إنما المرء للمنية مخبوء وللطعن تستجم الخيول
من مقيل بين الضلوع إلى طول عناء وفي التراب مُقيل
فهو كالغيم ألفته جنوب يوم دجناء مزقته قبول

عادة للأمان في كـل يـوم يتنـائى خـل وتبكي طلـول
فالليالـي عـون عليك مع البين كما ساعـد الذوابـل طـول
ربمـا وافـق الفتى مـن زمـان فـرح غيره به متبـول
هـي دنيـا إن واصلـت ذا جفت ذا ملالاً كأنهـا عطبول
كل باكٍ يبكـي عليـه وإن طال بقاء والثاكـل المثكـول
والأماني حسـرة وعنـاء للذي ظـن أنهـا تعليـل
ما يبالي الحمـام أيـن تـرقى بعدما غالت ابن فاطـم غـول

ومن شواهد ذلك قول الوزير عبد المجيبني عبدون (توفي : ٥٢٠) :

الدهـر يفجـع بعد العـين بالأثر فما البكاء عـلى الأشباح والصور
أنهاكِ أنهاكَ لا آلـوك موعظة عن نومـة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبـدى مسالمة والبيض والسود مثل البيض والسمـر
ولا هوادة بين الرأس تأخـذه يد الضراب وبين الصارم الذكر
ولا تغرّنـك من دنياك نومتها فما صناعـة عينيها سوى السهر
وما الليالي أقال الله عثرتنـا من الليالي ، وخانتنا يـد الغير
في كل حـين لنا في كل جارحة منا جراح وإن زاغت عن البصر
تسر بالشيء لكـن كي تعزبـه كالأيم نار إلى الجاني من الزهر
كم دولة قد مضت والنصر يخدمها لم تبق منها رسل ذكراك من خبر
وروّعت كـل مأمـون ومؤتمـن وأسلمت كل منصور وتنصر

وهكذا نما هذا الإتجاه في الشعر الرثائي ، ونجده يزيد بروزاً في القرون التالية .

وقد يقال ان هذا اللون طبيعي في شعر الرثاء نجده في جميع العصور وعند جميع الناس ، فالموت يثير في الذهن الأسئلة الكبرى حول الوجود والمصير ، وهذه الأسئلة تكوّن ذهنية خاصة في رؤية الأحداث .
ولكننا نقول في جواب ذلك إن ثمة فرقاً واضحاً بين الموقف العقلي

الذي يطرأ نتيجة لصدمات الحياة وكوارثها ؛ وبين الموقف الفلسفي الثابت الذي ينشأ عن وضعية عقلية ونفسية تطبع سلوك الإنسان ونظرته إلى الأحداث بطابعها ، وهذا هوالذي نشاهده في شعر الرثاء الحسيني في هذه الفترة ، وشعراء الرثاء الحسيني في تمثيلهم لهذه النظرة وتعبيرهم عنها يعبرون عن رؤية محيطهم وعصرهم ، لأن هذه النظرة ـ كما قلنا ـ طبعت كل الإنتاج الثقافي الفني لإنسان ذلك العصر كما طبعت سلوك جماعات كبرى من الناس .

نعم نعترف ان حجم التعبير عن هذه الروحية الزهدية في الشعر الرثائي الحسيني أقل مما كنا نتوقع أن نجده ، وهذا في رأينا يعود إلى سببين ، أحدهما عام والآخر خاص .

السبب العام يعود إلى الموقف الشيعي من التصوف بوجه عام ، فإن الموقف الشيعي نتيجة لجهود الفقهاء من التصوف ، كان أقل تأثراً بحركات الصوفية واتجاهاتهم ، ومن ثم فقد بقي تأثرهم محدوداً ، (يلاحظ العلاقة بين التشيع والتصوف) كانت للشيعة بلا شك طرقهم الصوفية ، كما كان لهم تأثُّرهم بالجوّ الصوفي الإسلامي العام ، ونشأ عندهم أدب صوفي غزير ، ولكن الإنسان الشيعي كان أقل تأثُّراً بالصوفية لأنه كان أكثر التصاقاً بالفقهاء .

السبب الخاص يعود إلى طبيعة المأساة الحسينية ، فإن قوَّة الحضور الأموي في الوجدان الشيعي باعتباره السبب المباشر وغير المباشر لكل ما أصاب أهل البيت في كربلاء وقبلها وبعدها من مصائب وآلام هذا الحضور القوي للأمويين جعل الإنسان الشيعي لا يرى حين يستعرض المأساة إلا أسبابها الموضوعية المنظورة ، ولا يبحث في الغيب عن أسباب ، إنه حين يفعل ذلك يكون قد التمس للأمويين أعذاراً محققة ، وهو لا يرغب نفسياً وعاطفياً في ذلك ، إنه يميل إلى أن يحملهم وزرهم

كاملاً دون أن يجد لهم أية أعذار في عالم الغيب أو في عالم الشهادة

* * *

أما فكرة ان رثاء الحسين سبيل الخلاص في الآخره ، فنجدها في وقت مبكّر جداً في شعر الرثاء الحسيني ، في أوائل القرن الثاني ، عند شاعر واحد هو سفيان بن مصعب العبدي الكوفي توفي في حدود سنة ١٢٠ في الكوفة) ، فقد قال في إحدى قصائده في أهل البيت مخاطباً أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام

صحبت حبك والتقوى وقد كثرت ... لي الصحاب فكانا خير مصطحب
فإستجل من خاطر العبدي آنسة ... طابت ولو جاوزت إياك لم تطب
جاءت تمايل في ثوبي حيا وهوى ... إليك حالية في الفضل والأدب
أتعبت نفسي في مدحك عارفة ... بأن راحتها في ذلك التعب

نثبت هذا النص على شكّنا في صدق نسبته إلى القرن الأول الهجري لشكنا في شيوع هذا الأسلوب في إهداء القصائد إلى الممدوحين ، وهو ما لم يعرف إلا في وقت متأخر جداً عن هذا التاريخ ــ أقول نثبت هذا النص لنقول أنه على تقدير صحته يعتبر أول نص فيما نعلم يتضمن هذا اللون من الإهداء . وهذا الشك يقوم على الشك في استعمال هذا الأسلوب في الإهداء كما قلنا سيما وان هذه الأبيات منسوبة أيضاً لإبن حماد العبدي (المتوفي في أواخر القرن الرابع) وأما من حيث أصل الفكرة ، فإن هذه الفكرة ، الخلاص بالمدح أو بالرثاء ، لها أساس عقيدي في السنّة النبوية التي وردت فيها نصوص تجعل من حب أهل البيت وموالاتهم وأتباعهم من الأسباب الكبرى لرضوان الله تعالى ، طبعاً إلى جانب الإلتزام بأحكام الشريعة (تذكر كلمة الإمام الصادق في أن شيعتنا من ... الخ .

ونلاحظ ان العبدي لم يحصر الخلاص هنا بالحب والمدح ، وإنما قرن إليه العمل أيضاً ، فكان أميناً للشريعة ، فهو يقول :

صحبت حبك والتقوى وقد كثرت لي الصحاب فكانا خير مصطحب

ثم تختفي هذه الفكرة من الشعر الرثائي ، فلا نجد تعبيراً عنها إلى بدايات القرن الرابع الهجري حيث نجدها وقد غدت سمة شائعة في قصائد المدح والرثاء الحسيني عند شعراء الشيعة ، ولكننا نجدها في صورة أخرى هي اعتبار الكلمات وحدها ، أو اعتبار الحب وحده سبيلاً إلى النجاة في الآخرة ، وقلما نجد الشاعر يعبر عن عنايته بالشريعة في هذا المجال . .

من ممثلي هذه الفكرة في شعرهم أحمد بن محمد بن الحسن الصنوبري (توفي سنة : ٣٣٤ هـ) :

وشعره يمثل هذه الفكرة مع الإلتزام بالشريعة :

آل بيت النبي مالي عنكم تزحزح

أفلح السالكون في ظل هداكم وانجحوا

أنا في ذاك لا سوى ذاك أسعى وأكدح

فعسى الله عن ذنوبي يعفو ويصفح

ومن ممثلي هذه الفكرة كشاجم (توفي سنة : ٣٥٠ أو ٣٦٠) :

أخيرة ربي من الخيرين وصفوة ربي من الأصفياء

طهرتم فكنتم مديح المديح وكان سواكم هجاء الهجاء

قضيت بحبكم ما علي إذا ما دعيت لفصل القضاء

وأيقنت أن ذنوبي به تساقط عني سقوط الهباء

فصلى عليكم إله الورى صلاة توازي نجوم السماء

ومن هؤلاء الزاهي (٣١٨ ـ ٣٥٢ هـ) :

وإنا لنرجو الله بالحزن والبكا لهم أن يحط السيئات الكبائرا

ويرزقنا فيهم شفاعة جدهم فإنا اتخذناها لتلك ذخائرا

ومن هؤلاء الصاحب بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ) :

حتى إذا خطّ المشيب بعـارضي خط الإنابة رمتها بتبتُّـل
وجعلت تكفير الذنوب مدائحي في سادة آل النبـي المرسل
في سادة حـازوا المفاخر قادة وَرَقوا الفخار بمقول وبمنصل
... ...
ما شاقها لما أقمـت وزانهـا إن لم تكن للأعشبين وجرول
رام ابـن عبـاد بهـا قربـى إلى ساداته فأتت بحُسن مُكْمِـل

وقال :

أحمد الله كثيراً عز ذو العرش إلٰهاً
ثم ساداتي فإن القـول يلقى في ذراهـا
أيها الكوفي أنشد هذه واحلل حباهـا
وابن عباد أبوها وإليه منتمـاهـا
طلب الجنة فيها لم يـرد مالاً وجاها

ومن هؤلاء ابن حماد العبدي (أواخر القرن الرابع) وهو أكثر من رأينا من شعراء الرثاء الحسيني استعمالاً لهذا الأسلوب في الإهداء وتعبيراً عن فكرة الخلاص بالحب والمدح من خلاله ، قال :

ما لابن حماد العبدي من عمل إلاّ تمسّكـه بالميم والعـين
فالميـم غاية آمالي محمـدها والعـين أعني علياً قرة العين
صلى الإلٰـه عليهم كلما طلعت شمس وما غربت عند العشاءين

ويقول في ختام إحدى قصائده :

تقبلها ربـي ووفي ثوابهـا وثقل ميزاني بخـيراتها وزناً

وقال :

أحبهـم وأمنحهم مديحاً وأوسع مـن يجانبهم سبـابـا
ولـم أمنحهـم قـط اكتساباً ولكنـي مدحتهم ارتغـابا

ولـن يرجو ابن حمـــاد عليّ بحسن مديحهـم إلا الثوابـا

ومن هؤلاء مهيار الديلمي (ت ـ ٤٢٨) :

لكم مـن ثنائي ما ساعـد العمـر فمنه الإبطـاء والإعجـال
وعليكم في الحشر رجحان ميزاني بخـير لو يحصر المثقـال
ويقيـني أن سوف تصـدق آمالي بكم يوم تكذب الآمال

وقال :

وكم حاسد لي ود لو لم يعش ولم أنابله في تأبينكم وأسايـف
تصرفت في مدحكـم فتركته يعضُّ عليَّ الكف عض الصوارف
هواكم هو الدنيا وأعلم أنـه يبيِّض يوم الحشر سود الصحائف

ومن هؤلاء طلائع بن زريك (ت ٥٥٦) :

أسادتنا إن لم يعنكم لدى الوغى سناني فإني باللسان أعـين
أسادتنا أهديت جهدي إليكـم لتطهر نفسي فالضنين ضنـين
سطور بأبيات من الذكر سطرت تـبرهن عن أوصافكم وتبـين
أوقى بها مثواكم جـاد ربعـه حيا المزن عن لحظ العـدى وأصون
وأرجو بها ستراً من النار عندما يقيني غداً إن الشكوك يقـين
فجودوا عليها بالتقبل منكـم فودِّي وإخـلاصي بذاك ضمين
وجدُّكم سنَّ الهـدايا وإنـني لما سنَّ قدماً في بنيه أديـن

ومن هؤلاء ابن جبر (٤٢٠ ـ ٤٨٧ هـ) :

إن تبكهم في اليوم تلقاهم غداً عيني بوجه مسفر ضحـاك
يا رب فاجعل حبهم لي جنَّـة من موبقات الظلم والإشراك
واجـبر بها الجبري رب وبـره من ظالم لدمائهم سفـاك
وبهم ـ إذا أعـداء آل محمـد غلقت رهونهم ـ فجد بفكاك

وقد استمر شعراء الرثاء الحسيني في التعبير عن هذه الفكرة ،

بهذا الأسلوب إلى العصر الحديث حيث أخذ الشعر الرثائي أشكالاً أخرى ومضامين أخرى سندرسها فيما يأتي :

ما هي الخلفية النفسية لهذا الموقف الشعري ؟

إن الإنسان الشيعي منذ القرن الرابع فقد صلته الحركية برموزه العقيدية ، وشأنه في ذلك شأن الإنسان المسلم بوجه عام ، لقد فقد المسلم صلته الحركية برموزه العقيدية ، -وسيطرت عليه أفكار التشاؤم والسلبية ، وفقد العمل في وعيه قوته الخالصة المغيرة ، وساد على العقل الإسلامي الشعبي الإتجاه الصوفي والنظرة السحرية إلى الأشياء ، فغدت الكلمات . وفي أحسن الحالات العواطف والنوايا الطيبة هي التي يتوهم المسلم أنها قادرة على تغيير الواقع .

وقد ظهرت لهذا الواقع النفسي والحضاري آثار في التشريع (العناية الكبرى بشكليات العبادة والممارسات العبادية) المسائل الإفتراضية في الفقه /النذور الكثيرة المولد قراءة بعض النصوص استجلاباً للنصر في الحروب .

وقد زاد بؤس الإنسان الشيعي – نتيجة لانتمائه المذهبي – بسبب انه لم يعد يواجه في كثير من مراحل تاريخه في هذه الفترة العداء الرسمي فحسب لموقفه العقيدي ، وإنما أخذ يواجه عداءاً شعبياً عندما أفلح بعض غلاة المتكلمين والفقهاء من أهل السنَّة في آن يقدموا الإنسان الشيعي إلى عامتهم على أنه خارج عن الإسلام ، ولعلَّ نموّ التشيع الفارسي وأخذه طابعاً سياسياً بتأسيس الدولة الصفوية قد ساعد على نموّ الكراهية للشيعة خارج سلطان الدولة الصفوية .



مقاصد
شعر الرّثاء الحسينيّ

يتّحد شعر الرثاء الحسيني مع شعر الرثاء بوجه عام في كثير من المقاصد المشتركة التي لا بدّ ان تتوفّر في شعر الرثاء ، ويختلف الرثاء الحسيني عن سائر الشعر الرثائي بكونه ينفرد ببعض المقاصد الناشئة عن خصوصية الموضوع .

ويأتي شعر الرثاء الحسيني من حيث استقلاله أو تضمنه في غيره على أنحاء .

فتارة يأتي مستقلاً ، فينشئ الشاعر قصيدة مخصصة لرثاء الحسين وشهداء كربلاء ، وأكثر شعر الرثاء الحسيني على هذا النحو .

وتارةً يأتي جزءاً من رثاء عام لأهل البيت .

وتارة يأتي الرثاء في سياق هجاء الأمويين .

وتارة يأتي في سياق مدح بعض الملوك والأمراء كما هو الشأن في بعض مدائح محمد بن هاني الأندلسي (٣٢٠ او ٣٢٦ ـ ٣٦٢ هـ) في المعزّ لدين الله الفاطمي ، وبعض مدائح القاضي الجليس عبد العزيز إبن الحسين (توفي : ٥٦١ هـ) في الملك الصالح طلائع بن رزيك .

ومن حيث المخاطب بالرثاء يأتي شعر الرثاء الحسيني على أنحاء :

فتارة يكون مخاطبة للنفس وحديثاً مع الذات . وتارة يكون الخطاب فيه لرسول الله (ص) وعرضاً لأحداث الثورة وملابساتها وغير ذلك من المقاصد . وتارة يكون الخطاب فيه للإمام الثاني عشر المهديّ المنتظَر (ع) وتارة يكون الخطاب فيه لأمير المؤمنين عليّ أو للسيدة فاطمة الزهراء . وتارة يكون الخطاب للأمة الإسلامية . وتارة يكون الخطاب

للأمويين . وتارة يكون الخطاب للهاشميين . وقد تشتمل القصيدة الواحدة على ألوان من الخطابات .

ونعرض فيما يلي مقاصد شعر الرثاء الحسيني بإيجاز ، دون أن نلتزم بذكر الشواهد الشعرية على كل مقصد ، لأن ذلك تطويل بلا طائل ، ومن أراد الشواهد وجدها بسهولة .

* * *

١ ـ الحزن البشري .

المفروض في شعر الرثاء أنه أنشئ للتعبير عن عاطفة الحزن واللوعة لفقد العزيز ، ولذا فإن التعبير عن الحزن البشري مقصد مشترك في شعر الرثاء بوجه عام . ولكن التعبير عن الحزن البشري أحد المقاصد في شعر الرثاء ، فإن الرثاء يشتمل على عدة مقاصد منها التعبير عن الحزن .

وثمة صنف من الرثاء هو ما اصطلح على تسميته بـ « الندب » مخصص للتعبير عن عاطفة الحزن وحدها ، وهو كثير في شعر الرثاء الحسيني قديماً وحديثاً ، ويتلى بأسلوب النوح ، وربما رافقه حركة جسدية كاللطم مثلاً ، ومن أمثلة ذلك ما ينسب إلى السيدة الرباب زوجة الإمام الحسين :

واحسيناً فلا نسيت حسيناً　　أقصدته أسنة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعاً　　لا سقى الله جانبي كربلاء

ومنه ما رواه المفيد في الأمالي من أن ذرة النائحة رأت في منامها السيدة الزهراء (ع) واقفة على قبر الحسين تبكي وأمرتها أن تنوح بهذه الأبيات (وقيل انها لبعض الشعراء الكوفيين) :

أيها العينان فيضا　　واستهلا لا تفيضا
وابكيا بالطف ميتاً　　ترك الصدر رضيضا

لم أمرضه فأسلـــو   لا ولا كان مريضـاً

* * *

ونلاحظ هنا أن من شعر الرثاء الحسيني ما ليس مخصصاً للتعبير عن الحزن كما هو الشأن في سائر شعر الرثاء ، بل هو خالٍ من أي تعبير عن الحزن ، إنه ما نصطلح عليه بـ « شعر الرثاء الحسيني التكريمي أو الفضائلي » فلا يعبّر الشاعر فيه عن حزنه ولوعته ، وإنما يعبّر عن فضائل الحسين وآل البيت مقابلةً بمثالب أعدائهم ، ويغلب على هذا اللون من الشعر الضعف الفني ، ويشبه شعر المتون في خلّوه من أيّ جمالٍ

* * *

٢ ـ **حزن الطبيعة .**

هذا إمتداد للحزن البشري ، فكثيراً ما يحدث أن يجعل الشاعر الطبيعة شريكة له في أحزانه ، أو يرى أن المصاب الجلل ليس كارثة بشرية ، وإنما هو كارثة كونية ، ولذا فإن الطبيعة المادية قد اقشعرت للمصاب الفادح الذي حلّ بالحسين وآله وأصحابه ، فيرى الشاعر الحزن في الأرض والسماء والجبال والبحار ، ويستنطقها ، وتشاركه الحوار حول الفاجعة . وإذا رأى انها لا تزال على حالها فإنه يدهش ويتعجّب لأن الجبال لم تتصدع ، ولأن الأرض لم تخسف بأهلها ، ولأن البحار لم تغر فـي الأرض ، ولأن النجوم لم تتساقط رجوماً على المجرمين .

من ذلك قول سليمان بن قتة (توفي : ١٢٦ هـ) :

مررت عـلى أبيات آل محمـدٍ   فلم أرها أمثالهـا يـوم حلَّت

ألم تر أن الشمس أضحت مريضة   لقتل حسين والبلاد اقشعرَّت

إلى آخر الأبيات .

وقول الإمام الشافعي محمد بن إدريس (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ) من قصيدة.

تزلـــزلت الدنيـــا لآل محمـــد　　وكادت لهم صمّ الجبال تذوب
وغارت نجوم واقشعرت كواكب　　وهتك أستار وشـــق جيوب

... إلى آخر الأبيات ...

وقول الأمير أبي فراس الحمداني (٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ) من قصيدة :

يوم عليه تغيّــرت شمس الضحى　　وبكت دمــاً مما ورأته سماه

وبعض الشعراء جعل الطبيعة الحيوانية كالطبيعة المادية ، فيرى الشاعر الحيوانات في فلواتها وغاباتها حزينة وآسفة ، وربما باكية .

* * *

٣ ـ حزن الملائكة والجن :

ومن مظاهر الحزن الكونية على الحسين ما صوَّره الشعر الرثائي من حزن االملائكة والجن ، فمن ذلك قول الصنوبري (توفي : ٣٣٤ هـ) :

الجن والإنس والملائكـــة الكـــرام تبكـــي بـلا محاشاة
عـــلى خضيب الأطـــراف من دمه يا هـــول أطرافه الخضيبات

* * *

٤ ـ فضائل أهل البيت :

أ ـ الفضائل الذاتية :

يعرض شعراء الرثاء كرم أهل البيت ، وإيثارهم على أنفسهم ، وعلمهم بالشريعة ، وحلمهم وعفوهم عن ظالميهم والمعتدين عليهم ، وشجاعتهم وفروسيتهم . وقد يشير الشاعر عند عرضه لمظاهر فضيلة

الشجاعة إلى أن شجاعة الحسين وآله وصحبه كانت كفيلة بأن تحطّم جيش العدو لولا أن قدراً من الله حال دون ذلك .

وهذا المقصد ، الفضائل الذاتية ، بالإضافة إلى سائر الفضائل الأخرى ، من أكثر المقاصد وروداً في شعر الرثاء الحسيني .

ب ـ الفضائل الدينية :

يعرض الشاعر في هذا المقصد تكريم الله لهم في القرآن ، علمهم بالشريعة ، كونهم خلفاء رسول الله حقاً ، نصّ الغدير والنصوص الأخرى ، حديث الثقلَين وما يناسبه ، ظلمهم بصرف الخلافة عنهم . وما إلى ذلك . وهذا المقصد أيضاً كثير الورود في الشعر الرثائي .

ج ـ فضيلة النسب :

كونهم أبناء رسول الله (ص) .

لقد ألحَّ شيعة أهل البيت على هذه الخصوصية الفريدة التي يتمتّع بها أئمّة أهل البيت بكل ما تستلزمه من قداسة واحترام وحقوق في الوراثة .

وقد جعلها شعراء أهل البيت مقصداً أساساً في كل شعرهم الذي قالوه مدحاً أو رثاءً . إدراكاً منهم بأن القرابة النسبية كانت ـ كما لا تزال ـ ذات أثر كبير في إعطاء قوّة معنوية للقريب ، وخاصة في المجتمع الإسلامي القديم .

وقد استخدمت حجة القرابة في السقيفة ضد طموح الأنصار إلى خلافة رسول الله (ص) بعد وفاته في الصراع السياسي الذي دار بين قريش والأنصار حول من له الحقّ بالخلافة بعد رسول الله ، فقد قال قائل قريش :

« من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته »[1]

وقد علّق الإمام عليّ بن أبي طالب بمرارة على ما جرى في سقيفة بني ساعدة بأن القرشيين إذا احتجّوا بأنهم أقرب من الأنصار إلى رسول الله فهم أحقّ بخلافته ، فأولى بهم أن يسلّموا الأمر إلى بني هاشم الذين هم أقرب إلى رسول الله من سائر قريش .(٢) .

وقد كانت هذه الفضيلة النسبية تشكل ـ لدى الرأي العام ـ حجّة قوية تدعم مطالبة شيعة أهل البيت بتسليم الحكم إلى أئمتهم ، ولذا فقد كانت أحد المشاغل الفكرية السياسية الفقهية الأساسية للنظام الأموي ، ثم من بعده للنظام العباسي .

ويبدو أن الأمويين لجؤوا في المنطقة السورية إلى إيجاد انطباعٍ عامٍّ لدى الناس بأنه لا توجد للنبي قرابة غيرهم . يدل على ذلك كلمة وفد من أهل الشام حلفوا لأبي العباس السفاح ، بعد سقوط النظام الأموي ، بأنهم لم يعلموا بأن للنبيّ قرابة غير بني أميّة ..

وربما استعان الأمويون على بلوغ هذا الهدف بالقصّاص الذي استخدموهم بكثرة ، وبحرصهم على اتّباع سياسة عزل السوريين عن تلقي أي تأثير ثقافي سوري أو عراقي .

أما في خارج المنطقة السورية فقد بذل النظام الأموي ، ومن بعده النظام العباسي ، جهوداً من نوع آخر إنها جهود ثقافية ، ذات طبيعة فقهية ـ نسبية ، فقد ركّز النظامان على ان ابن البنت ليس إبناً ، ومن ثم فإن الحسن والحسين والأئمة من أبناء الحسين ليسوا أبناء رسول الله ، ومن مظاهر هذه المحاولة في العهد الأموي محاورة عاصفة بين الحجاج الثقفي ويحيى بن يعمر العدواني البصري (توفي سنة : ١٢٨ هـ) أنكر فيها الحجاج أن يكون الحسنان ابنيّ رسول الله وطالب بدليل على ذلك من كتاب الله تعالى . وقد قدم يحيى بن يعمر دليلاً قرآنياً على أن ابن البنت ابن وذلك حين عدَّ الله تعالى عيسى عليه السلام

من ذرية إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : « **ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى ...** » الآية[1]. وما بين عيسى وإبراهيم أكثر مما بين الحسن والحسين ومحمد (ص)[2].

وقد كان العباسيون عاجزين عن تمويه حقيقة الفضيلة النسبية للعلويين ، فقد قامت دولتهم في العراق وإيران حيث كان لأهل البيت نفوذ لا يبارى ، وكان العباسيون في الوقت نفسه يشعرون بفداحة الخطر الذي تشكله هذه الفضيلة النسبية للعلويين إذا لاحظنا أن بني الحسن لم يتوقّفوا عن السعي لكل سبيل إلى إثارة المتاعب في وجه العباسيين لذا فقد ركّزوا جهودهم على إبطال دعوى العلويين بأنهم أقرب إلى رسول الله فهم لذلك أحق من العباسيين بالخلافة ، وذلك بإثارة مسألة ابن البنت والعمّ وأبناء العمّ ، فأبناء البنت ليسوا أبناءاً ولا حقّ لهم في الميراث ، أما العم فأقرب من ابن البنت وأحقّ بميراثه من أبناء البنت ومن ابن العم أيضاً ، وهكذا يوضع عليّ بن أبي طالب وذريته خارج الشرعية لأن النبيّ (ص) توفي وعمّه العباس حيّ .

وقد أُعطيت المسألة بُعداً فقهياً .

وأوعز العباسيون إلى شاعرهم مروان بن أبي حفصة ، وكان ناصبياً مبغضاً لآل البيت ، بأن يدخل هذه المسألة في شعره ، فقال قصيدته التي فيها :

أنى يكون وليس ذاك بكائـــن ... لبني البنات وراثة الاعمـــام

(١) سورة الأنعام (الآية ٨٤ ـ ٨٥)

(٢) عبد الله بن أسعد اليافعي التميمي ـ مراة الجنا ن وعبرة اليقظان ، الطبعة دائرة المعارف بحيدرآباد ا الدكن سنة ١٣٣٧هـ (أوفست) ج١ ص : ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

وقد غدت هذه المسألة موضوعاً شعرياً « ساخناً » إذا صحّ التعبير .
وأثار ذلك عاصفة من الردود عليه من قِبَل شعراء الشيعة ، فعيروا بني العباس بأمهم « نثلة » ليظهروا مدى الفرق بينها وبين أم العلويين السيدة فاطمة الزهراء ، وأثاروا مسألة إسلام العباس وكونه من الطلقاء ، لأنه بقي مع مشركي مكة إلى حين فتح مكة .

فممن رد عليه أبو عبد الله ، جعفر بن عفان الطائي (توفي في حدود : ١٥٠ هـ) قال :

لِمَ لا يكون ، وإن ذاك لكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله ... والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وإنما ... صلى الطليق مخافة الصمصام

وروى الصدوق في « عيون أخبار الرضا » أنه دخل جماعة على الإمام الرضا فرأوه متغيّراً فسألوه عن ذلك ، فقال :
بتُّ ليلتي ساهراً متفكّراً في قول مروان بن أبي حفصة ، وذكر البيت المتقدم ، قال : ثم نمت فإذا أنا بقائل قد أخذ بعضادة الباب ، وهو يقول :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... للمشركين دعائم الإسلام
لبني البنات نصيبهم من جدهم ... والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وإنما ... سجد الطليق مخافة الصمصام
قد كان أخبرك القرآن بفضله ... فمضى القضاء به من الحكام
إن ابن فاطمة المنوّه باسمه ... حاز الوراثة عن بني الأعمام
وبقي ابن نثلة واقفاً متردداً ... يبكي ويسعده ذوو الأرحام

ويبدو أن العباسيين غالوا في اتجاههم إلى تشوية سمعة العلويين ، وامتهان فضيلتهم النسبية وغيرها ففتحوا عليهم باب الهجاء ، وهو أمر لم يحدث في الإسلام قط ، وكان السابق إلى ذلك أميراً عباسياً

هو عبد الله بن المعتز (٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ) [١] وتابعه على ذلك من العباسيين بعد ما يقرب من قرن محمد بن عبد الله العباسي المعروف بابن سكرة في القرن الرابع الهجري ، ولا بد أن غير هذين قد مارس هجاء العلويين بتوجيه ورغبة من العباسيين ، ولكن هذا الهجاء قوبل بعاصفة من ردّ شعراء الشيعة على هذا الهجاء بشعر فيه هجاء للعباسيين وبيان فضائل أهل البيت .

فممن ردَّ على إبن المعتز القاضي التنوخي (توفي سنة : ٣٤٢) وتميم بن معد الفاطمي (توفي سنة : ٣٧٤ هـ) وصفيّ الدين الحليّ (٦٧٧ ـ ٧٥٢ هـ) ويبدو أن شعراء الشيعة لم يجرؤا على جواب ابن المعتز في أيام سطوة بني العباس وقوّة سلطانهم ، فإن هذه الردود التي وصلت إلينا متأخرة كثيراً عن زمان ابن المعتز ، إذ أن أقدمها للقاضي التنوخي المتوفي بعد ابن المعتز بنحو نصف قرن .

وقد ردّ الشاعر الشيعي الحسين بن الحجّاج (توفي : ٣٩١ هـ) على ابن سكرة العباسي .

* * *

قد أفضنا في الحديث عن مسألة القرابة النسبية لنفسر إلحاح شعراء الشيعة في رثائهم ومدحهم لأهل البيت عليها إذ ان هذه العلاقة تعرّضت لجهود الأمويين والعباسيين الرامية إلى التقليل من أهميتها ، أو إلغاء تلك الأهمية وسلبها دلالاتها الفضائلية ومغزاها الفقهي والسياسي ،

(١) وصف ابن المعتز بأنه (أنصب الأمة) في قطعة شعرية قيلت بمناسبة فشله في الإحتفاظ بالسلطة ضد المقتدر بعد أن بويع بالخلافة سنة ٢٩٦هـ ـ الكامل : ١٧/٨ ـ وعلق ابن الأثير (١٨/٨) على بيعه ابن المعتز بان عجائب هذه البيعة ، ان ابن حمدان (الحسين) على شدة تشيعه وميله إلى علي عليه السلام وأهل بيته يسعى في البيعة لابن المعتز على انحرافه عن علي وغلوه في النصب .

فاتجه شعراء الشيعة إلى جعلها حقيقة ثابتة في الوعي العام للأمّة بجعل كل محاولة ضدها محكومة بالفشل ، وقد وُفِّقوا في ذلك إلى أبعد الحدود .

* * *

٥ ـ العنصر البشري من أعداء الثورة :

يتردّد في شعر الرثاء الحسيني كثيراً ذكر جماعات من الناس ، أو افراد لهم أدوار في الثورة ، وفي مقدماتها وأحداثها ونتائجها .

أ ـ المسلمون :

إذا ذكر المسلمون في شعر الرثاء الحسيني في معرض اللوم والذم فالمراد بهم أنصار النظام الأموي والموالون لهم ، وهؤلاء يذكرون باعتبارهم خوَنَة لعقيدتهم وواجبهم الشرعي ، فهم عصاة لله تعالى ، ويذكرون باعتبارهم متخاذلين عن نصرة ما يعتقدونه حقاً إيثاراً للدنيا وزينتها . ويذكرون باعتبارهم لم يفوا لرسول الله (ص) ولم يحفظوه في ذريته ، فيدينهم الشاعر تارة إدانة قانونية باعتبارهم خالفوا واجبهم الشرعي ، ويدينهم تارة أخرى إدانة أخلاقية باعتبارهم خانوا ولم يكونوا أمناء ولا أوفياء . (نص نموذجي : جعفر بن عفان /١/١٩٢) .

ب ـ أهل الكوفة ، أهل العراق :

يذكرون باعتبارهم أكثر المسلمين مسؤولية عما حدث ، فهم كتبوا إلى الحسين يدعونه ويعدونه النصر ، وهم نكثوا بعهودهم ، وهم لم يقتصروا على النكث والخذلان ، بل ان بعضهم ، وكثيراً من زعمائهم وقفوا إلى جانب الأمويين الظالمين بالرغم من أن رسائلهم ساهمت في قدوم الحسين إليهم ؛ من ذلك قول طلايع بن رزّيك :

عذرت هناك وما عرفت مضر العراق ولا ربيعة

لمـــا دعتـــه أجابهـــا ودعـا فـا كانت سميعـة
شـاع النفـاق بكـــربلا فيهم وقالـوا نحن شيعـة
هيهـات سـاء صنيعهـــم لهـا وما عـرفـوا الصنيعـة

ج ـ بنو أمية :

يذكرون باعتبارهم المجرمين الحقيقيين المباشرين ، وعلى رأسهم معاوية ، وابنه يزيد ؛ وتذكر مصائب أهل البيت الأخرى التي حدثت في العهد الأموي ويحمل الأمويون وزرها .

د ـ رجال ونساء :

تذكر هند أم معاوية ، وسمية أم عبيد الله بن زياد في نساء أُخريات يشتم بهن الأمويون وأنصارهم ، ويذكر زياد بن أبيه ، وابنه عبيد الله ، وعمر بن سعد ، وشمر بن ذي الجوشن ، باعتبارهم ـ إلى جانب يزيد بن معاوية ـ أبرز المجرمين في كربلاء .

* * *

٦ ـ العنصر النسوي ، والأطفال :

تذكر نساء أهل البيت .

تذكر السيدة الزهراء عليها السلام ثاكلةً معزاة بالحسين وتخبر بأحداث الفاجعة .

وتذكر السيدة زينب : حالاتها في السفر وحالاتها في كربلاء ، وحوارها مع الحسين والعباس أو بني أخيها علي الأكبر وزين العابدين ، أو مع أختها أم كلثوم ، أو بنت أخيها سكينة . وتذكر حالاتها أثناء السبي ، وخطابها مع الشمر وعمر بن سعد وابن زياد ويزيد بن معاوية ، أو مع الجنود الأمويين بوجه عام .

وتذكر السيدة سكينة بنت الحسين في مشاهد مع أبيها الإمام

الحسين قبل مصرعه ، وفي مشهد مؤثر بعد مصرعه في ساحة المعركة ، وفي حوار لها مع الشمر .

وتذكر السيدة الرباب زوجة الإمام الحسين بمناسبة ذكر ولدها عليّ الأكبر .

وتذكر العنصر النسوي في الشعر الرثائي ليس باعتباره مقصوداً لذاته ، بل باعتباره من عناصر الإثارة العاطفية .

أما حين يذكر باعتباره مقصوداً لذاته فيذكر كجماعة وليس كأفراد ، وذلك عند ذكر إهانة الأمويين أو الكوفيين ، أو المسلمين « لبنات رسول الله » . وتنال بعض مشاهد الواقعة في هذه الحالة تركيزاً خاصّاً مثل إحراق الخِيَم وهرب النساء والأطفال من النار ، أو سلب الجنود الأمويين لمعسكر الحسين ولأهله ، أو السبي ومشهد إركاب النساء والأطفال على النوق الهزيلة دون أقتاب ، أو على مشهد الرؤوس المرفوعة على الرماح بين السبايا .

* * *

٧ ـ الأطفال والشبان :

أما الأطفال فقلما يذكرون في الشعر باعتبارهم مقصداً مستقلاً ، وأقل من ذلك أن يذكر بعض الأطفال بأسمائهم ، إلا الطفل عبد الله الرضيع الذي ذبح في حجر أبيه الإمام الحسين بسهمٍ رميَ به ، وأما من عداه من الأطفال فلا يذكرون إلا نادراً ، مثل قول الناشئ الصغير أبو الحسن عليّ بن عبد الله بن الوصيف (٢٧١ ـ ٣٦٥ هـ) :

وفاطمة الصغيرة بعد عزٍّ ... كساها الحزن أثواب الذليل
تنادي جدّها يا جدّ إنّا ... طلبنا بعد فقد بالذحول

ويذكر الشبان قليلاً بذكر من قتل من شبان الهاشميين ، ويبرز الشعراء الجوانب المؤثرة فيهم : جمالهم ، شجاعتهم ، عطشهم ، وإنكارهم لذواتهم .

وأكثر هؤلاء ذكراً : العباس بن عليّ ، وعليّ الأكبر بن الحسين ، والقاسم بن الحسن .

* * *

٨ ـ قصة المعركة :

يعرض الشعراء قصة المعركة التي جرت في كربلاء بإجمال غالباً ، وفي بعض الحالات بتفصيل كبير . وفي شعر المتأخّرين يورد بعض شعراء الرثاء القصة بشكل حوار يحكيه الشاعر : « قال : ـ قالوا ـ قال فلان ـ قالت فلانة ـ » أو بشكل خطاب إلى رسول الله « يا جد ... »

ويذكر بعض الشعراء الأحداث فحسب دون أن يذكر أسبابها البعيدة ، والبعض الآخر يشير إلى العلاقات السببية بين واقعة كربلاء وبين مسألة الخلافة ، ويرى أن الخطأ القديم الذي حصل بصرف الخلافة عن عليّ قد كوّن جملة من المواقف أدَّت إلى النهاية الفاجعة في كربلاء .

٩ ـ الماء والعطش :

العطش مقصد أساس من مقاصد شعر الرثاء الحسيني ، وقد عبّر عنه الشعراء بأساليب شتّى ، وصوّروا ألم العطش عند الحسين ، وعند النساء والأطفال وسائر الرجال ، ووجهوا إلى نهر الفرات الذي حرم آل البيت من مائه شتى عبارات اللوم : « بعداً لمائك يا فرات » وما يشبه هذا التعبير . .

ومن أمثلة الماء والعطش قول الصنوبري (توفي : ٣٣٤) :

ذيد حسين عن الفرات فيا بلية أثمرت بليات
لم يستطع شربه وقد شربت من دمه المرهفات شربات
مالك ما غرت يا فرات ولم تسق الخبيثين والخبيثات
كم فاطميين منك قد فطموا من غير جرم وفاطميات

١٠ ـ كربلاء ، الطف ، القبور :

يرد ذكر كربلاء ، أو الطف في كل قصيدة رثائية . ويقترن اسم كربلاء في الرثاء بالكرب والبلاء ، ويردد الشعراء هذا المعنى كثيراً .

ويبدو أن كربلاء في الشعر الرثائي القديم كانت موضوعاً للذمّ وللدعاء عليها لأنها شهدت مصارع آل البيت ، ونعرف مورداً واحداً اشتمل على الدعاء منسوب إلى السيدة الرباب زوجة الإمام :

واحسيناً فلا نسيت حسيناً أقصَدته أسنَّة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعاً لا سقى اللّه جانبي كربلاء

ولكن هذا لم يستمر طويلاً فيما يبدو . لقد أعيد الإعتبار إلى كربلاء ، وربما كان ذلك بسبب الأحاديث التي حدث بها أهل البيت أصحابهم عن أن كربلاء أرض مباركة ومقدسة . لقد غدت كربلاء في الشعر الرثائي أرضاً حبيبة لأنها ضمَّت رفات الأحبة المقدَّسين . وقد دأب شعراء الرثاء على أن يتحدثوا عنها بحزن وحبّ .

إنها في الشعر تنال الدعاء لها بالبركات الإلهية ، وبالسقيا . إنها لا تزال في بعض الشعر موطناً للكرب والبلاء ولكنه كرب حلَّ وانتهى أمره ، وبلاء نزل وتحمّله أهله وغدت الآن موطن الأحبة ، ومجال الذكريات الحزينة ، ومرابع البطولة الأسطورية ، ومهبط ملائكة الله ، وموطن البركات الإلهيّة لمن تشرَّف بزيارتها .

قال منصور النميري : (١٩٠ ـ أو : ١٩٣ هـ) :

ألم يبلغك والأنباء تنمى مصال الدهر في ولد البتول
بتربة كربلاء لهم ديار نيام الأهل دارسة الطلول
تحيات ومغفرة وروح على تلك المحلة والحلول
ولا زالت معادن كل غيث من الوسمي مرتجى هطول

وقال الصنوبري : (توفي سنة : ٣٣٤) :

حيّ ولا تسأم التحيات وناج ما اسطعت من مناجاة
حيّ دياراً أضحت معالمها بالطفّ معلومة العلامات
وقل لها يا ديار آل رسول الله يا معدن الرسالات
وقل عليك السلام ماانبرت الشمس أو البدر للبريات

... ...

عُجت بأبياتهم أسائلها فعجت منها بخير أبيات
على قبور زكية ضمنت لحودها أعظماً زكيات
أذكى نسيماً لمن ينسمها من زهرات الربى الزكيات
واصلها الغيث بالغدوِّ ولا صَارَمها الغيثُ بالعشيات

وقال :

يا حادي الركب انخ ياحادي ما غير وادي الطف لي بواد
يقتادُني شوقي إلى الطف فكن مشاركي في شوقي المقاد
لله أرض الطف أرضاً إنها أرض الهدى المعبود فيها الهادي
أرض يحارُ الطرف في حايرها لها مدى فالنور منه بادي
حي الحيا الطف وحيا أهله من رائح من الحيا أوغاد
حتى ترى أنواره موشية تزهى على موشية الابراد

وقال محمود بن الحسين (كشاجم) توفي سنة ٣٥٠ أو ٣٦٠) :

أظلم في كربلاء يومهم ثم تجلى وهم ذبائحه
لا يبرح الغيث كل شارقة تحصي غواديه أو روائحه

على ثرى حله غريب رسول الله   مجـــروحة جـــوارحـــــه

١١ - ذلّ قريش ، ذل الإسلام والمسلمين :

لقد رأى شاعر الرثاء الحسيني منذ القرن الأول أن مقتل الحسين وآله وصحبه كان فيه ذلّ للإسلام والمسلمين . وفي حالات نادرة يرى الشاعر أن قتل الحسين أذلَّ قريشاً ، أو أذلَّ بني هاشم ، فقد قال أبو الرميح الخزاعي ، عمير بن مالك (توفي في حدود سنة ١٠٠ هـ) :

أجالت على عيني سحائب عـبرة   فلم تصح بعد الدمع حتى ارمعلت
تبكي عـلى آل النـبيّ محمــد   وما أكثرت في الدمع لا بل أقلت
أولئـك قوم لم يشيموا سيوفهـم   وقد نكأت أعــداءهم حين سلَّت
وإن قتيل الطف من آل هاشـم   أذلّ رقاباً مـن قريش فـذلَّت

ربما كان هذا الشاعر وأمثاله يعبّرون عن نظرة قبلية إلى الموضوع ، ويرون فيما حدث صراعاً شخصياً ، ولكن سرعان ما أخلت هذه النظرة الخادعة مكانها للنظرة الصحيحة إلى الموضوع ، فنظر شاعر الرثاء على امتداد العصور الإسلامية إلى ما حدث على أنه شأن إسلامي يعني الإسلام كدين والمسلمين كأمة ، وان ما حدث كان انتهاكاً للإسلام وعدواناً على المسلمين .

إن فاطمة بنت الحسين التي أنشدها أبو الرميح الخزاعي الأبيات الآنفة في رثاء أبيها ، قالت له عندما سمعت قوله : « أذلّ رقاباً من قـريش فذلَّت » : « يا أبا الرميح ، هكذا تقول !!؟ قال : فكيف أقول جعلني الله فداك ؟ قالت : قل : « أذلَّ رقاب المسلمين فذلَّت » فقال لا أنشدها بعد اليوم إلا هكذا .

لقد رأى شاعر الرثاء أن الحسين كان أملاً إسلامياً انطفأ حين قتله الأمويون ، فذلَّ المسلمون بقتله .

قال أبو الأسود الدؤلي : (توفي : ٦٩ هـ) :

يا ناعي الدين الذي ينعي التقى قم وانعه والبيت ذا الأستـار

وقال جعفر بن عفان (توفي : ١٥٠ هـ) :

لبيك على الإسلام من كان باكياً فقد ضيعت أحكامه واستحلت
غداة حسين للرماح درينـة وقد نهلت منـه السيوف وعلت

وقال منصور النميري (توفي ١٩٠ ـ أو ١٩٣ هـ) :

نفسي فـداء الحسين حـين غدا إلى المنايـا غـدو لا قافـل
ذلـك يوم أنحى بشفـرتـه على سنام الإسلام و الكاهـل

* * *

١٢ ـ المواجهة مع الرسول (ص) وآل البيت :

يتساءل شاعر الرثاء كثيراً مخاطباً بني أميّة ، أو مخاطباً القتلة (جيش الأمويين) أو مخاطباً الأمة (أعوان بني أمية) : كيف ستواجهون في القيامة رسول الله وعلياً وفاطمة ؟ وبماذا ستجيبـون إذا سألوكم عن موقفكم من أبنائهم ؟ وكيف ستطلبون منهم أن يشفعوا لكم عند الله وقد فعلتم بأبنائهم ما فعلتم ؟.

من ذلك قول أم لقمان بنت عقيل بن أبي طالب :

ماذا تقولـون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعـترتي وبأهـلي بعد مفتقدي منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذا نصحت لكم أن تخلفـوني بسوءٍ في ذوي رحمي

ومن ذلك قول منصور النميري :

ويـلـك يا قاتـل الحسين لقـد بؤت بحمـل ينـوء بالحامـل
بأي وجـه تلقى النبيّ وقـد دخلت في قتلـه مـع القاتـل
هلم فاطلـب غداً شفاعتـه أو لا فَـرِد حوضـه مع الناهل

ومن ذلك قول الجرجاني الجوهري (توفي ٣٨٠) :

واخجلتا مـن أبيهم يوم يشهدهم مضرَّجين نشادى من دم قان
يقول يا أمَّة حفَّ الضلال بهـا فاستبدلت للعمر كفراً بإيمان
ماذا جنيت عليكم إذ أتيتكـم بخـير ما جاء مـن آي وقرآن

١٣ ـ الشهداء :

يحظى الشهداء الذين صرعوا في كر بلاء مع الإمام الحسين بتكريم خاص في الشعر الرثائي ، ولا تكاد تخلو قصيدة من ذكرهم والثناء عليهم ، تارة من حيث وعيهم الديني ، وأخرى من حيث وفائهم للنبيّ (ص) وآله ، وفي جميع الحالات ينوّه الشاعر بشجاعتهم وإيثارهم الموت مع الإمام .

ممن ذكرهم من الشعراء عبيد الله بن الحرّ الجعفي (قتل سنة ٦٨ هـ) :

سقى الله أرواح الذين تبادروا إلى نصره سقياً من الغيث دائمة
وقفت على أجداثهـم ومحالهـم فكاد الحشى ينقض والعين ساجمة
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمة
تآسوا على نصر ابن بنت نبيـهـم بأسيافهم آسـادغيل ضراغمة
فإن يقتلوا فكـل نفس تقيـــة على الأرض قد أضحت لدلك واجمة
وما أن رأى الراؤون أفضل منهم لدى الموت سادات وزهر قماقمة

والعوني المصري طلحة بن عبيد الله (ت ٣٥٠ بمصر) :

فدافعت عنه أوليـــاه وعانقـوا البيض والرماحا
سبعون في مثلهم ألوفاً فأثخنوا بينهـم جراحـاً
ثم قضوا جملة فلاقـوا هناك سهم القضـا المتاحا

والأمير محمد السوسي (ت ٣٧٠ هـ) :

ناع نعـى بالطفـوف بـدراً أكرم بـه رائحـاً وغـادي

نعـــى حسيناً فدتـــه روحـــي لما أحاطـــت به الأعـــــادي
في فتية ساعـــدوا وواســـوا وجاهـــدوا أعظم الجهـــاد
حتـــى تفانـــوا وظـــلّ فـــرداً ونكسوه عـــن الجـــواد

* * *

١٤ ـ المصاعب التي واجهها الشاعر بسبب ولائهم : !

وهذه ظاهرة نجدها في شعر المدح والرثاء منذ القرن الأول ، واستمرت تظهر على ألسنة الشعراء إلى بدايات العصر الحديث ، وهي تعكس جو الإرهاب الذي كان الشيعة يواجهونه من السلطات ومن الجماعات الشعبية المتعصبة ضدهم عندما يحاولون التعبير عن أفكارهم المذهبية .

وقد ذكرنا شواهد كثيرة من شعر المدح والرثاء على هذه الظاهرة فيما تقدم من هذا الحديث ، ومن شواهد ذلك أيضاً قول الشريف المرتضى :

أحبكم آل النبـــي ولا أرى وإن عذلـــوني عـــن هواي عديلاً
وقلت لمـــن يلمني على شغفي بكم وكم غير ذي نصح يكون عذولا
رويدكم لا تنحلوني ضلالكم فلن ترحلـــوا مني الغداة ذلولا

* * *

١٥ـ النصر باللسان .. :

من مقاصد الشعر الرثائي اعتبار الشاعر مديحه أو رثاءه نصراً لأهل البيت بلسانه بعد أن عجز عن نصرهم بيده لأنه تخاذل ثم ندم ، أو لأن ظروفه لم تسعفه ، أو لتأخر زمانه عنهم .

فمن أمثلة الندم على التخاذل في شعر الرثاء قول عبيد الله بن الحر الجعفي :

يقول أمـير غادر وابن غـادر ألا كنت قاتلت الحسين بن فاطمة
ونفسي على خذلانه واعتـزالـه وبيعة هذا الناكث العهـد لائمة
فياندمـي أن لا أكون نصرتـه ألا كـل نفس لا تسدد نادمة
وإني لأني لم أكن من حماتـه لذو حسرة ما إن تفارق لازمة .

ومن أمثلة الأسف على عدم المشاركة لأن الظروف لم تساعد قول عوف الأزدي أحد التوابين :

فيا ليتني إذ ذاك كنت شهدتـه فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
ودافعت عنه ما استطعت مجاهداً وأعملت سيفي فيهـم وسنانيا

ومن أمثلة الأسف لتأخر زمان الشاعر قول منصور النميري :

ألا يا ليتني وصلت يمينـي هناك بقائم السيف الصقيـل
فجـدت على السيوف بحرّ وجهي ولم أخذل بنيـك مع الخـذول

ومن ذلك قول الشريف الرضي :

فإن أغب عن نصركم برهـة بمرهفات لم أغـب بالفـم

وللشريف الرضي مذهب آخر في هذا المقصد ، فهو في بعض شعره يرى أن دوره في النصر بالسيف لم يفته بسبب تأخر زمانه عن واقعة كربلاء ، لأن نصر الحسين بالسيف أخذاً بثأره وتحقيقاً لغايات ثورته أمر لم يفت زمانه ، ولكن الموانع والعقبات تحول دون تحقيقه ، وهو يأمل أن تزول هذه العقبات فيتمكن من تحقيق طموحه ، ولا شك في أن الشريف يومئ بذلك إلى طموحه لتولي الخلافة فتكون الخلافة علوية بدل أن تستمر عباسية ، فيقول :

لست أرضى في نصـركم ، وقـد احتجتـم إلى النصر ، مني الأشعارا
غـير اني متى نصرتم بطعن أو بضرب أسامتي النصـارا

وإلى أن يزول عن كفي المنع   خــذوا اليوم من لساني انتصارا
واسمعــوا ناظرين نصر يمينـــي   بشبا البيض ، فحــلي الهدارا

وقد تكرَّر ذلك منه في عدة قصائد .

وقد أكثر الشعراء على مدى العصور في ختم قصائدهم الرثائية بأنهم يأسفون لأن النصر باليد قد فاتهم فهم يقتصرون عن النصر باللسان .

* * *

هذه جملة من مقاصد الشعر الحسيني ، ذكرناها لتعريف الباحث والقارئ على الأفكار الأساسية لهذا التراث الشعري الضخم فيما قبل العصر الحديث .





قيمة الشعر الحسيني

نظرنا إلى شعر الرثاء الحسيني من حيث هو عمل فني فسنصدر عليه حكماً يختلف عما إذا نظرنا إليه من حيث قيمته التربوية .

فإن القيمة الفنية لشعر الرثاء الحسيني لا تتناسب إطلاقاً مع ضخامته .

إن شعر القرون الثلاثة الأولى يشتمل على كثير من الروائع ، ولكن الأمر يختلف من هذه الجهة منذ القرن الثالث فما بعده حيث غلبت على هذا الشعر الصنعة والركة في التعبير ، وأكثره يفتقر إلى الخيال وفنيَّة التعبير ويغلب على الكثير منه أن يكون كلاماً منظوماً ، فكأن الشاعر كان ينظِّم أحد كتب المقاتل مضيفاً إليه بعض كتب الفضائل . كما ان الكثير منه متشابه في العبارات والصُوَر .

ولا يعني هذا أنه لا توجد في شعر الرثاء الحسيني في هذه الفترة الطويلة بعض الأعمال الجيّدة والرائعة ، فلا شك أن الباحث واجد الكثير مثل بعض مراثي السيد الشريف الرضي ومهيار الديلمي ، ولكننا نتحدث عن الطابع العام لهذا الشعر فيما بعد القرن الثالث إلى بدايات العصر الحديث ؛ فلا شك أن ضخامته الكمية لا تتناسب إطلاقاً مع قيمته النوعية من حيث هو عمل فني .

ونقدر أن المسؤول عن هذا الضعف النوعي في الجانب الفني من شعر الرثاء الحسيني يعود إلى جملة أسباب .

الأول :

إن هذا الشعر في هذه الفترة قد تأثر بالوضع الثقافي العام ، فقد ضعفت اللغة العربية ، وانحطت الآداب والعلوم ، وغلب على المثقفين

كونهم يحفظون نماذج القدماء دون أن تكون لديهم ثروة لغوية وفكرية تمكنهم من تقليدها على الأقل ، وانحطت لغة الكتابة الديوانية حتى غلبت عليها العامية تقريباً ، فأصاب شعر الرثاء في هذه الفترة ما أصاب سائر الشعر في الأغراض الأخرى .

الثاني :

إن أغلب شعراء الرثاء الحسيني أو كثير منهم على الأقل في هذه الفترة لم يكونوا شعراء ، وإنما كانوا فقهاء أو متفقهين ، وكانت ثقافتهم الشعرية الفنية لا تتعدى معرفة عروض الشعر ، ولذا فقد كانوا يتناولون موضوعاً يحتاج إلى روح فنية يفتقدها أكثرهم ، ويحتاج إلى ثقافة فنية يفتقدها أكثرهم .

وكانوا ينظمون الشعر في الحسين بدافع من كونه عملاً من أعمال التقوى ، ومن هنا فقد لا تجد لأكثرهم نظماً في غير الحسين وفضائل أهل البيت استجابة للتوجيهات الواردة عن أئمة أهل البيت في شأن نظم الشعر ، والتي قدمنا الحديث عنها في مطلع هذا الفصل . .

وإذن فلم يكن لدى كثير من هؤلاء الشعراء كفاءة فنية تذكر لإنشاء عمل فني شعري ، حتى بمقاييس شعراء عصرهم الذين لا يتمتع شعرهم بقيمة فنية تذكر . ومن هنا فلنا أن نفترض أن كثيراً منهم كان ينظم الشعر في الحسين وأهل البيت ـ رثاءاً ومدحاً ـ بعقلية من ينظم متناً في النحو أو الصرف أو الفقه أو ما إلى ذلك من موضوعات الأراجيز التي شاعت في هذا العصر .

الثالث :

الإكثار من النظم في الرثاء الحسيني .

إن ثمة شعراء كثيرين ـ في هذه الفترة الطويلة التي نتحدث عن قيمة الشعر الرثائي فيها ـ قد قصروا نظمهم على موضوع الرثاء والمديح

لأهل البيت ولم يتجاوزوا إلى غيره ، فثمة شعراء لهم عشرات القصائد في رثاء الحسين وعشرات القصائد في مديح أمير المؤمنين وسائر أئمة أهل البيت . ولا شك في أن هذا الإكثار إذا أضيف إلى ضعف الثقافة الفنية الشعرية ، وإلى انحطاط اللغة الأدبية في ذلك العصر ، مسؤول عن ضعف هذا الشعر من الناحية الفنية من حيث الشكل ومن حيث المحتوى .

هذه هي الأسباب التي نقدر انها مسؤولة عن ضعف القيمة الفنية لشعر الرثاء الحسيني في هذه الفترة الطويلة .

نقول هذا معترفين بأننا لم نطلع إلا على نماذج لكل شاعر من شعراء هذه الفترة ، نعتبرها كافية للحكم على شعر الشاعر الذي لم يقدَّر لنا الإطلاع عليه ، وهذا يحملنا على القول بأن دراسة شاملة لشعر الرثاء كله قد تنتهي بالباحث إلى حكم في مصلحة شعر الرثاء في هذه الفترة من الناحية الفنية .

وشعر الرثاء الحسيني على امتداد العصور موضوع غنيّ بالإمكانات يصلح موضوعاً لأبحاث متنوعة تتناوله من جوانبه الفنية ودلالاته التاريخية ، والعقيدية ، والنفسية ، والإجتماعية .

هذا هو تقييمنا لشعر الرثاء الحسيني من الناحية الفنية .

أما القيمة التربوية لشعر الرثاء الحسيني فإنها تختلف عن قيمته التربوية كثيراً . إن القيمة التربوية لشعر الرثاء الحسيني قيمة حقيقية وكبرى ، وذات تأثير حاسم .

فلقد استمرَّ هذا الشعر في عمله التربوي التوجيهي الذي أريد له حين وجَّه أئمة أهل البيت شيعتهم إلى إنشائه وإنشاده .

وقد ساهم ـ على امتداد العصور الإسلامية ـ مع الخطوط الثقافية الأخرى من زيارة ومآتم في تغذية الإنسان الشيعي بالمفاهيم الأساسية

لموقف التشيع وخطوطه الكبرى ، وفي إحكام صلة الإنسان الشيعي بالثورة الحسينية .

ولم تؤثر القيمة الفنية الضئيلة لكثير من هذا الشعر في عصور الإنحطاط الإسلامية على دوره التربوي ، بل لعلها ساعدته على أداء دوره بنجاح أكبر ، فإن أكثر هذا الشعر قد أنشئ لينشد في المآتم الحسينية التي يحضرها عامة الناس الذين تغلب عليهم الأميّة والذين يعجزون بحكم فقرهم اللغوي وعاميتهم عن فهم التعبيرات الفنية المعقدة ، والصور البيانية التي تحتاج إلى ثقافة فنية لم تكن متوفرة لدى الغالبية العظمى منهم ، ولذا فقد كان الكلام البسيط القريب من لغتهم العامية والذي يتوفر فبه الإيقاع الموسيقي أقرب إلى إفهامهم وأشد تأثيراً فيهم .

ومن هنا فقد غدا هذا الشعر ـ بما يحتوي من مفاهيم ومثل وأخلاق ـ جزءاً من ثقافة الإنسان الشيعي العادي ، ومن ثم جزءاً من بنيته الفكرية ، فقد كانت مواسم عاشوراء في محرم من كل عام ومجالس المآتم في سائر أيام السنة تتيح الفرصة للآلاف من الرجال والنساء لحضور الإجتماعات الحسينية وسماع قصة الواقعة ، وتاريخ الإسلام ، يتخلل ذلك كله كثـــير من هذا الشعر يتلوه النوّاح ، ثم في عصر متأخر ، خطباء المنبر الحسيني .

إن القيمة التربوية لشعر الرثاء الحسيني كانت قيمة كبرى في الماضي ، وستبقى كذلك في المستقبل ما دام المنبر الحسيني ، ووسائل الأداء الحديثة مسارب لهذا الشعر تنقله إلى الناس فتجدد لديهم الصلة بثورة الحسين ومثلها العليا ، وتجعلها في قلوبهم وعقولهم رمزاً حياً للنضال في سبيل الحق والعدالة ، والإستشهاد في سبيل الصالح العام .

الفصل الرابع

المأتم الحسيني - مدخل

١- المآتم العائلية

٢- المآتم العرضية العامة

المأتم الحسيني

أدوار المأتم الحسيني

الدور الأول

الدور الثاني

الدور الثالث

الحاضر وتطلعات المستقبل



المآتم الحسينيّ - مَدْخَل

المأتم العائلي أو المأتم العرضي

لا شك في أن ما حدث في كربلاء من فواجع بلغت ذروتها المأساوية بمصرع الحسين شهيداً بعد ظهر اليوم العاشر من شهر محرَّم سنة إحدى وستين للهجرة النبوية ، قد أدى إلى قيام مآتم عائلية في كربلاء وفي بيوت الهاشميين في المدينة وفي غيرها .

كما أن الإجراء الإنتقامي الوحشي الذي تمثل في سبي عائلات الشهداء ، وفيهن العلويات ، وسوق قافلة السبايا من كربلاء إلى الكوفة ، ومن الكوفة إلى الشام ، تصحبها رؤوس الشهداء محمولة على الرماح أو معلّقة في أعناق الخيل وفيها رأس الإمام الحسين علية السلام ... إن هذا الإجراء قد أدى إلى قيام مآتم عرضية في المدن والتجمعات السكنية الأخرى التي كان يمر عليها موكب السبايا والرؤوس نتيجة لتجمع السكان الذين يدعوهم الفضول إلى الإستطلاع ، أو تدعوهم معلومات سابقة عن طبيعة الموكب القادم إلى استقباله ، وعندما يلتقي الجمهور بموكب السبايا يحصل حوار ، وتُلقى خطب من بعض أهل البيت تثير الشجن ، وتبعث على البكاء .



١- المآتم العائلية

١ – في كربلاء ..

لا شك في أن كربلاء قد شهدت أول مأتم أقيم للحسين بعد استشهاده.

ولا بد أنه كان مأتماً يغلب عليه الطابع العائلي تكوّن من السيدات والفتيات العلويات زوجاتِ وبناتِ وأخواتِ الإمام الحسين والهاشميين الطالبيين الذين استشهدوا معه ، وانضم إليهنّ بطبيعة الحال نساء الشهداء من غير الهاشميين ، ويبدو أن عددهن كان قليلاً بالنسبة إلى العلويات [1].

ونقدّر أن هذا المأتم قد استغرق زمناً طويلاً نسبياً .

لقد بدأ ، فيما نقدّر ، بعد مصرع الحسين شهيداً بعد ظهر اليوم العاشر من المحرم ، واستمرَّ طيلة الليل ، وانتهى على نحو فاجع بعد ظهر اليوم الحادي عشر من المحرّم ، وذلك حين جهّز ضبّاط الجيش الأموي أسباب الرحلة الطويلة الكئيبة إلى الشام : فهيؤا الرواحل لركوب السبايا .

ولا بد أن هاتيك السيدات والفتيات المفجوعات قد تمزَّقت قلوبهن لوعة وأسى ، وهن يدعون للرحلة تاركات أجساد قتلاهنّ المقدَّسين الأعزاء مطروحة على الرمال من غير دفن ، فإن عمر بن سعد دفن قتلاه ، ولم يبدِ أيّة عناية بدفن الشهداء ، بل نفّذ أمراً بوطء جسد الحسين بحوافر الخيل .

---

(١) ذكر الشيخ عباس القمي : في كتابه نفس المهموم أن عدد نساء الحسين وأصحابه كان عشرين امرأة : وليس ثمة نص قديم بالنسبة إلى هذه المسألة .

ولذا فإننا نميل إلى قبول الروايات التي تتحدث عن أن بعض جنود الجيش الأموي وضباطه استعملوا الشدة للتفريق بين بعض النسوة وبين أجساد قتلاهن ، ومنها الرواية التي وردت في شأن السيدة سكينة بنت الإمام الحسين ، وانها اعتنقت جسد أبيها ولم تتركه حتى اجتمع عدة من الأعراب فجرّوها عنه[1]. إننا نميل إلى قبول الدلالة العامة لأمثال هذه الرواية لأن طبائع الأشياء تقضي بما تحكيه هذه الروايات .

ونقدّر أن هذا المأتم قد عقد ، في معظم الوقت ، في العراء ، فوق ساحة المعركة (بعد إحراق الخيم ؟)[2] تحت بقايا شمس اليوم العاشر من المحرم ، ثم تحت الأضواء الخافتة لنجوم تلك الليلة المثقلة بأشجان هاتيك النسوة المفعمة قلوبهن لوعة وشجىً ؛ فلا بد أن الهاشميات وغيرهن قد توزّعن على أجساد الشهداء المعفَّرة بالرمال يندبنهم ويبكينهم . ونقدّر أن المناحة الكبرى قد عقدت حول جسد أبي عبد الله الحسين .

لقد كان بالتأكيد ، مأتماً مهيباً ، فاجعاً إلى أبعد حدّ ، يرتفع منهُ نواح راعش لهاتيك النسوة الغريبات مع أطفالهن ، وهم جميعاً ظماء جياع مروعون بمشاهد الأزواج ، والأبناء ، والآباء ، والأخوة صرعى .

* * *

٢ ـ في دمشق .

وشهدت قاعات قصر الخضراء في الشام المأتم العائلي الثاني .

وكان ينبغي أن تشهد الشام مأتماً عرضياً عامّاً كالذي شهدته الكوفة حين وصل ركب السبايا إليها ، ولكننا نعتبره مأتماً عائلياً خاصاً

---

(١) ابن طاووس : اللهوف . ص : ٥٦ .

(٢) ابن نما : مثير الأحزان . ص : ٥٨ ـ ٥٩ . وهي مسألة تحتاج إلى تحقيق .

لأن الشام ، بحسب ما نرى ، لم تشهد أثناء الرحلة مأتماً عاماً بسبب الإختلاف بين أهل الكوفة وأهل الشام من حيث علاقتهم بأهل البيت .

فأهل الكوفة عايشوا الإمام علياً وأبناءه طيلة سنين مدّة مقام الإمام عليّ خليفة في الكوفة التي كانت عاصمة للدولة في عهده . وبعد ذلك فقادة الكوفة هم الذين أرسلوا إلى الإمام الحسين يستقدمونه ويعدونه النصر .

أما أهل الشام فلم تكن لهم صلة مباشرة بأهل البيت ، وربما كانوا لا يشعرون بوجودهم نتيجة لسياسة العزلة التي وضعهم معاوية في نطاقها لئلا يتأثّروا بثقافة العراقيين أو غيرهم في هذا الشأن[١] ، ومن هنا فيبدو أن قدوم السبايا لم يبعث في نفوس الشعب السوري ، حينذاك ، أي حزن ، ولم يبد السوريون أي اهتمام . بل تتحدث بعض المصادر عن أن المناسبة اتخذت عيداً في دمشق ، وانتشرت الزينات ومظاهر اللهو في مدينة دمشق ، ربما تحت شعار أن بعض أعداء الدولة من الخوارج قد قضي عليهم[٢] .

ولكن إذا لم يثر قدوم قافلة السبايا والرؤوس إلى الشام مآتم حافلة في الشوارع والساحات العامة كما حدث في الكوفة ، فإن مأتماً كبيراً

---

(١) ومن شواهد ذلك في عصر تأخر عن هذا العصر أن عبد الملك بن مروان منع أهل الشام من الحج لما استولى عبد الله بن الزبير على الحجاز والعراق وتَسمَّى بالخلافة ، وأمر عبد الملك أخاه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر أن يمنع الناس من الحج وأن يعرف بالناس بمصر ويقف بهم في يوم عرفة وابن عبد الملك لأهل القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليصرفهم بذلك عن الحج والعمرة . فصاروا يطوفون حول الصخرة كما يطوفون حول الكعبة وينحرون يوم العيد ضحاياهم . (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ١ / ١٨٨) ولا شك في أن عبد الملك أراد بذلك أن يعزل السوريين والمصريين عن التعرض لنا ليصرفهم عن غريب يعرض ولاءهم للدولة الأموية إلى الإهتزاز ولا شك في أن عبد الملك كان بعمله هنا ينفذ سياسة قديمة في الدولة تمثلها وصية معاوية لابنه يزيد في أن يعيد أهل الشام إلى بلادهم إذا اضطر إلى اخراجهم منها لئلا يتخلقوا بأخلاق غيرهم .

عقد في أبهاء وقاعات قصور الخلافة في دمشق تكوَّن من العلويات والأمويات وغيرهن من نساء بني أميَّة(٣).

٣ ـ **في المدينة** : قال الشيخ المفيد في الإرشاد :

أنفذ يزيد بن معاوية عبد الملك بن أبي الحارث السلمي إلى المدينة ، يحمل إلى عامله عليها عمرو بن سعيد بن العاص نبأ قتل الحسين . قال عبد الملك :

« لما دخلت على عمرو بن سعيد ، قال : ما وراءك ؟ قلت : ما يسرّ الأمير ، قتل الحسين ابن عليّ . فقال أخرج فناد بقتله ، فناديت ، فلم أسمع قط واعية مثل واعية بني هاشم في دورهم على الحسين بن عليّ حين سمعوا النداء بقتله » .

ولا شك في أن الطالبيين والطالبيات في المدينة حين علموا بنهاية الحسين وآله في كربلاء قد أقاموا المآتم في منازلهم ، وفي الشوارع والساحات العامة ، كما توحي بذلك بعض الروايات .

فقد خرجت أم لقمان ، زينب بنت عقيل بن أبي طالب ، حين سمعت نعيَ الحسين ، ومعها أخواتها يبكين قتلاهن في الطف ، وهي

تقول :

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمي

وقد غدا الطالبيون في المدينة منذ بلغهم نبأ الفاجعة في مآتم متصلة بلغت ذروتها عندما وصل الركب الحزين إلى المدينة .

وقد كان ثمة مآتم للرجال ومآتم للنساء .

ولا بد أن أهل المدينة من رجال ونساء كانوا يرتادون هذه المآتم معزين ، ناقمين ، مظهرين مشاركتهم للطالبيين في مصابهم الأليم .

ونقدّر أن مآتم الرجال كانت تبدأ بعبارات العزاء . وكانت تدور بعد ذلك الأحاديث عن الواقعة . وملابساتها . وكانت هذه الأحاديث تضجّ بالنقمة على الأمويين وأشياعهم . وقد حفظ لنا التاريخ صورة عن أحد هذه المآتم الرجالية ، وهو مأتم عبد الله بن جعفر[1] .

وأما مآتم النساء فقد كانت أكثر حرارة وعاطفية بطبيعة الحال . وقد كان بعضها يعقد في المنازل وبعضها يعقد في البقيع . وكان نساء أهل المدينة يحضرن هذه المآتم . بل وبعض الرجال يحضرون أيضاً كما يستفاد من بعض الروايات .

ونقدّر أن مآتم النساء الطالبيات كانت تشتمل على بيان الواقعة بعبارة عاطفية ، وبيان مناقب الشهداء . يتخلّل ذلك شعر النوح . وربما رافق ذلك لطم على الوجوه ، ولدم على الصدور .

ونقدّر أن المأتم النسائي الحسيني حافظ على سِماته الأساسيه عبر العصور ، ولم يدخله أي تغيير يذكر حتى الآن سوى لغة شعر النوح

---

(١) الطبري : ٥/

وقصة الواقعة ، فقد تغيّرت هذه اللغة بلا شك حيث انها كانت لغة فصحى فغدت عامية أو تشبه العامية .

وقد حفظ التاريخ صورة عن بعض هذه المآتم العائلية النسائية :

« كانت أم البنين ، وهي فاطمة بنت حزام الكلابية ، أم العباس وأخوته : عبد الله ، وجعفر ، وعثمان ، الذين قتلوا مع أخيهم الحسين يوم عاشوراء ، تخرج كل يوم إلى البقيع في المدينة ، وتحمل معها عبيد الله بن ولدها العباس ، فتندب أولادها الأربعة أشجى ندبة وأحرقها ، فيجتمع الناس يستمعون بلماتها وندبتها . وكان مروان بن الحكم يجيء فيمن يجيء لذلك ، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكي »[١] .

وكان ثمة مأتم للسيدة الرباب زوجة الحسين . ولكن أعظم المآتم النسوية العائلية ، كان بلا شك ، المأتم الذي أقامته السيدة زينب بنت عليّ ، فقد كان مأتماً حافلاً تتولى قيادته السيدة زينب ، وقد أدى هذا المأتم وما ولّده من ردود فعلٍ ضد الأمويين في المدينة حافزاً لعامل المدينة عمرو بن سعيد بن العاص على أن يكتب إلى يزيد بن معاوية :

« إن وجود زينب بين أهل المدينة مهيّج للخواطر ، وانها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين »[٢] .

وقد أدّى هذا إلى إخراجها من المدينة إلى مصر حيث توفيت هناك في الرابع عشر من شهر رجب سنة ٦٢ هجرية .

٢ - المآتم العرضيّة العامّة

نعني بالمآتم العرضية تلك التجمعات التي كانت تحصل عند مرور قافلة السبايا والرؤوس في المدن والتجمعات السكانية في طريقها من كربلاء إلى الكوفة ، ثم إلى الشام ، ثم منها إلى المدينة ، حيث عقد أعظم مأتم عام عرضي .

ونقدّر أن هذه المآتم كانت تقام في كثير من الأماكن الآهلة بالسكان الذين يعرفون مركز أهل البيت في الإسلام ، وأتيح لهم أن يعرفوا طرفاً مما جرى في كربلاء . ونذكر هنا نموذجين بارزين لهذه المآتم ، هما مآتم الكوفة في طريق السبايا إلى الشام ، ومآتم المدينة في نهاية رحلة الثورة ، بعد عودة بقية العائلة النبوية من كربلاء .

١ ـ في الكوفة :

حين وصلت قافلة السبايا مع رؤوس الشهداء إلى الكوفة استقبلوا بما يمكن أن يسمّى الآن « استقبالاً شعبياً » .

لقد كانت الكوفة طيلة أسابيع المحنة تعيش على أعصابها ، فقد شهدت البداية ممثلة بمسلم بن عقيل ونجاحه الخارق ثم نهايته المفجعة . وشاهدت الجيش يرسل إلى كربلاء ، وعانت آلاماً وطغياناً من الحكم العرفي الذي سادها طيلة أسابيع المحنة ، فهي لا بد خرجت لترى نتيجة خيانة زعمائها ، وتخاذل شعبها ، وطغيان حكامها .

وقد واجهت الكوفة سيدات البيت النبوي اللاتي عبرن عن مرارتهن وفجيعتهنّ بخطب ألقينها على جموع المستقبلين ، كما خطب الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين .

وقد وصف المؤرخون الأثر الذي تركته هذه الخطب في الناس ، فقالوا عن تأثير خطبة الإمام عليّ بن الحسين :

« .. فارتفعت أصوات الناس بالبكاء من كل ناحية . وقال بعضهم لبعض : هلكتم وما تعلمون»

وعن تأثير خطبة السيدة زينب :

« قال من سمعها : فلم أر والله خفرة أنطق منها ، كأنما تنتزع عن لسان أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب ، فلا والله ما أتمت حديثها حتى ضجّ الناس بالبكاء ، وذهلوا ، وسقط ما في أيديهم من هول المحنة الدهماء » .

وعن تأثير خطبة السيدة أم كلثوم :

« فضجّ الناس بالبكاء والنحيب ، ونشر النساء شعورهنّ ، ووضعن التراب على رؤوسهنّ ، وخمشن وجوههنّ ، ولطمن خدودهنّ ، ودعون بالويل والثبور . وبكى الرجال فلم ير باكٍ وباكية أكثر من ذلك اليوم » .

وعن تأثير خطبة السيدة فاطمة الصغرى :

« .. وقبيل انتهائها من الخطبة ارتفعت أصوات الكوفيين بالبكاء والنحيب ، وقالوا حسبك يا ابنة الطيبين فقد أحرقت قلوبنا ، وأنضجت نحورنا ، وأضرمت أجوافنا . فسكتت » .

٢ ـ في المدينة :

عندما دنا ركب أهل البيت الحزين من مشارف المدينة طلب الإمام زين العابدين من بشير بن جذلم أن يدخل المدينة وينعي الحسين ، ويبلغ أهلها عن وصول أهل البيت .

قال بشير : فركبت فرسي وركضت حتى دخلت المدينة ، فلما بلغت مسجد النبيّ رفعت صوتي وأنشدت :

يا أهـل يثرب لا مقام لكم بها   قتل الحسين فادمعي مـدرار
الجسم منـه بكربلاء مضــرج   والرأس منه على القناة يـدار

« هذا عليّ بن الحسين مع عماته وأخواته قد حلُّوا بساحتكم ، ونزلوا بفنائكم ، وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه » .

وكانت المدينة قد علمت بما حدث في كربلاء منذ أذاع مقتل الحسين رسول عبيد الله بن زياد .. وكانت المآتم العائلية في بيوت آل أبي طالب فيها حافلة بالمعزين الذين كانوا يتحدثون بأخبار كربلاء ، وها هي بقية السيف الأموي من مذبحة كربلاء تعود إلى وطنها الموشح بمسوح الحزن ، دامية القلوب دامعة العيون .

قال بشير بن جذلم :

« فما بقيت في المدينة مخدَّرة ولا محجبة إلاَّ برزن من خدورهن وهنَّ يدعين بالويل والثبور ولم يبق في المدينة أحد إلا وخرج وهم يضجّون بالبكاء . فلم أر باكياً أكثر من ذلك اليوم ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه بعد وفاة رسول الله » .

قال بشير بن جذلم :

« فضربت فرسي حتى رجعت ، فوجدت الناس

قد أخذوا الطرق والمواضع ... وكان عليّ بن الحسين داخلاً ، فخرج ومعه خرقة يمسح بها دموعه ، وخلفه خادم معه كرسي فوضعه له ، وجلس عليه ، وهو لا يتمالك من العبرة ، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء من كل ناحية يعزونه ، فضجَّت تلك البقعة ضجة شديدة ، فأومأ بيده أن اسكتوا فسكنت فورتهم ، فخطب فيهم خطبة مؤثرة ، ثم دخل زين العابدين إلى المدينة ... » .

وهكذا تحوَّلت المدينة كلها ، بعد وصول أهل البيت إليها من كربلاء ، إلى مأتم كبير ، تغذيه بعناصر الإثارة العاطفية بؤر الحزن والفجيعة بيوت آل أبي طالب ، وفي مقدمتها بيت الإمام الحسين ، التي تحوَّلت مآتمها العائلية إلى مناحات كبرى .

* * *

إن هذه المآتم العرضية الحافلة التي عقدت في الكوفة وفي مدينة الرسول وفيما بينهما من محطات الطريق في رحلة العودة من كربلاء – كانت تحمل في ثناياها بذور المأتم العام – المؤسسة ، لأن الذين شاركوا في هذه المآتم إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أصحاب قضية ، داعين أن الشأن الحسيني يعنيهم بما هو شأن إسلامي لا بما هو شأن عائلي ، يعني بني هاشم وآل أبي طالب بنوع خاص .

بل ربما كانت المآتم العائلية في كربلاء ودمشق والمدينة قد ساهمت أيضاً – بشكل ما – في تهيئة الأجواء الملائمة لنمو فكرة المأتم العام المؤسسة .

المـأتم الحسيني

كانت ثورة الحسين حدثاً راعداً بعث في المجتمع الإسلامي كله هَزة مزَّقت حجاب السكون والصمت الذي كان يلفّه ، وجعلته يعيد النظر في كثير من أوضاعه السياسية ، وبعثت فيه حركة نقد ذاتي نشأت من يقظة في الضمير .

لقد عاد الجنود إلى بلدانهم وقبائلهم ينشدون الأخبار عن الهول الذي رأوه وشاركوا في صنعه ، وعـن النهاية الفاجعة للثائرين ، وشاهد الناس على امتداد الطرق من كربلاء إلى الكوفة والشام والمدينة قافلة السبايا والرؤوس ، وانفعلوا بالمآتم العرضية والعائلبة التي كانت تقام هنا وهناك .

ولا بدّ أن الإنفعال العفوي بالثورة ونهايتها المأساوية بما يثيره من حزن عميق وأسىً بالغ قد أعطى الناس الذين عرفوا بما حدث مبرراً للتجمع ، ومادة للحديث ، وحافزاً على مراجعة المواقف والآراء ، وإعادة النظر في النظام كله ؛ فإن ما حدث كان من الضخامة والخطورة بحيث لا يمكن تجاهله ، وما حدث ثورة إسلامية قادها واستشهد فيها رجال يمثل كثير منهم ذروةً في المجتمع الإسلامي ، وعلى رأسهم الإمام الحسين .

إن التجمعات التي أدّى إليها الإنفعال العفوي بالمأساة ، وتأثير المآتم العرضية والعائلية ، هي في رأينا النواة التي بدأ منها المأتم الحسيني ــ المؤسسة ، وتطور خلال التاريخ .

فلقد بدأت المآتم الحسينية فور نهاية الثورة وانتشار أخبارها في المجتمع الإسلامي ، ولكنها بدأت بشكل عفوي وبسيط .

لقد كانت اجتماعات صغيرة يعقدها نفر من المسلمين الناقمين ـ من أتباع أهل البيت وغيرهم ـ في بيت أحدهم ، أو في مسجد ، أو في شارع ، او باحة فيتحدثون عن الحسين وصحبه وآله وعما جرى عليهم ، وينتقدون السلطة التي حاربته ، وامتدادَها القانوني المتمثل في السلطة المحلية ، ويتبرّؤن منها ، وربما تناشدوا شيئاً من شعر الرثاء الذي قيل في الثورة وبطلها وقتلاها .

وقد تطورت هذه المآتم عبر العصور . فمرت في أدوار متميزة حتى انتهت في أيامنا هذه إلى الشكل الذي تقام عليه الآن .

وسنعرض لهذه الأدوار فيما بعد ، وما نريد أن نوضحه الآن هو العوامل التي أدت إلى أن تتحوَّل هذه التجمعات العفوية إلى مؤسسة ثقافية ـ إجتماعية ذات تأثير لا يبارى ، وهي المآتم الحسيني .

في رأينا أن أئمة أهل البيت هم الذين دفعوا بهذه التجمعات العفوية إلى أن تأخذ هذا الإتجاه ، وتتحول إلى مؤسسة ذات أعراف وتقاليد . وساعدت على نجاح هذا المسعى من أئمة أهل البيت بعض العوامل الأخرى.

أقدم النصوص التي نرجّح أنها دفعت بالتجمعات إلى أن تكون مؤسسة المآتم الحسني الثقافية تعود إلى وقت مبكِّر جداً بعد الثورة ، أعني بعد شهر محرَّم سنة إحدى وستين للهجرة .

فقد نقلت نصوص عن الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين (٣٨ ـ ٩٥ هـ) الذي شهد الثورة مع أبيه الإمام الحسين من بدايتها حتى نهايتها الفاجعة ، وذاق مرارة السبي مع نساء أهل البيت من عماته وأخواته

وغيرهنَّ .

هذه النصوص يبيّن فيها الإمام زين العابدين ثواب من بكى لمصيبة الحسين عليه السلام . منها قوله :

« أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين دمعةً حتى تسيل على خده بوّأه الله بها في الجنّة غرفاً يسكنها أحقاباً ، وأيما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خده فينا لأذىً مسّنا من عدوّنا في الدنيا بوّأه الله بها في الجنة مبوّأ صدق »[1].

ونقدّر أن هذا البيان وأمثاله قد أعطى توجيهاً معيَّناً لهذه التجمّعات العفوية التي كانت تعقد بعد نهاية الثورة ، هذا التوجيه يقوم على الفكرة التالية : إن هذه التجمعات سيكون لها مبرّر مستمرّ هو البكاء على الحسين ، ولا شكَّ في أن البكاء يكون أيسر منالاً إذا كان ثمة اجتماع مخصص لتدارس مأساة حافلة بأسباب البكاء[2].

* * *

وفي عهد الإمام أبي جعفر محمد الباقر بن الإمام زين العابدين (٥٧ ـ ١١٤ أو ١١٧ هـ) الذي شهد فاجعة كربلاء مع أبيه وعمره إذ ذاك أربع سنين ـ في عهده أصدر توجيهاً يعطي شكلاً محدداً لإحياء الذكرى الحسينية في موعدها من كل عام (اليوم العاشر من الشهر القمري الأول ـ محرم ـ من السنة الهجرية) .

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٣٤ ، ص ١٠ ـ ١٠٤ .

(٢) تهمنا هذه النصوص من حيث كونها تبرر الاجتماع لأجل البكاء وحافز عليه ، وسندرسها من حيثية أخرى في بحثنا الآتي عن ظاهرة البكاء .

ويتكوّن هذا الشكل من ممارستين :

الأولى :

زيارة الحسين يوم عاشوراء لمن كان منزله قريباً من القبر ، أو كان منزله « في بُعد البلاد وأقاصيها ، ولم يمكنه المصير إليه في ذلك اليوم » .

الثانية :

هي التجمع والبكاء . قال الإمام الباقر في شأن البعيد عن قبر الحسين بعد الزيارة :

> « ثم لينذب الحسين ويبكيه ، ويأمر من في داره بالبكاء عليه ، ويقيم في داره مصيبة بإظهار الجزع عليه ، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً في البيوت ، وليعزّ بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام ... قال (مالك الجهني) قلت : فكيف يعزّي بعضهم بعضاً ؟ قال : يقولون : عظَّم ألله أجورنا بمصابنا بالحسين عليه السلام ، وجعلنا وإيّاكم من الطالبين بثأره ومع وليّه الإمام المهديّ من آل محمد »[1] .

فنحن هنا أمام توجيه واضح نحو تجمع هادف إلى غاية محددة هي تجديد الذكرى ، وإعطائها بُعداً شخصياً « عظَّم الله أجورنا » فالمصيبة بالحسين ليست شأناً خاصّاً بآله ، بل هي شأن عام يتعلّق بكل موالٍ لأهل البيت .

وننبّه هنا إلى أن هذا التوجيه نحو ما يفعله البعيد عن كربلاء يوم عاشوراء يدل على أنه بديل لما يجري عند قبر الحسين في يوم عاشوراء ،

(١) كامل الزيارة ، باب : ٧١ ، ص : ١٧٤ ـ ١٧٥ . وقريب منه ما رواه الشيخ الطوسي في مصباح المتهجد بسنده إلى الإمام محمد الباقر .

ففي عهد الإمام الباقر كان المأتم الكبير على الصورة التي وردت في التوجيه يقام عند قبر الحسين ، وكان الذين لا يقدرون على الحضور إلى كربلاء يقيمون مآتمهم في بيوتهم وأحيائهم .

وإذا كان هذا التوجيه خاصاً بما يفعله الشيعي في يوم عاشوراء فإن الرواية قد وردت عن الإمام الباقر أيضاً وفيها توجيه عام للتجمّع وتذاكر أمر أهل البيت من دون تحديد بزمان :

« رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكروا في أمرنا فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما ، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلا باهى الله بهما الملائكة . فإذا اجتمعتم فاشتغلتم بالذكر فإن في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا ، وخير الناس بعدنا من ذكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا »[1].

وهذا النص يدل على أن المأتم الحسيني في عهد الإمام الباقر قد بدأ يأخذ شكل المؤسسة الهادفة التي لا يخضع نشاطها لتحديد زمني معيّن ، وإنما تنتشر في الزمان والمكان ، وتنشيء ـ بالممارسة ـ تقاليدها ، ومصطلحاتها ، وأساليبها .

* * *

ويظهر من النصوص أنه في عهد الإمام جعفر بن محمد الصادق (٨٠ أو ٨٣ ـ ١٤٨) غدت التجمعات المخصصة لذكر أهل البيت ومصائبهم ، وفي مقدمتها مصيبة الإمام الحسين ـ أمراً مألوفاً في أوساط الشيعة .

---

(١)

فقد روي أن الإمام الصادق قال للفضيل بن يسار :

« يا فضيل ! تجلسون وتتحدثون ؟ قال : نعم
سيدي . قال : يا فضيل هذه المجالس أحبّها .
أحيوا أمرنا ، رحم الله أمرءاً أحيا أمرنا »[1].

ونحن نرى أن النصوص الكثيرة التي وردت عن الإمام الصادق في الحثّ على إنشاء الشعر في الحسين وبيان الثواب العظيم لمن أبكى بإنشاده خمسين أو عشرة أو خمسة ... نرى أن هذه النصوص قد ساهمت مساهمة كبيرة في تكوين الباعث نحو التجمع لهذه الغاية ، فإن الإنشاد لا بدَّ له من تجمّع ، وكلما ازداد التجمّع كثافة ازدادت دواعي البكاء .

ويبدو أن إنشاد الشعر في رثاء الحسين قد تطور في هذا العصر فغدا له أسلوب خاص به يشبه النوح أو هو النوح نفسه ، فلم يكن تلاوة وإلقاء للشعر فقط ، بل كانت تدخل فيه عناصر صوتية تزيد من تأثيره العاطفي والنفسي ، يدلنا على ذلك قول الإمام الصادق لأبي هارون المكفوف حين أنشد الإمام بعض مراثي الحسين :

« يا أبا هارون ، أنشدني في الحسين عليه السلام .
قال : فأنشدته فبكى ، فقال : أنشدني كما
تنشدون ــ يعني بالرِّقَّة ــ قال : فأنشدته
(امرر على جدث الحسين فقل لأعظمه الزكية)
فبكى .. »[2].

بل يظهر أن التطور في المأتم الحسيني في هذا العصر قد حقق سمة أخرى هي أنه حمل رجالاً ونساءً على أن يتفرَّغوا لإنشاء الشعر في رثاء الحسين ويتخصصوا في النوح بهذا الشعر ، منهم أبو هارون المكفوف

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٣٣ ، ص : ١٠٤ ــ ١٠٦ .

الذي مرَّ ذكره آنفاً ، ومنهم أبو عمارة المنشد[1].

وإلى جانب هؤلاء المنشدين للشعر النائحين به وجد فريق آخر من رجال المأتم الحسيني في هذا العصر وهم « القصّاص » .

وهؤلاء « القُصّاص » موجودون منذ عهد عثمان . ويبدو أن مهمتهم كانت الجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وتحديث الناس بقصص حروب الفتح ، وسيرة النبيّ (ص) وفضائل الصحابة ، ومواعظ الترغيب والترهيب . وقد استخدم معاوية هذه الفئة لنشر الدعاية له بين العامّة[2].

ويبدو أن المأتم الحسيني ، بعد أن غدا مؤسسة نامية تجتذب مزيداً من الجماهير ، قد غدا من جملة اهتمامات القُصّاص ، أو أنه قد أوجد قصاصه الخاصين به .

وقد وردت إشارة في رواية وردت عن الإمام الصادق تصف حال الناس عند قبر الحسين في ليلة النصف من شعبان ، تدل على أنه قد تكوّن في هذا العصر قُصّاص يدخلون في قصصهم سيرة الحسين ، أو يقصرون قصصهم عليها ، قال :

« بلغني أن قوماً يأتونه (قبر الحسين) من نواحي الكوفة ، وناساً من غيرهم ، ونساءً يندبنه ، وذلك في النصف من شعبان : فمن بين قارئ يقرأ ، وقاصّ يقصّ ، ونادب يندب .. »[3].

ويبدو أن هؤلاء المنشدين والنوّاح والقُصّاص هم الأسلاف الأقدمون

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٣٣ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ . وقد استنشده الإمام الصادق شعر العبدي (أبو محمد سفيان بن مصعب العبدي الكوفي ـ توفي ١٢٠ أو : ١٧٨هـ) .

(٢) لاحظ كتابنا : ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية (الطبعة الثالثة) ص : ٩٠ .

(٣) كامل الزيارة ، باب : ١٠٨ ، ص : ٣٢٥ ـ ٣٢٦ . ويكشف هذا عن أن القيادات الشيعية قد استخدمت الوسائل التي كانت السلطة تستخدمها لنشر الدعاية لها بين الجماهير .

لخطباء المنبر الحسيني الذين جعلوا من الخطابة في مناسبات المأتم الحسيني على مدار السنة ، مهنةً لهم .

وسنعود إلى بحث هذا الموضوع فيما يأتي من هذا الفصل عند البحث عن أدوار المأتم الحسيني .

* * *

وقد استفاد الشيعة في عهد الإمام الصادق من فترة سقوط الدولة الأموية وتأسيس الدولة العباسية ، حيث أن الأمويين شُغلوا بالحروب التي أثارها العباسيون ودعاتهم ضدَّهم ، وأن العباسيين كانوا يستولون على السلطة تحت شعار كونهم أهل البيت ، فلم يكن من الطبيعي عند الناس أن يضيّقوا على الإمام الصادق ، أبرز أهل البيت عند المسلمين ، هذا بالإضافة إلى أن العباسيين كانوا في شغل عن تتبّع نشاط الإمام الصادق وشيعة أهل البيت بتأسيس الدولة من جهة ، ومكافحة الأمويين والقضاء على آخر معاقلهم من جهة أخرى .

تمتع الإمام الصادق والشيعة بقدر كبير من الحرية في هذه الفترة ، فكثرت التوجيهات والتعليمات التي كان الإمام يصدرها ويكمل بها بناء التشيُّع ، وكثرت تجمعات الشيعة ، وطوَّروا مؤسساتهم الثقافية وفي مقدمتها مؤسسة المأتم الحسيني والزيارة .

ولكن أبا جعفر المنصور قضى على هذا النشاط حين لاحق الشيعة والعلويين قتلاً وتشريداً مما اضطرَّ هؤلاء إلى تضييق نشاطهم والتستر به .

* * *

وقد استمرت رعاية أئمة أهل البيت لإرساء المأتم الحسيني يتعهدونها بالدعم والتوجيهات. ويستقبلون بأنفسهم الشعراء والمنشدين، ويعقدون لهم المجالس الخاصَّة لسماع شعرهم وإنشادهم. ويحضرون في هذه المجالس نساءهم وخواص أصحابهم.

وقد أظهر أئمة أهل البيت اهتمامهم الكبير بهذه الإستقبالات للشعراء منذ عهد مبكِّر هو عهد الإمام محمد الباقر، ومن بعده ابنه الإمام جعفر الصادق.

ومن الأسماء البارزة في هذه الإستقبالات الكميت بن زيد الأسدي (٦٠ ـ ١٢٠ هـ) الذي وفد على الإمام الباقر فاستقبله في المدينة فأنشده قصيدته التي مطلعها:

مــن لقلب متيَّم مستهــام ... غــير ما صبــوة ولا أحلام

بل هواي الذي أجن وأبدي ... لبني هاشمٍ أجل الأنام[1]

وجعفر بن عفان الطائي، أبو عبد الله، توفي في حدود سنة ١٥٠ هجرية، استقبله الإمام جعفر الصادق واستنشده شعره في رثاء الإمام الحسين[2].

والسيد الحميري، إسماعيل بن محمد (١٠٥ ـ ١٧٣ أو ١٧٨ هـ) الذي استقبله الإمام الصادق فأنشده قصيدته التي يقول في أولها:

أمــرر عــلى جدث الحسين ... وقــل لأعظمه الزكيــــة

أأعظماً لا زلــــت من ... وطفــاء ساكبــة رويــة[3]

ودعبل بن عليّ الخزاعي (١٤٨ ـ ٢٤٦ هـ) الذي استقبله الإمام عليّ بن موسى الرضا في خراسان، فأنشده قصيدته الرائعة:

---

(١)

(٢) الكشي، محمد بن عبد العزيز. كتاب الرجال.

(٣) أبو الفرج الأصبهاني. الأغاني.

مدارس آيات خلت مـن تلاوة   ومنزل وحي مقفر العرصات [١]

وغير هؤلاء كثير .

وإلى جانب هذا النشاط المباشر في استقبال الشعراء وإقام المآتم في منازلهم واصل أئمة أهل البيت جهودهم في توجيه الشيعة نحو عقد المجالس والإجتماعات للمذاكرة في شأن أهل البيت وفي الشأن الحسيني بخاصة .

ولكن الشيعة لم يتمتَّعوا طويلاً بالحرية النسبية التي أتيحت لهم في عهد الإمام الصادق كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، فقد كان عهد ابنه الإمام السابع موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق عهداً أسود على الشيعة سيموا فيه سوء العذاب من السلطة العباسية التي نشطت أجهزتها في مكافحة نشاط الشيعة وقمع تحركاتهم الثقافية ، ومنها بطبيعة الحال ما يتعلق بالمأتم الحسيني .

وقد بلغ من عنف الإرهاب الذي واجه الشيعة من السلطة وأجهزتها في هذا العهد أن الشيعة اضطرّوا إلى « التقيّة »[٥] على نطاق واسع في حياتهم العامة . بل حتى في حياتهم الخاصة في بعض الحالات حفاظاً على سلامتهم الجسدية .

وقد قضى الإمام موسى بن جعفر فترة طويلة من حياته في السجون العباسية . وتوفي شهيداً في أحد سجون بغداد سنة ١٨٣ هجرية في عهد هارون الرشيد .

ولكن الشيعة استعادوا شيئاً من حرية الحركة في عهد الإمامين الثامن والتاسع : الإمام عليّ بن موسى الرضا (١٥٣ ـ أو ١٤٨ ـ ٢٠٣ هجرية) وابنه الإمام محمد بن عليّ الجواد (١٩٥ ـ ٢٢٠ هـ) . فقد

---

(١) لاغاني والشيخ الصدوق الامالي

اتسم عهد المأمون العباسي بالإعتدال النسبي في التعامل مع الشيعة . ودام جوّ التسامح إلى عهد المعتصم العباسي .

وساعد على إتاحة قدر وافٍ من الحرية للشيعة . أن الإمام الرضا غدا ولياً لعهد المأمون في سنة ٢٠١ هـ . وصهراً له على ابنته أم حبيبة سنة ٢٠٢ هـ . كما أن الإمام محمداً الجواد كان صهراً للمأمون على إبنته أم الفضل .

ومن توجيهات الإمام الرضا في شأن إقامة المآتم قوله :

« من تذكر مصيبتنا ، وبكى لما ارتكب منا كان معنا في درجتنا يوم القيامة . ومن ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون . ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب »[1].

ولكن موقف السلطات تغيّر في عهد الأئمة الثلاثة : عليّ بن محمد الهادي (المدينة : ٢١٢ ـ سامراء : ٢٥٤ هـ) والحسن بن عليّ العسكري (المدينة : ٢٣١ أو ٢٣٢ ـ سامراء : ٢٦٠ هـ) والإمام الثاني عشر المهدي المنتظَر (سامراء : ٢٥٥ هـ ـ) ، فقد كان عهد المتوكل العباسي ومَنْ بعده عهد قسوة وجور في التعامل مع الشيعة وأئمة أهل البيت ، ولم تشهد هذه المرحلة إلا انفراجات بسيطة لا قيمة لها في سير الأحداث ، إلى حين استيلاء البويهيين على السلطة في بغداد في النصف الأول من القرن الرابع .

---

(١) الصدوق : عيون أخبار الرضا و : الأمالي

ولكن قسوة الحكام ـ كتعصُّب العامة الذي سنعرض له فيما يأتي ـ ما كانت لتقف حاجزاً أمام نموّ مؤسسة المأتم الحسيني وتأصّلها في الوجدان . فكان المأتم الحسيني في عهود القسوة والملاحقة من السلطات يقام سرّاً . ولا تؤثّر الأخطار على حماس الشيعة لإقامته باستمرار .
[illegible]

ونرى أن التفسير الصحيح لموقف أئمة أهل البيت من مسألة إحياء الذكرى الحسينية بالشعر ومجالس المذاكرة ، وحثّهم على ذلك هو أن إحياء هذه الذكرى يكشف للناس باستمرار عن الخط الذي انتهجه أئمة أهل البيت في حماية الإسلام والدفاع عنه ، ويظهر للأمَّة تضحياتهم الكبرى في سبيل ذلك ، كما يكشف عن طبيعة القوى التي تناهضهم وتناصبهم العداء ومدى بعدها عن الإسلام ، وتبيِّن أن جوهر الصراع بينهم وبين خصومهم ليس ذاتياً وليس مصلحياً وإنما يعود ، من جهة ، إلى حرص أئمة أهل البيت على إلزام كل حاكم بالأمانة والصدق في تطبيق مبادئ الإسلام في سياساته . ويعود من جهة أخرى ، إلى تناقض المصلحة الشخصية والعائلية للحاكمين مع أهداف أئمة أهل البيت في حماية الأمَّة من الإستغلال وحماية الشريعة من التحريف .

وإحياء الذكرى ، واستعراض أحداثها ، واستعادة شعاراتها وشعارات خصومها ، واستعراض سلوكهم في حياتهم وسياساتهم مع الأمَّة .. كل هذا يتضمَّن إدانة للحكم القائم المنحرف في أي عهد وفي أي زمان ، لأنه الإستمرار القانوني للحكم الذي أدى انحرافه إلى ثورة الحسين وقتله .

وتدل النصوص التي قدمناها في هذا الفصل بوضوح على طبيعة الأهداف والمهمات التي أراد أئمة أهـل البيت تحقيقها من إنشاء هذه المؤسسة .

هذا هو في رأينا المحتوى الحقيقي لدعوة أئمة أهل البيت إلى إحياء هذه الذكرى في المأتم الحسيني وغيره . أما المحتوى العاطفي للمأتم الحسيني فسنعالجه في فصل خاص به عند الحديث عن « ظاهرة البكاء » .

* * *

وإذن فقد أنشأ أئمة أهل البيت مؤسسة المأتم الحسيني . وقد بدأت هذه المؤسسة منذ أقدم العصور الإسلامية نشاطها بشكل محدود . وعزّزت وجودها بعض العوامل المساعدة ، وأعطتها هذه العوامل أسباباً إضافية للنموّ ، وأغنت مضمونها بمحتويات جديدة تتضافر كلها في خدمة الهدف الأساس من إنشائها ، كما أدخلت عليها أساليب جديدة في التعبير والممارسة .

ونذكر فيما يلي ثلاثة أمور نعتبرها من العوامل المساعدة في ترسيخ مؤسسة المأتم الحسيني في الوجدان الشعبي ، وإغنائها ، وتنويع محتواها .

الأول :

الثورات التي انفجرت ضدّ الحكم القائم بعد انبعاث الروح النضالية التي أحيتها ثورة الحسين .

فإن هذه الثورات قد رفعت شعارات الثورة الحسينية لأجل الإثارة وحشد الجماهير لتأييدها ، وجعلت من الثورة الحسينية مناراً وشعاراً . وقد كان هذا عاملاً هامّاً في مدّ الثورة الحسينية بأسباب جديدة للحياة في قلوب الناس وعقولهم .

ولا يقتصر هذا العامل على العصر الأموي وحده ، بل في العصر العباسي أيضاً ، في ثورات بني الحسن وغيرهم ، كان يبدو للناس وكأنّ روح كربلاء هي التي تحرّك هؤلاء الثائرين .

الثاني :

إن الذكرى الحسينية بحكم طبيعتها ذات الإثارة العاطفية من جهة ، وبحكم ما تتضمَّنه وتعلنه من إدانة صريحة للحكم المنحرف من جهة ثانية ، وبحكم توجيه أئمّة أهل البيت لها في هذا السياق من جهة ثالثة قد غدت في عصور كثيرة وسيلة من وسائل المعارضة المستترة للحكم القائم .

فالإنسان الشيعي كان ــ في ظل الحكم المنحرف ــ يعاني من أمرين :

الأول : انه مضطهد ومطارد بسبب عقيدته وموقفه التاريخي .

الثاني : ان الإنسان الشيعي تعلم من مهاج أئمة أهل البيت أن الإسلام عقيدة وشريعة متكاملان ، ولذا فهو لا يقبل التزوير بحال من الأحوال .

وإذن فالوضع الحياتي للإنسان الشيعي وخطه الفكري قد وضعاه في مركز المعارضة ، ولذا فهو بحاجة إلى التعبير عن ذاته وعن مواقفه باعتباره معارضاً ، مع الإحتراز اللازم لتوفير حدّ أدنى من الأمان على ذاته ومصالحه الإقتصادية .

وقد كانت الذكرى الحسينية تحقق له ممارسة المعارضة المستترة ضد الحكم القائم في نطاق آمن نسبياً ، وتحقق لـه أيضاً راحة نفسية تنشأ من أمثلة الأسوة الحسنة بأهل البيت ، هذه الأمثلة المضيئة التي تتضمنها الذكرى الحسينية .

الثالث :

رد الفعل ضد موقف الحكام الطغاة من الذكرى الحسينية وشعائرها .

فلقد أدرك الحكام الطغاة ، منذ العصر الأموي وحتى العصر الحديث ، ماذا تعني إقامة مجالس الذكرى من إدانة لتجاوزاتهم وظلمهم ، فحاولوا الوقوف في وجهها وقمعها .

نجد هذا في العصر الأموي ، ونجده في العصر العباسي ، ونجده في العهود السياسية التي أعقبت العصر العباسي ، حيث كان للشيعة وجود[١] .

وقد ذكرنا في الأبحاث السابقة شواهد كثيرة على ما كان يحدث من قمعٍ سلطوي للشيعة حين يمارسون ، بأي شكل أو مظهر ، إحياء الذكرى الحسينية . وسير في ثنايا الأبحاث الآتية شواهد أخرى .

لقد واجهت الذكرى الحسينية ـ زيارة ومآتم ـ في أكثر العهود السياسية قمعاً ومنعاً واضطهاداً لمن يمارسونها . وقد شهدت انفراجات ضئيلة في عهود بعض الحكام لم يكن الشيعة يتمتعون فيها إلا بقدر محدود من حريتهم سرعان ما يستلبه منهم عهد جديد أو حاكم جديد ، يمنع من إقامتها في بعض الأحيان ، أو يقيد إحياءها بقيود كثيرة ثقيلة في أحيان أخرى ، وذلك لأجل إفراغها من محتواها النقدي للسلطة القائمة .

ولكن أعمال القمع كلها لم تفلح في القضاء على شعائر هذه الذكرى بل كانت المآتم والإحتفالات تقام في مواعيدها سراً في أشد العهود قسوة وظلماً .

ولعلَّ مما له دلالة كبيرة في هذا الشأن أن الوقوف في وجه المآتم والمنع من إقامتها أو وضع القيودّ على حرية ممارستها ـ باعتبار ما تمثله من معارضة للحكم ـ سياسة اتَّبعها الحكام الشيعة وغيرهم ، ففي

---

(١) نأمل أن نوفق إلى عمل ملحق لهذا الكتاب يتضمن سجلاً وثائقياً لمواقف الحكام في العصور الإسلامية من الذكرى الحسينية ، منذ القرن الأول الهجري إلى العصر الحديث .

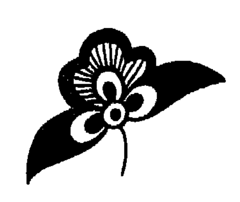
العراق وإيران وغيرهما من البلاد الإسلامية كان يحدث حين تكون المسؤولية الأولى في الدولة بيد حاكم شيعي أن تتبع في بعض الحالات سياسة المنع أو التضييق ، ولا يختلف الحال من هذه الجهة عما إذا كان المسؤول الأول في الدولة غير شيعي ، وهذا ما يؤكد أن الذكرى الحسينية في جوهرها ليست مذهبية .

هذا الموقف من السلطة ضد المآتم الحسينية كان دائماً ولا يزال يولِّد رد فعل يدفع الإنسان الشيعي إلى التمسك بها والحرص عليها . ولعلَّ شعور المسلم الشيعي في هذه الحالة هو أن السلطة تريد أن تجرده من ملاذه الوحيد الذي ينفس فيه عن عاطفته الحزينة الغاضبة وكبته النفسي ، ويعبّر من خلاله عن آرائه في مواقف حاكميه وتصرّفاتهم .

* * *

هذه هي ، في رأينا ، العوامل المساعدة التي تضافرت على تعزيز مركز المأتم الحسيني في الوجدان الشعبي ، وأعطته قوّة الثبات والإستمرار على الرغم من العوامل المضادة عبر العصور ، وأمدَّته بإمكانات التطوّر والتجدد جيلاً بعد جيل

هذا بالإضافة إلى السبب الأساس في وجوده ونشأته ، وهو توجيه أئمة أهل البيت لشيعتهم نحو إنشاء هذه المؤسسة الثقافية الكبرى .



أدوار المأتم الحسيني

لم يوجد المأتم الحسيني ، حين أسس ، مكتملاً بطبيعة الحال ، ولم يثبت على صيغة واحدة في العصور المتعاقبة ، بل تطور وتغير خلال الفترات التاريخيَّة ، ودخلته عناصر لم تكن موجودة فيه من قبل .

ونقدّر أن المأتم الحسيني قد مرّ ـ منذ أنشئ حتى الآن ـ في ثلاثة أدوار كبرى تمثل حقباً تاريخيَّة وثقافية مرت على الإنسان مسلم بوجه عام وعلى المسلم الشيعي بوجه خاص فتركت آثارها على مؤسساته ومنها المأتم الحسيني ، وإن كان كل دور من هذه الأدوار الكبرى الثلاثة التي سنفصّلها بالتغيرات أيضاً مما قد يحمل الباحث على تقسيم كل دور منها إلى أدوار متعددة .

أما الأدوار الثلاثة التي نقدّر أن المأتم الحسيني قد مرَّ بها منذ أنشئ حتى الآن فهي كما يلي :

الدور الأول ـ بدأ من مرحلة ما بعد الثورة أي ما بعد أول سنة إحدى وستين هجرية ، واستمرَّ إلى حين سقوط بغداد في يد هولاكو أو قبله بقليل .

الدور الثاني ـ بدأ من حين سقوط بغداد أو قبله بقليل ، واستمرّ طيلة القرون المظلمة في تاريخ المسلمين إلى العصر الحديث .

الدور الثالث ـ من بدايات العصر الحديث حتى الآن .

هذه هي الأدوار التي نقدِّر أن المأتم الحسيني مرَّ بها منذ أنشئ حتى الآن .

ليس لدينا مراجع تعرض لمراحل تكوّن المأتم وتطوراته التي مرَّ بها عبر التاريخ ، ومضمونه الثابت ومضمونه المتغيّر .

وقد بيَّنا في مدخل هذا الكتاب أن هذا البحث عن ثورة الحسين في الوجدان الشعبي بحث له شرف الرِّيادة ، حيث أننا لا نعرف بحثاً في الموضوع قبل بحثنا هذا ، ولذا فإن بحثنا هذا يعاني من الفقر في المصادر التي تجعله سهلاً ميسّراً .

وقد يسَّر الله لنا الإهتداء إلى ما نعتبره مصدراً أساساً لهذا البحث وإلى ما نعتبره مصدراً مساعداً للمصدر الأساس ، بالإضافة إلى المصادر العامة في التاريخ والحضارة والتطور الفكري .

أما ما نعتبره مصدراً أساساً فهو كتب المقتل ، ولذا فإننا سنعتمد على كتب المقتل في تحليلنا الآتي للأدوار التي مرَّ بها المأتم الحسيني ، ومضمون المأتم في كل دور منها .

وأما المصدر المساعد فهو شعر الرثاء الحسيني في مختلف العصور الإسلامية ، حيث أنه يعكس ـ من بعض الجهات ـ حالة المأتم في عصره ، وإن كان يفقد الدقة النسبية في تصوير واقع المأتم الحسيني لأن العامل الشخصي والذاتي فيه يغلب على الجانب الموضوعي الذي يفترض أن سمة الكتابة النثرية في كتب المقتل .

والإعتبار الذي حملنا على اعتبار كتب المقتل مصدراً أساساً لهذا البحث هو ما نعلمه من أن المؤلفين الشيعة والمتعاطفين مع أئمة أهل البيت من المسلمين غير الشيعة قد كتبوا كثيراً في مقتل الحسين عليه السلام . وإذا كان البعض منهم قد كتب في هذا الموضوع استجابة لحافز علمي محض ، فإننا نقدّر أن هذا الفريق من المؤلّفين في هذا الموضوع نادر وقليل ، ولا نشك في أن أكثر المؤلفين في هذا الموضوع قد كتبوا استجابة لحافزين متكاملين ! : أحدهما حافز التقوى الدينية

والولاء العاطفي لأهل البيت . وثانيهما تلبية الحاجة الجماهيرية إلى مادة مكتوبة مبرمجة لمقتل الحسين لاستعمالها في التجمعات والمجالس التي تعقد لإحياء المأتم الحسيني .

فهذه الكتب ـ لهذا الإعتبار ـ تعكس بصدق موضوعي ما كان عليه المأتم الحسيني في العصور التي دُوِّنت فيها ، إذ أنها بلا شك مرآة للنظرة العامَّة إلى المأتم ، ومحتواه الثقافي ، والعناصر المكوِّنة لهذا المحتوى .

ونورد فيما يلي بعض النصوص من بعض كتب المقتل تشهد بأن هذه الكتب قد وضعت لتقرأ في المآتم الحسينية .

قال ابن نما الحلي (توفي ٦٤٥) في مقدمة كتابه مثير الأحزان :

« .. فيا ذوي البصائر والأفهام ، ويا أرباب العقول والأحلام ، أظهروا شعار الأحزان ، والبسوا الجزع على سادات الإيمان ، واقتدوا بالرسول في محبة بني الزهراء البتول ... ونح أيها المحبّ لآل الرسول نوح الفاقدة الثكول ، وابك بالدموع السجام على أئمة الإسلام ، لعلك تواسيهم بالمصاب بإظهار الجزع والإكتئاب والإعلان بالحنين والإنتحاب ... فأسعدوني بالنياحة والعويل واندبوا لمن اهتزَّ لفقده عرش الجليل ، واسكبوا العبرات على الغريب القتيل .

... فقد رويت عن والدي رحمة الله عليه أن الصادق (ع) قال : من ذكرنا عنده في مجلس بشطر كلمة أو فاضت عينه رحمة لنا ورقة لمصابنا مثل جناح بعوضة غفِرت له ذنوبه ... فوضعت هذا المقتل متوسطاً بين المقاتل ...

ترتاح القلوب إلى عذوبة ألفاظه ، ويوقظ
الراقد من نومه وإغماضه ، وينبّه الغافل عن
هذا المصاب والذاهل عن الجزع والإكتئاب ...
فإن كنتم أيها السامعون : قد فاتكم شرف
تلك النصرة ، وحرمتم مصادمة خيول تلك
الكسرة ، فلم تفتكم إرسال العبرة على السادة
من العترة . ولبس شعار الأحزان على الأسرة.. »[1]

وقد نقل ابن الغوطي في كتابه « الحوادث الجامعة » بعض الأحداث الدالة على أن كتب المقتل كانت تؤلف لتتلى في مجالس المأتم مما يعني أن ذلك كان ظاهرة عامّة وثابتة في أسلوب إحياء المأتم الحسيني ، وهو ما يعزّز رأينا باعتبار كتب المقتل مصدراً أساساً لبحثنا ، قال :

« وفي سنة ٦٤١ هجرية تقدم المستعصم إلى
جمال الدين عبد الرحمان بن الجوزي المحتسَب
بمنع الناس من قراءة المقتل في يوم عاشوراء
والإنشاد به في سائر المحال بجانبي بغداد ،
سوى مشهد موسى بن جعفر ... »

« .. وفي محرم سنة ٦٤٧ تقدم المستعصم بمنع
أهل الكوفة والمختارة من النياحة والإنشاد
وقراءة مقتل الحسين خوفاً من تجاوز ذلك
إلى ما يؤدّي إلى وقوع الفتنة »[2].

(١) مثير الأحزان ، ص : ٣ ـ ٦ . كذلك ترد عبارات مماثلة دالة على ما ذكرنا في مقدمة كتاب (اللهوف في قتلى الطفوف) لعلي بن موسى المشهور بـ (ابن طاووس) المتوفي سنة ٦٦٤هـ . وغيره من كتب المقتل .

(٢) الحوادث الجامعة ، ص : ١٨٣ و ٢٤٨ .

من هنا فإننا في بحثنا عن الأدوار التي مرَّ بها المأتم الحسيني ، ومحتواه الثقافي وعناصره في كل دور منها سنستعين بكتب المقتل من حيث كونها تمثل الفترات التي كتبت فيها ، وتمثل الثورة الحسينية في الوجدان الشعبي في كل فترة من هذه الفترات . كما سنستعين بالشعر الرثائي لهذه الغاية ، إلى جانب المصادر العامة لتاريخ الحضارة والتطور الفكري .

* * *

في هذه الأدوار الثلاثة اشتمل المأتم الحسيني باستمرار على عنصر ثابت ، كما وجدت فيه عناصر متغيّرة .

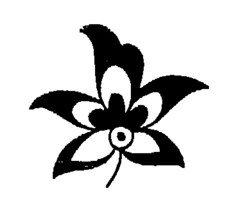
أمّا العنصر الثابت في المأتم الحسيني منذ أنشئ حتى وقتنا الحاضر فهو قصة ثورة الحسين مع التركيز على الجانب المأساوي منها : غدر الكوفيين وخياناتهم ، غلوّ الأمويين في ظلمهم وتنكّرهم للقيَم ، منع وصول الماء إلى المخيم الحسيني وما أدّى إليه ذلك من عطش الصبية والنساء والمقاتلين والخيل ، وحوار النسوة والأطفال مع الحسين أو غيره حول مسألة الماء والعطش وحوار الحسين مع أصحابه أو إخوته أو أخواته أو الجيش الأموي ، إصرار ابن زياد على إذلال الحسين وإباء الحسين ومن معه للضيم ، أذن الحسين لأهل بيته وأصحابه بتركه والنجاة بأنفسهم ورفض هؤلاء لذلك معلنين بعبارات عظيمة التأثير عزمهم على مواساته حتى الموت قتلاً ، استشهاد أصحابه ثم أهل بيته ، وقتل الأطفال والصبيان . ويبلغ المأتم ذروته بذكر مصرع الحسين مع تفصيلات دقيقة عن هذا المشهد وعن كل مشهد مما ذكرناه من مشاهد كربلاء وما لم نذكره .

يضاف إلى قصة ثورة الحسين ، في العنصر الثابت في المأتم ، نقد السلطة حين تكون مبرّرات النقد موجودة ، فإن نقد السلطة بشكل أو بآخر عنصر ثابت في المأتم الحسيني أيضاً .

في العهود الأموية والعباسية كان النقد في كثير من الأحيان صريحاً ، إذ أن هذه المآتم كانت تقام سراً في ذلك الحين . وقد يكون النقد بالإيماء والإشارة حين يكون ثمة مِن رجال السلطة المتعاطفين مع الشيعة من يخشى أن يعترض على هذا الموقف .

ولا بدّ أن إدانة السلطة كانت تتم بعد النقد باللعن . وقد غدا لعن بني أميَّة ومَنْ سار سيرتهم سمة ثابتة في المأتم الحسيني .

هذا ما نقدّر أنه كان يحصل في العصور الأموية والعباسية . أمّا بعد ذلك فقد كانت المآتم في عهود الحرية تقام جهاراً ، وكان نقد بني أُميَّة وبني العباس ولعنهم يحصل علناً دون أن يثير اعتراضاً من السلطة الفعلية ، وذلك لأنه غدا نقداً مجرّداً من مضمونه السياسي . وإن كان نقد الماضين في كثير من الحالات يكون نقداً غير مباشر للسلطة القائمة ، من باب « إيّاك أعني واسمعي يا جارة » .



الدور الأول

لقد بدأ المأتم الحسيني في هذا الدور بشكل بسيط كما ذكرنا في مدخل هذا البحث ، ولكنه تطور خلال هذا الدور تطوراً شكلياً ونوعياً .

أمّا من الناحية الشكلية فنقدّر أنه غدت للمأتم أوقات ثابتة ، أي أنه دخل في صيغة زمنية فغدا نشاطاً ثقافياً مبرمجاً من الناحية الزمنية .

وهذا البرنامج الزمني يتكوّن :

أولاً ـ من المواعيد المتّصلة بالذكرى الزمنية لثورة الحسين ، وهي الأيام العشرة الأولى من شهر محرم القمري (الشهر الأول من شهور السنة الهجرية) . فبعد أن كان اليوم العاشر من المحرم (يوم الواقعة) هو الموعد الزمني ، غدت ـ في فترة متأخرة من هذا الدور ـ أيام محرم الأولى (من اليوم الأول إلى اليوم العاشر) هي الموعد الزمني . وهذا يعني أن المساحة الزمنية لأعمال المأتم ومظاهر الحزن قد اتّسعت عما كانت عليه في بداية تأسيس المأتم الحسيني .

ثانياً ـ من الأيام التي غدت مواسم لزيارة الحسين . وأبرز تلك الأيام ـ فيما نقدّر ـ هو النصف من شعبان ليله ونهاره .

يدلنا على ذلك بعض النصوص القديمة الصادرة عن الإمام الباقر محمد بن عليّ يحثّ فيها على زيارة الحسين في النصف من شعبان ، وما صدر عن الإمام الصادق في هذا الشأن أكثر[1] .

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٧٢ ، ص : ١٧٩ ـ ١٨١ .

ويبدو من نصّ تقدم ذكره رواه عبد الله بن حماد البصري عن الإمام الصادق[1] أن النصف من شعبان كان مناسبة كبرى من مناسبات المأتم الحسيني .

ويلي ليلة ويوم النصف من شعبان في الأهمية ، من حيث إقامة المأتم الحسيني . الأيام الأخرى التي وردت في السُّنَّة عن أئمة أهل البيت بزيارة الحسين فيها . مثلاً : يوم عرفة ، وهو اليوم التاسع من شهر ذي الحجة (الشهر الثاني عشر من السنة الهجرية) وليلة عيد الفطر (أول شهر شوال : الشهر العاشر من شهور السنة الهجرية) وأول يوم من شهر رجب[2] (الشهر السابع من شهور السنة الهجرية) ومناسبات أخرى .

فإن هذه الأيام كانت مواسم جامعة يلتقي فيها عدد كبير من الناس لزيارة الحسين . وإذا جاز لنا أن نعتبر الصورة التي وردت في رواية عبد الله بن حماد البصري نموذجاً فإن لنا أن نذهب إلى أن هذه المواسم كانت مواسم كبرى للمأتم الحسيني إلى جانب كونها مواسم للزيارة ، فقد كانت تعقد الحلقات والتجمعات التي تتلى فيها قصائد المدح لأهل البيت والرثاء للحسين وآله وصحبه ، وتذكر وقائع معركة كربلاء .

ولنا أن نذهب إلى أن المأتم في هذه المناسبات لم يقتصر على مشهد الحسين في كربلاء ، بل كان يحصل في كثير من البلدان التي يقطنها الشيعة في هذه الأيام التي وردت الزيارة فيها ، فقد كان الشيعة الذين لا يتمكنون من الوصول إلى كربلاء يزورونه عن بعد ، وكانت الزيارة مناسبة لإقامة المأتم في بيوت أولئك الشيعة البعيدين عن كربلاء بدلالة

---

(١) كامل الزيارة ، باب : ٤٩ ، ص : ١٣٣ – ١٣٥ .

(٢) كامل الزيارة (عرفة) باب : ٧٠ ، ص : ١٦٩ – ١٧٣ . والنصوص عن الإمام الصادق . (ليلة الفطر) باب : ٧٠ ، رقم الحديث : ٦ (أول يوم من رجب) باب : ٧٣ ، ص : ١٨٢ فيه حديث واحد عن الإمام الصادق ذكر فيه أول رجب باعتباره ذا أهمية ثانوية بالنسبة إلى يوم عرفة . وحديث عن الإمام الثامن علي بن موسى الرضا .

الرواية التي قدّمناها في أول هذا الفصل عن الإمام محمد الباقر [١]
وفيها توجيه للشيعة البعيدين عن كربلاء في يوم عاشوراء نحو إقامة المأتم.

بل ان ثمة نصاً صريحاً أورده السيد محسن الأمين يدل على أن مواسم الزيارة كانت مواسم للمأتم الحسيني أيضاً يقصد إليه فيها قصداً. قال :

« عن كتاب المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي أنه كان بالحائر من كربلاء رجل يدعى ابن أصدق ينوح على الحسين (ع) فبعث أبو الحسن الكاتب إلى هذا المنشد أبا القاسم التنوخي عليّ ابن محمد بن داود والد مؤلف النشوار لينوح على الحسين بقصيدة لبعض الشعراء الكوفيين ، وأولها :

أيها العينان فيضا   واستهلا لا تغيضا
لم أمرضه فأسلو   لا ولا كان مريضا

« قال أبو القاسم : وكان هذا في النصف من شعبان والناس إذ ذاك يلقون جهداً جهيداً من الحنابلة إذا أرادوا الخروج إلى الحائر ، فلم أزل أتلطف حتى خرجت فكنت في الحائر ليلة النصف من شعبان [٢] ».

ولعلَّ هذا كان فيما بين نهاية القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ، فإن أبا القاسم التنوخي ولد سنة ٢٧٨ ، وتوفي سنة ٣٤٢ هـ .

وقد كانت هذه المواسم التي تتكرّر في كل عام تجمع أصنافاً من الناس من جهات شتّى ومن بلدان متنوعة ، ومن مستويات ثقافية

(١) كامل الزيارة ، باب : ٧١ ، ص : ١٧٤ ــ ١٧٥ .
(٢) أعيان الشيعة ، ١٧ / ٣٢٠ .

متنوعة . وكان هذا يؤدي إلى توحيد النظرة إلى الثورة الحسينية ، وإلى إغناء الوجدان الشعبي بدفقات جديدة من التأثير العاطفي والنفسي يرسخ في هذا الوجدان تاريخ الثورة وشعاراتها وإلى نشر فكرة المأتم في مناطق لم تكن تأصّلت فيها بعد ، فتؤسس المآتم في مناطق جديدة من العالم الإسلامي في كل عام .

لقد خدمت مؤسسة الزيارة مؤسسة المأتم الحسيني خدمة كبرى على صعيد ترسيخ الشعور بالقضية الحسينية في الوجدان الشعبي ، وعلى صعيد تأسيس المآتم في أصقاع جديدة عاماً بعد عام .

* * *

كما أن ثمة تطوراً شكلياً آخر دخل على ممارسة المأتم الحسيني ، وذلك بأن غدا ثمة رجال ونساء متخصصون في تلاوة سيرة الحسين ، وآخرون متخصصون في إنشاء الشعر المقول في رثائه بأسلوب النوح .

فبعد ان كانت السيرة حواراً بين مجتمعين غدت نصّاً يتلى ويستمع إليه الآخرون . والذين يتولون التلاوة هم « القُصاص » . وقد وردت الإشارة إليهم في إحدى روايات الزيارة الحاكية عما يحدث في كربلاء في النصف من شعبان وهي رواية عبد الله بن حماد البصري التي قدمنا ذكرها . والنصوص التي يتلوها هؤلاء القصاص هي كتب المقتل ، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في روايات تاريخية ، حكينا بعضها آنفاً ، عما كان يحدث في أيام المستعصم العباسي ، كما ذكرنا نصاً من داخل كتب المقتل صريحاً في الموضوع .

وبعد أن كان الشاعر ينشد قصيدته ، أو راوية الشاعر ينشد قصيدة شاعره في مجتمع تكوّن بالصدفة أو تكوّن على عجل غدا ثمة رجال ونساء متخصصون يحفظون شعراً كثيراً مما قيل في رثاء الحسين ومدح

أهل البيت ، وتقام تجمعات مقصود إليها ، هادفة إلى إحياء الذكرى الحسينة ، ويستدعى النائح أو النائحة فينشد الشعر بطريقة خاصة فيها مؤثرات صوتية تخدم هدف البكاء الذي هو من أهداف المأتم الحسيني .

وتذكر المراجع عرضاً أسماء بعض النواح المتخصصين والنائحات :

١ ـ فقد بعث أبو الحسن الكاتب أبا القاسم التنوخي عليّ بن محمد بن داود إلى منشد يدعى « عليّ بن أصدق الحائري » لينوح على الحسين في كربلاء ليلة النصف من شعبان بقصيدة لبعض الكوفيين[١].

وأبو القاسم التنوخي ولد سنة ٢٧٨ وتوفي سنة ٣٤٢ هجرية . وإذن ففي نهايات القرن الثالث أو بدايات القرن الرابع كان يوجد نوّاح متخصّصون يتمتّعون بشهرة تتجاوز بلدانهم

٢ ـ ورد اسم « ذرَّة النائحة » عند النيسابوري كما ذكر ذلك الشيخ المفيد في أماليه (توفي سنة ٤١٣) .

٣ ـ وكان أحمد بن المزدّق النائح حياً في سنة ٣٤٦ ، وكان . فيما يبدو ، يتمتع بشهرة لا بأس بها في بغداد [٢].

٤ ـ وكان ثمة نائح محترف في بغداد إسمه أبو القاسم عبد العزيز الشطرنجي ، وينوح عند الحسين في كربلاء . ولا بد أنه كان من الأحياء بين نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري ، لأن ذكره ورد بمناسبة النوح في قصيدته للناشئ الصغير (عليّ بن عبد الله بن الوصيف/ ٢٧١ ـ ٣٦٥ هـ) [٣] .

٥ ـ وكان ببغداد نائحة مجيدة حاذقة اسمها « خلّب » تنوح بقصيدة الناشئ ، وكانت حيَّة سنة ٣٢٣ هـ ، وأمر بقتلها البربهاري

(١) أعيان الشيعة ، ١٧ / ٣٢٠.

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء وبغية النبلاء : ١٦١ .

(٣) معجم الأدباء : ٥/٣٣٥ .

(توفي : ٣٢٩ هـ)[1] .

٦ ـ وقد كان في مصر الفاطمية في القرن الرابع الهجري فئة من الناس متخصصة في النوح والإنشاد . ولنا أن نفترض أن الأمر ذاته كان حاصلاً في سورية والعراق . ويصوِّر النص التالي ما كان عليه الحال في مصر :

« وفي يوم عاشوراء من سنة ست وتسعين وثلاث مائة جرى الأمر فيه على ما يجري في كل سنة من تعطيل الأسواق ، وخروج المنشدين إلى جامع القاهرة ، ونزولهم مجتمعين بالنوح والنشيد . ثم جمع بعد هذا اليوم قاضي القضاة عبد العزيز بن النعمان سائر المنشدين الذين يتكسَّبون بالنوح والنشيد ، وقال لهم : لا تلزموا الناس أخذ شيء منهم إذا وقفتم على حوانيتهم ، ولا تتكسَّبوا بالنوح والنشيد ، ومن أراد ذلك فعليه بالصحراء »[2] .

هذا التطوّر الشكلي في ممارسة المأتم هو من التغييرات التي حدثت في أثناء الدور الأول من أدوار المأتم الحسيني . فلا شك في أنه لم يكن ثمة منشدون ولا قُصاص يتلون نصوصاً مكتوبة عندما بدأ هذا الدور في القرن الأول ، وإنما دخل هذا التطور فيما بعد عندما أخذ المأتم صفة المؤسسة ذات المواعيد الزمنية وذات التقاليد ، وعندما أخذت هذه

---

(١) بغية النبلاء : إسمه قتيبة أبو بهاري ـ وأعطاه اليافعي لقب « شيخ الحنابلة » وقال « . فنودي أن لا يجتمع اثنان من أصحابه وحبس منهم جماعة » إلا أن اليافعي ذكر أن وفاته كانت في سنة ٣٢٣هـ / مرآة الجنان ـ ج٢ . ص : ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٢) الخطط للمقريزي وتاريخ أبو الفداء .

المؤسسة ـ نتيجة لذلك ـ تنشئ جدولها الزمني . ووسائلها ، وجهازها البشري .

وسنرى أن القاصّ الذي كان يقوم بمهمّة التعريف التاريخي بالثورة ويخاطب من خلال قصصه العقل والعاطفة . وأن المنشد الذي كان يستثير عواطف سامعيه بالشعر الرثائي ـ سنرى أن هذين الرجلين قد اتحدا في عهد تالٍ ـ في الدور الثاني ـ في خطيب المنبر الحسيني الذي جمع بين وظيفة القاصّ ووظيفة المنشد .

وفي أواسط هذا الدور انتشرت الرقعة الجغرافية للمأتم الحسيني في مناخ الحرية النسبي الذي أتاحه وصول قوى سياسية شيعية إلى الحكم في كثير من البلاد الإسلامية .

فقد بدأ الحمدانيون منذ سنة ٣٣٣ هـ في بسط سيطرتهم على سوريا والموصل ، وازدهر التشيع في ظلّ حكمهم . وقد ازدهر بطبيعة الحال تبعاً لذلك الفكر الشيعي والمؤسسات الشيعية ، فغدت حلب مركزاً للفقه الشيعي كما غدت مقصداً للمثقفين والعلماء والشعراء الشيعة . ولا بد أن المأتم الحسيني قد نال حظاً من هذا الإنفراج أتاح للقيّمين عليه أن يمارسوه بحرية وأن يطوّروه شكلاً ونوعاً .

لقد ازدهر شعر الرثاء الحسيني في هذا المناخ . وقد عكس هذا الشعر الرثائي الذي أنشئ في ظل الحمدانيين إهتمامات الناس المتزايدة بمؤسسة الزيارة كما قدمنا ذكر ذلك وشواهده عند الحديث عن الزيارة في شعر الرثاء الحسيني . وهذا يحمل على الإعتقاد بأن المأتم قد نال حظاً كبيراً من ذلك سيما بعد ان سيطر الفاطميون على مصر التي تؤثر وتتأثر بالمنطقة السورية .

قال الإستاذ محمد كرد علي في كتابه خطط الشام عند الحديث عن فرقة المتاولة أي الشيعة عندما ذكر مأتم الحسين :

ويجتمع الشيعة في أيام عاشوراء ، فتقيم المآتم على الحسين بن عليّ شهيد كربلاء وعهدهم بذلك بعيد يتصل بعصر الفاجعة ... والظاهر من سيرة ديك الجنّ الحمصي في كتاب الأغاني أن هذه الإجتماعات للمآتم كانت معروفة في زمانه »[1] .

* * *

وفي الوقت الذي غدا الحمدانيون فيه أسياد سوريا كان البويهيون الشيعة قد سيطروا على العراق وإيران مجردين الخليفة العباسي تدريجياً من كل سلطان فعلي ، وقد أتاح ذلك لموطن المأتم الحسيني الأم أن ينعم بحريّة طالما فقدها في ممارسة الشعائر الحسينية ، وهكذا تطور المأتم الحسيني شكلاً ونوعاً في العراق وإيران تطوراً كبيراً .

ويبدو أن البويهيين لم يجهروا بموقفهم الشيعي الواضح في أول الأمر فلم يجعلوا الدولة طرفاً في هذه الممارسات المأتمية وإنما تركوا للناس حرية ممارستها ، ولكن ما إن مضى على سلطانهم عقدان من السنين حتى جعلوا من المأتم الحسيني شأناً من شؤون الدولة .

قال ابن الاثير في أحداث سنة ٣٥٢ :

« في هذه السنة أمرت الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم في العاشر من محرم ويعطلوا

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام : ٢٥١ .

الأسواق والبيع والشراء ويظهروا النياحة على
الحسين ففعل الناس ذلك ولم يكن للسُّنَّة قدرة
على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان منهم »[1].

ومن المعلوم أن المأتم الحسيني في العراق لم يبدأ في هذا الوقت وإنما يعود إلى أقدم العصور الإسلامية كما ذكرنا فيما سبق وإنما انتشر واتسع في هذا العصر . وغدا في أيام البويهيين عملاً رسمياً .

وربما كان تأخر البويهيين في إعلان المأتم مؤسسة رسميَّة ناشئاً من مراعاتهم ، في بداية تأسيس دولتهم ،لمشاعر فريق من رعاياهم من غير الشيعة ، فقد كان الحنابلة عشية استيلاء البويهيين على السلطة يتعصَّبون على هذه المآتم ويقاومونها ، وكانوا يستخدمون العنف في معارضتهم للنشاط الشيعي في هذا الحقل ، وثمة نصوص تاريخية كثيرة دالة على ذلك منها ما جاء في كتاب بغية النبلاء : :

« كان ببغداد نائحة مجيدة حاذقة تعرف
بخلّب تنوح بقصيدة الناشئ فسمعناها في دور
بعض الرؤساء ، لأن الناس إذ ذاك كانوا لا
يتمكنون من النياحة إلا بعز سلطان أو سراً
لأجل الحنابلة .. »[2].

وكان هذا الحادث سنة ٣٢٣ هـ أي قبل سيطرة البويهيين بعقد من السنين .

وقد تقدم آنفاً النص المصرح بأن « الناس كانوا يلقون جهداً جهيداً من الحنابلة إذا أرادوا الخروج إلى الحائر ، وقلنا إن هذا الوضع كان

---

(١) الكامل . ومن الطريف ما ذكره في سنة ٣٨٩ عن رد الفعل السني على المأتم الحسيني . قال (وكذلك عمل السنة في ١٨ محرم مثل ما عمل الشيعة يوم عاشوراء ، وقالوا هو يوم قتل فيه مصعب بن الزبير) .
(٢) بغية النبلاء .

فيما بين نهاية القرن الثالث وأوائل القرن الرابع .

فكان الحنابلة إذن يعارضون بالعنف الشعائر الحسينية متمثلة في المأتم والزيارة ؛ وعبارة ابن الأثير السالفة (ولم يكن للسنة قدرة على المنع لكثرة الشيعة) غير دقيقة ، فلم يكن موقف السنَّة موقف المعارضة بل كان جلّ السنَّة في العراق يشاركون في المآتم ، وكان المعارضون من السنَّة لهذه الشعائر فريقاً صغيراً هم طائفة الحنابلة .

ويبدو أن هذه الصدامات الطائفية بسبب المأتم الحسيني قد بدأت في وقت مبكّرٍ بالنسبة إلى هذا العصر ، وذلك حين بدأ الشيعة في العصر العباسي يحاولون ممارسة الشعائر الحسينية بصورة علنية وخاصة في شهر محرم ، فقد قال ابن تغري بردي في أحداث سنة أربع وسبعين ومائة :

«.. وفيها وقعت العصبية وثارت الفتن بين أهل السنَّة والرافضة»[1].

ولم يذكر السبب في ذلك ، ومن الراجح أن يكون السبب ما ذكرنا .

* * *

وقد عرفت مصر المأتم الحسيني منذ عهد مبكّرٍ جداً ، فقد خشيت الإدارة الأموية في الحجاز من عواقب النشاط الذي كانت تبذله السيدة زينب في المدينة بعد عودتها من كربلاء ، حيث أنها من خلال المآتم العائلية كانت تؤجّج في الحجاز روح الثورة في مجتمع متحفّزٍ لها ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٧٧ ـ أحداث سنة : ١٧٤هـ . وقد ذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (٢/٦٨ ـ في أحداث سنة : ١٧١ أن الرشيد العباسي في هذه السنة ١٧١هـ (أخرج من كان ببغداد من العلويين إلى المدينة) ويبدو أن هذا إجراء سياسي يستهدف الحيلولة دون تأثير وجودهم في نشر التشيع والإتجاهات الموالية للعلويين والمعارضة للعباسيين في أوساط الجماهير العراقية والإيرانية التي كانت قياداتها الفاعلة ثقافياً وسياسياً موجودة في بغداد ، بخلاف الحال في المدينة حيث لم تكن مركزاً سياسياً في الدولة .

فكتب عمرو بن سعيد بن العاص حاكم المدينة إلى يزيد يخبره بمخاوفه من عواقب حركة السيدة زينب اذا استمرت في نشاطها . وقال :

« إن وجود زينب بين أهل المدينة مهيّج للخواطر وانها فصيحة عاقلة لبيبة . وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين » .

ويبدو أن أمراً قد صدر بسفر السيدة زينب إلى خارج الحجاز . وهذه النقطة في تاريخ السيدة غامضة . فكيف صدر الأمر بالسفر ؟ ولماذا اختارت مصر – كما هو الراجح – دون غيرها من البلاد ؟ هذا ما لا تسعفنا المصادر ببيان حقيقة الحال فيه . الذي نعرفه من المصادر أن السيدة قد وصلت إلى مصر في شعبان سنة ٦١ هـ ، أي بعد واقعة كربلاء بحوالي ثمانية أشهر ، وأن مسلمة بن مخلد الأنصاري عامل مصر استقبلها مع أعيان المسلمين بالبكاء والعزاء في بلبيس ، ومضى بها مسلمة فنزلت عنده ، وأقامت ما يقرب من سنة بعد وصولها ، وتوفاها الله إليه في اليوم الرابع عشر من شهر رجب سنة٦٢ هجرية .

وربما كان اختيار الأمويين لمصر منفى للسيدة زينب ناشئاً من الإعتقاد بأن أي نشاط دعائي تقوم به في مصر سيكون محدود التأثير على استقرار الحكم الأموي فيها ، فمصر بعيدة عن أحداث العراق ، والذين يعرفون ما يجري في العراق عدد محدود جداً من خاصة الناس من الحكام ومن يتصل بهم ، وأما عامة الشعب فلا تعرف شيئاً عن واقع الحال بخلاف العراق وسوريا وشبه الجزيرة العربية التي كانت حركة تبادل الأفكار والأخبار والأشخاص فيما بينها نشطة وكثيفة .

ونقدر أن السيدة خلال هذه الفترة القصيرة التي قضتها في مصر قد مكّنتها من أن تؤثر في المصريين الذين اتصلوا بها بدرجات متفاوتة لأنها لا بد أن تكون قد حدثت هؤلاء بما جرى في كربلاء . ولكن علينا

أن نعترف بأن هذا التأثير محدود لم تظهر آثاره في اهتزاز ولاء الناس للحكم القائم في دمشق ، وإن كان هذا التأثير نواة لا يمكن إغفال أهميتها بالنسبة إلى المستقبل .

وقد جاء هذا المستقبل بعد مضي زمان طويل نسبياً .

* * *

فبينما كان الحمدانيون في سوريا والموصل ، والبويهيون في العراق وإيران يرسّخون سلطانهم وتزدهر في ظلّ هذا السلطان الشيعي المآتم وسائر الشعائر الحسينية ، كان الفاطميون يبسطون سلطانهم على مصر التي دخلوها في سنة ثمان وخمسين وثلاث مائة وبذلك توسعت الرقعة التي ازدهر فيها المأتم الحسيني والشعائر الأخرى إلى مدى أبعد مما كانت عليه في الماضي .

ولم يدخل الفاطميون الشعائر الحسينية باستيلائهم على مصر ، إلى منطقة لم يكن للمأتم فيها وجود . بل كان ذلك موجوداً في أيام الحكم الأخشيدي الضعيف الذي أسقطه الفاطميون فقد صرح المقريزي في الخطط بأن شعار الحزن يوم العاشر من المحرم كان أيام الأخشيديين واتسع نطاقه أيام الفاطميين ، إلا أن حال شعائر المأتم قبل الفاطميين في مصر كحالها قبل البويهيين في العراق ، فقد كانت موجودة إلا أنها كانت تثير معارضة ضدها من بعض العناصر الطائفية المتعصبة كالذي حدث سنة ٣٥٠ في عاشوراء حين حدثت منازعة بين الجند وجماعة من الرعية عند قبر (كلثوم) ويبدو أن ذلك بسبب المأتم في هذا اليوم . ولكننا نلاحظ أن الأمر لم يكن هكذا دائماً في العصر العباسي ، فقد مرّت حقبة من الزمن على الشيعة في مصر كانوا فيها عرضة للإضطهاد ومن ذلك ما حدث لهم عندما تولى مصر « يزيد بن عبد الله بن دينار »

الذي ولاّه المنتصر العباسي على مصر في شهر رجب سنة إثنتين وأربعين ومائتين ، فقد « تتبع الروافض بمصر ، وأبادهم ، وعاقبهم ، وامتحنهم ، وقمع أكابرهم ، وحمل جماعة منهم إلى العراق على أقبح وجه »[1] ويبدو أن هذا الإجراء حدث في سنة خمس وأربعين ومائتين .

وقد غدا هذا اللون من النشاط بعد قدوم الفاطميين عملاً رسمياً من أعمال الدولة ، وغدا المأتم مؤسسة ثقافية من مؤسسات الدولة .

* * *

لقد أتاحت هذه الأوضاع السياسية الملائمة في العراق وإيران ومصر وشمال أفريقيا وسوريا فرصة ذهبية للمأتم الحسيني حقق فيها انتشاراً واسع النطاق ، وغدا علنياً تحت حماية الدولة في أكثر الحالات ، وهذا لا يمنع من أنه كان يثير ـ في العراق خاصة ـ اعتراض بعض الجماعات المذهبية المتعصبة وهم الحنابلة .

وقد تمكّن المأتم في مناخ الحرية والأمن الذي أتاحته التطورات السياسية على هذه الرقعة الجغرافية الواسعة ، من أن يحقّق لنفسه تطورات شكلية ذات أهمية كبرى بيّنا أبرزها في القسم الآنف من هذا الفصل ، كما حقق لنفسه تطورات نوعية في محتواه نتحدث عنها فيما يلي :

---

(١) النجوم الزاهرة : ٢/٣٠٨ ـ ٣٠٩ ، في أحداث سنة ٢٤٢ ـ وزاد على ما ذكرنا أعلاه (.. ثم التفت إلى العلويين فجرت عليهم منه شدائد من الضيق وأخرجهم من مصر) .

لقد حصلت التطورات النوعية للمأتم الحسيني خلال الدور الأول في الأمور التالية :

الأول :

التوسع في عرض تفاصيل الأحداث ومسبباتها القديمة السابقة عليها مما يتصل بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والسياسات التي اتبعت في عهد عثمان ، والسياسة الأموية بصورة شاملة .

نجد مظاهر هذا التطور في شعر القرن الثاني فما بعد ، حيث أنه منذ النصف الثاني من القرن الثاني بدأ يظهر ما يمكن أن نسميه « الشعر الرثائي » ذو النزعة التاريخية الكلامية » فقد غدا الشعر يستخدم وقائع التاريخ بعقلية المتكلمين ليعطي تفسيراً لموضوعه الحسيني .

ويمكن أن يكون سفيان بن مصعب العبدي (توفي سنة ١٢٠ أو ١٧٨ هـ) والكميت بن زيد الأسدي (توفي سنة ١٢٠ هـ) هما أول من نهج هذا الأسلوب في الشعر الرثائي ، وإن كان في شعر المدح والفضائل عند الكميت أظهر منه في شعره الرثائي ، فإذا انتهينا إلى القرن الثالث وما بعده وجدنا هذا اللون من شعر الرثاء شائعاً بين شعراء الرثاء الحسينيين من مثل عبد السلام بن رغبان (ديك الجن) ، ودعبل الخزاعي ، والقاسم بن يوسف الكاتب ، والشريفين الرضي والمرتضى وغيرهم ، ويستمرّ هذا النهج الشعري في النموّ والإنتشار حتى يغدو الشعر الرثائي في نهايات القرن الخامس وكأنه سجلّ تاريخي فضائلي .

ونرجّح أن هذه الظاهرة في الشعر الرثائي تعكس ما كان عليه الحال في المأتم الحسيني في هذه الفترة .

الثاني :

نموّ البعد الفضائلي للمأتم الحسيني . فقد غدا المأتم يشتمل على ذكر فضائل أئمة أهل البيت وموقعهم البارز في تاريخ الإسلام ، ووصايا

رسول الله (ص) بهم ومخالفة بعض الأمَّة لهذه الوصايا ، ويضاف إلى ذلك صيغ تكريميَّة معيَّنة في التعبير عن الإمام الحسين عليه السلام .

ونتعرَّف على هذه الظاهرة الجديدة في المأتم الحسيني من خلال شعر الرثاء الذي أنشئ في القرن الثاني وما بعده . وكذلك نتعرف عليها من خلال كتب المقتل التي أُلِّفت بعد القرن الثاني حيث غدت هذه الكتب تعنى - إلى جانب السرد التاريخي - بذكر أحاديث الفضائل وعبارات التكريم . وشعر الرثاء الذي أنشئ في هذه الفترة حافل بالشواهد على هذه الظاهرة .

الثالث :

تكامل الشعر والنثر . فإننا نقدر أن المأتم بدأ حواراً ، ثم غدا قصة تروى أو قصيدة تنشد ، ثم غدا نصاً مكتوباً (المقتل) ، ثم بدأت في نهاية هذا الدور تنشأ صيغة يتكامل فيها الشعر والنثر ، وغدا المأتم مزيجاً منهما معاً : النثر يحكي قصة المأساة بروح تاريخيَّة فضائلية وبقدر محدود من التعبيرات العاطفية ، والشعر يلون القصة ويضفي عليها طابعاً فنياً مأساوياً حزيناً .

ولا نقول إن الخطيب الحسيني الذي نعرفه الآن كان قد وجد في نهاية هذا الدور ، وإنما نقول إن سلَف هذا الخطيب كان قد بدأ يتكوَّن في نهاية هذا الدور ، يتمثَّل بقاصٍّ يحلِّي قصصه بقطع من الشعر أو منشد يعقب على إنشاده بذكر بعض القصص والفضائل ، أو يمهد لإنشاده بذلك .

الرابع :

أئمة آخرون وثائرون آخرون ، فلقد حدث أنه قتل بالسيف أو بالسم بعد واقعة كربلاء عدد كبير من العلويين الثائرين على بني أميَّة أو بني العباس أو الذين كانت السلطة تشكّ في ولائهم لها ، أو تشك

في أن لهم طموحاً سياسياً معيَّناً ، كما قتل بالسم بعض أئمة أهل البيت ، أو توفاهم الله مظلومين مضطهدين من قبل سلطان زمانهم .

وقد كان الشيعة يحزنون لما يحدث ، وكانوا يضيفون أحزانهم هذه إلى حزنهم الكبير على الإمام الحسين . وكانوا يضيفون الأحداث والملابسات والمآسي التي حفلت بها حياة هؤلاء الأئمة المتأخرين والعلويين الثائرين إلى تراثهم المأساوي المرتبط بحياة أهل البيت بوجه عام وبأئمة أهل البيت بوجه خاص .

ونحن نعلم أن هذا الواقع المتجدد انعكس على الشعر الرثائي ، فغدا من مقاصده البارزة ذكر مصائب أهل البيت ونكباتهم في مختلف العهود .

ونرجّح أن هذا الواقع المتجدد الذي انعكس على الشعر الرثائي قد انعكس على المأتم الحسيني ، فغدا أكثر غنىً بالجانب القصصي والشعري والنقدي .

ونرجّح أن القاصّ أو النائح كان يلم في قصصه ونوحه بما جرى على الأئمة بعد الحسين ، أو بما جرى على فلان أو فلان من شهداء ثورات العلويين بعد الحسين ، مكرِّماً لهم ، قاصّاً لما حدث عليهم ، منشداً ما قيل في رثائهم ، ويختم ذلك كله بذكر مصيبة الإمام الحسين باعتبار أنها أم المصائب التي جرت على أهل البيت ، وأشدها إيلاماً للقلوب .

بل ربما كان هذا الدور قد شهد في نهايته نمّو المأتم العلوي بوجه عام ، يوحي بذلك ما يروى من أن الأمير طلائع بن زرّيك (٤٩٥ ـ ٥٥٦ هـ) لما كانت ليلة التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٥٥٦ وهي الليلة التي قتل في صبيحتها ، قال : « هذه الليلة ضرب في مثلها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأمر بقراءة مقتله »[1] .

---

(١) خطط المقريزي ٤ / ٨ .

ومما يدل على صحة هذا الذي نقول من أن مصائب سائر أهل البيت دخلت في مضمون المأتم الحسيني نموّ حركة التأليف في شأن أهل البيت .

فقد أُلّفت في هذا الدور كتب تضم ترجمة لكل واحد من الأئمة . أو للعلويين الذين قتلوا بالسيف أو بالسم جميعاً . والأمثلة البارزة من هذه المؤلفات في هذا الدور كتاب مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني (توفي سنة ٣٥٦) وكتاب الإرشاد للشيخ المفيد (٤١٣ هـ) فهذان المؤلِّفان لم يقتصرا في كتابيهما على ذكر مقتل الحسين ، وإنما إتسع مؤلّفاهما لغيره ؛ فذكر أبو الفرج الإصفهاني في (مقاتل الطالبيين) جميع من انتهى علمه إليهم من الطالبيين الذين قتلوا على يد السلطات في عهد بني أُمية وفي عهد بني العباس . وإن كان قد أفرد أكبر فصول كتابه لمقتل الإمام الحسين . وذكر الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد جميع أئمة أهل البيت بعد ذكر رسول الله (ص) والسيدة الزهراء ، وإن كان قد خصَّ الإمام الحسين بأكبر فصلٍ في كتابه .

ومن الأدلة البارزة على دخول هذا التطور النوعي في المأتم الحسيني قصيدة الشاعر دعبل الخزاعي (توفي ٢٤٦ هـ) التائية المشهورة التي أنشدها بين يدي الإمام الثامن عليّ بن موسى الرضا في مدينة مرو ، فإنه ذكر فيها :

أولاً : علياً أمير المؤمنين ، ومقامه في الإسلام ، وما جرى عليه من حجب الخلافة عنه مع كونه صاحب الحق فيها .

وثانياً : ـ حزنه على عبد الله بن جعفر وأبيه جعفر الطيار ، والإمام عليّ والإمام الحسين . وحمزة بن عبد المطلب . والإمام السجاد زين العابدين ، وغيرهم من العلويين .

وثالثاً : ـ خاطب السيدة فاطمة الزهراء ، ذاكراً قبور أبنائها

في كوفان ، وطيبة ، وقبور فخ والجوزجان ، وقبر بغداد[٢] ثم يعود إلى ذكر الحسين وثورته ومأساة كربلاء بتفصيل أوفـى مما ذكر في أول قصيدته .

إن هذه القصيدة في هذه الفترة تدل على حدوث هذا التغير النوعي في المأتم الحسيني بذكر مصائب أهل البيت جميعاً ، وذلك لأنها تعكس الوعي الشعبي الشيعي لطبيعة العلاقة الحرجة بين أهل البيت وبين الحكام ، وتأثر الإنسان الشيعي بهذه العلاقة حزناً ، وغضباً .

وقد تطور هذا العنصر في المأتم الحسيني في الدورين الثاني والثالث حتى تكاملت سماته على النموّ الذي سيأتي بيانه في موضعه من هذا الفصل .

* * *

إن هذه الصورة عن التطور النوعي للمأتم الحسيني في هذا الدور الأول الممتد من سنة إحدى وستين للهجرة إلى ما قبل سقوط بغداد في القرن السابع الهجري ـ إن هذه الصورة تعكسها لنا أربعة نصوص بالإضافة إلى شعر الرثاء في هذه الفترة وهو ما أشرنا إليه في ثنايا البحث ، بالإضافة إلى المصادر العامّة في التاريخ والحضارة .

أمّا النصوص الأربعة التي أشرنا إليها فهي التالية :

١ ـ مقتل الحسين لأبي مخنف لوط بن يحيى وهو النص

(١) ربما كان يعني بالقبر في كوفان قبر مسلم بن عقيل وبالقبور في طيبة قبر الإمام الحسن بن علي ، والإمام زين العابدين علي بن الحسين ، والإمام محمد الباقر ، والإمام جعفر الصادق ، والقبر في فخ قبر الحسين بن علي بن الحسن بن الحسين بن علي الذي خرج ثائراً في سنة تسع وستين ومائة واستشهد في فخ (موضع قريب من مكة) . وقبر الجوزجان قبر يحيى بن زيد بن علي بن الحسين الذي استشهد سنة ١٢٥هـ أيام ولاية نصر بن سيار على خراسان ، وصلب بعد قتله وبقي مصلوباً إلى أيام أبـي مسلم الخراساني واستيلائه على خرسان « فأنزله وصلى عليه ودفنه » .

الموجود في تاريخ محمد بن جرير الطبري[١] .

٢ ـ مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني (توفي ٣٥٦) .

٣ ـ روايات ابن أعثم أبي محمد أحمد (توفي ٣١٤ هـ) المنقولة في مقتل الحسين للخوارزمي .

٤ ـ كتاب الإرشاد للشيخ المفيد محمد بن النعمان البغدادي (توفي ٤١٣ هـ) .

٥ ـ مقتل الحسين للخوارزمي .

ففي هذه النصوص نلاحظ عند أبي مخنف الإيجاز ، والدقة العلمية ، والتصوير الحسّي ، والإندفاع العاطفي المحدود جداً . وندرة العنصر الشعري إلا ما اتصل من ذلك اتصالاً عضوياً بقصة المعركة . أما في النصوص المتأخرة عنه فنلاحظ زيادة في عرض التفاصيل ، وعناية بذكر الفضائل والمناقب ، ونمّواً في التعبير العاطفي ، وغنىً في العنصر الشعري الطارئ الذي لا يتصل إتصالاً عضوياً بالواقعة ، سواء في ذلك شعر الرثاء أو شعر الفضائل .

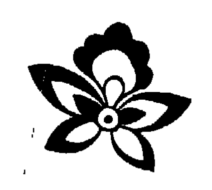
* * *

(١) يوجد كتاب متداول في أيدي العامة يحمل اسم (مقتل الحسين لأبي مخنف) وهو كتاب موضوع .

ونخلص من جميع ما ذكرنا إلى أن المأتم الحسيني في دوره الأول كان يشتمل على عنصر ثابت هو استعراض المأساة الحسينية مع نقد السلطة الأموية والعباسية صراحة أو تلميحاً حسب ما تسمح به ظروف المأتم وسلامة القائمين به من عدوان السلطات أو العامة المتعصبين .

وقد تطور المأتم الحسيني في هذا الدور من حيث الشكل ومن حيث المحتوى بالنحو الذي ذكرناه فيما تقدم من هذا البحث .

وقد تركز التطوّر النوعي في المحتوى في أربعة أمور : التوسع في عرض تفصيلات المأساة ومقدماتها التاريخيّة ، ونموّ البعد الفضائلي للمأتم الحسيني ، وتكامل الشعر والنثر ، واحتواء المأتم على مصائب الأئمة المتأخرين وسائر العلويين الثائرين .



الدور الثاني

حافظ المأتم الحسيني في هذا الدور على العنصر الثابت فيه وهو المأساة ونقد السلطة .

وكان نقد السلطة في هذا الدور نقداً مباشراً صريحاً للأمويين وللعباسيين الذين لم يعد لهم وجود في الحياة السياسية في العراق وإيران وغيرهما من البلاد الإسلامية باستثناء وجود شكلي لا قيمة له ، حصل فيما بعد في مصر المملوكية ، ومن ثم فإن هذا النقد الصريح المباشر كان مجرّد نقد كلامي ليس له أي محتوى واقعي ، إنه نقد نظري لموضوع غير موجود .

أما بالنسبة للسلطات المعاصرة لهذا الدور فـإن النقد المباشر لها كان عملاً خطيراً يعرّض صاحبه لأعظم الأخطار ، وربما للموت .

ونشك في أن النقد المباشر للأمويين والعباسيين في هذا الدور كان يتضمن موقفاً من السلطات المعاصرة نابعاً من وعي واضح لدلالة الذكرى الحسينية على النحو الذي أشرنا إلى أنه كان يحصل في بعض مراحل الدور الأول حين كان النقد غير المباشر فيه للسلطات المعاصرة من باب « إيّاك أعني واسمعي يا جارة » .

إن الذكرى الحسينية في هذا الدور فقدت دلالتها السياسية والإجتماعية في وعي الإنسان الشيعي بالنسبة إلى الأوضاع التي يعاني منها نتيجة لسياسات حكامه المستبدين ، وغدت عملاً أخروياً محضاً إلا في القليل النادر الذي ربما يكون منه ما ورد عند الشيخ الطريحي في المنتخب فيما يبدو

أنه وظيفة المأتم في نظره :

« .. فيا إخواني أكثروا البكاء والعويل على هذا العزيز الجليل لتفوزوا بالثواب الجزيل من الرب الجليل ، **فإن الله جعل متابعتنا لهم فيما أمكن من الفعال** ، وبكاءنا عليهم بالدمع السِّجال ، **وبعث عيوب أعدائهم أهل الضلال قائماً مقام الجهاد معهم في يوم القتال** .. »[1] .

ولكننا نشك في أنه يريد من « أعدائهم أهل الضلال » غير الأمويين والعباسيين وولاتهم الذين اضطهدوهم ، ونرجح أنه لا يعني بهذا التعبير وأمثاله كل ظالمٍ ومعتدٍ على الناس من الحكام وأعوانهم . ويؤيّد ذلك أن الأمثلة التي تذكر هي عن الحكام والولاة الذين أصابوا أهل البيت بظلم مباشر من قتل ، وسجن ، وترويع ، ومصادرة ، وهدم قبور وما إلى ذلك ، دون أن تمتد لتشمل كل الظالمين والمعتدين . والمجلس الأول من كتاب المنتخب شاهد على ذلك .

* * *

هذا عن العنصر الثابت في المأتم الحسيني في هذا الدور . وأما من حيث المتغيّرات فقد طرأت على المأتم تطوّرات شكلية ونوعية ذات أهمية بالغة .

أما من حيث التطور الشكلي فقد ظهر في الأمرين التاليين :

الأول :

لقد غدت المواعيد الزمنية للمأتم أكثر ثباتاً وتنظيماً ، كما أن

---

(١) المنتخب : ٢٩ ــ الباب الأول / من المجلس الثاني /في أول يوم من عشر المحرم .

العناصر البشرية المتفرغة للمأتم من نواحٍ ومنشدين وقصّاص غدت أكثر عدداً .

ولكن المأتم شهد في هذا الدور اضطهاداً وتضييقاً عليه في كل مكان من العالم الإسلامي تقريباً .

لقد اقتلعت جذور التشيّع بقسوة ووحشية من مصر بعد زوال الدولة الفاطمية واستيلاء الأيوبيين ، وكذلك الحال في سوريا . ونشر الأتراك سلطانهم على العراق في هذا الدور أيضاً ، ووجد التعصب الطائفي ضدّ الشيعة حماية رسمية مكّنته من اضطهاد النشاط الشيعي وخاصة المآتم الحسينية مما أوجب حصر هذا النشاط في المراكز الشيعية التقليدية (العتبات المقدسة في العراق) وفي غير هذه الأماكن كانت المآتم تقام سراً أو بما يشبه السرّ . والمحيط الوحيد الذي ازدهر المأتم فيه في هذا الدور هو إيران بعد استيلاء الصفويين على الحكم ، فقد انتعش التشيّع في إيران وازدهرت نشاطاته في كل مجال ، وعلى رأسها مؤسسة المأتم الحسيني التي ازدهرت في ظل الحكم الصفوي .

الثاني

في هذا الدور غدا اللطم عنصراً أصيلاً في بعض المآتم الحسينية في العراق وإيران . وكان هذا اللطم من العادات التي أدخلها البويهيون على المأتم الحسيني . وقد رافق عادة اللطم في المأتم نشوء نوع من الشعر المرقع بالفصحى والعامية ، كان المأتم يبدأ به أو ينتهي به ويرافقه لطم على الصدور مع تعرية القسم الأعلى من الجسم ، أو من فوق الثياب .

هذا في مآتم الرجال . وأمّا في مآتم النساء فقد كان اللطم عنصراً أساساً في المأتم كما أشرنا إلى ذلك فيما مضى من هذا البحث ، وبقي ثابتاً فيه حتى الآن .

* * *

هذا عن التطوّر الشكلي . أمّا التطوّر النوعي في محتوى المآتم فإن دليلنا في معرفة مظاهره في هذا الدور هو الكتب التالية :

١ ــ مناقب آل أبي طالب . لابن شهراشوب السروي المازندراني (توفي ٥٨٨) .

٢ ــ مثير الأحزان . لابن نما الحلي (توفي ٦٤٥) .

٣ ــ اللهوف في قتلى الطفوف . لابن طاووس الحلي (توفي ٦٦٤) .

هذا بالإضافة إلى الأعمال الشعرية التي أنشئت في هذه الفترة .

وقد ظهر هذا التطور النوعي في الأمور التالية :

الأول ــ لغة المأتم :

لقد كانت لغة المأتم لغة موضوعية هادئة في بداية الدور الأول ، واحتفظت بهذه السمة ردحاً من الزمن في الدور الأول ، ثم داخلها التغيير من هذه الجهة في نهاياته بحيث كانت في الدور الثاني إلى لغة عاطفية . وكان هدفها في الدور الأول تصوير أحداث الثورة ، فغدا هدفها في الدور الثاني الإثارة النفسية والعاطفية لدى رواد المأتم الحسيني .

كما أن السجع الذي غدا سمة ثابتة في أساليب الكتابة والخطابة في تلك الفترة قد غدا سمة من سمات لغة المأتم حين لا يتعلّق الأمر بحكاية نص تاريخي نقلاً حرفياً ، وإنما يتعلّق بإنشاء الخطيب أو الكاتب . ويغلب على هذا السجع أن يكون ركيكاً خالياً من الأصالة الفنية .

ونورد فيما يلي نصين أحدهما لابن نما والآخر لابن طاووس يصوّران لغة المأتم العاطفية المسجوعة .

قال ابن نما :

« .. فقال (ع) قوموا إلى الموت الذي لا بدّ منه ، فنهضوا جميعاً والتقى العسكران الرجّالة والفرسان . واشتد النزاع وخفي لإثارة العِثْيَر

الشعاع . والسمهرية ترهف نجيعاً والمشرفية
يسمع لها في الهام رقيعاً ولا يجد الحسين عليه
السلام في مساقط الحرب لوعظه سميعاً . وقد
كفروا بالرسول ولا يميلون إلى الصوارم والنصول.
ولم يبق بينهم سوى اللهازم الزرق والصوارم
الزلق . والهام تترى كالغيث الغدق والشرار
المحرق . فقلت في وصف الحال أبياتاً لما
علمت أن القتال يصيّرهم رفاتاً »[1].

وقال ابن طاووس عن عودة زين العابدين مع السبايا إلى المدينة :

« .. ثم انه صلوات الله عليه رحل إلى المدينة
بأهله وعياله . ونظر إلى منازل قومه ورجاله .
فوجد تلك المنازل تنوح بلسان أحوالها وتبوح
بإعلال الدموع وإرسالها لفقد حماتها ورجالها .
وتندب عليهم ندب الثواكل وتسأل عنهم
أهل المناهل . وتهيّج أحزانه على مصارع قتلاه
وتنادي لأجلهم واثكلاه . وتقول يا قوم اعذروني
على النياحة والعويل وساعدوني على المصاب
الجليل . فإن القوم الذين أندب لفراقهم وأحنّ
إلى كرم أخلاقهم كانوا سمار ليلي ونهاري .
وأنوار ظلمي وأسحاري ، وأطناب شرفي
وافتخاري ، وأسباب قوّتي وانتصاري ،
والخلف من شموسي وأقماري ... »[2].

---

(١) مثير الأحزان ، ص : ٤١ .

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف ، ص : ٨٥ .

وقد استمرَّ السجع أسلوباً ثابتاً في لغة المأتم إلى نهاية هذا الدور وبداية الدور الثالث بحيث أن الشيخ فخر الدين الطريحي (توفي : ١٠٨٥ هـ) أحد ممثلي الدور الثاني للمأتم من خلال كتابه المنتخب الذي يمثل تطوراً في طريقة كتابة المقتل حيث أنه وزعه مجالس وأقساماً بحسب الليالي والأيام التي يعقد فيها المأتم ـ أقول إن الشيخ الطريحي استخدم في كتابة المجالس التي حررها في المنتخب لغة مسجوعة عاطفية ، وبذلك نعلم أن هذا الدور الثاني قد ابتدأ ولغة المأتم في مسجوعة عاطفية وانتهى على هذه الشاكلة أيضاً .

الثاني ـ الدقة التاريخية :

لقد اتّسع المجال في هذا الدور للتزيّد في رواية الأحداث ، والتساهل في قبول الروايات خاصة فيما يتعلّق بالأفعال التي تؤدي إلى إثارة عاطفية . ومن نماذج ذلك رواية زواج القاسم بن الإمام الحسن بن أمير المؤمنين من بنت للحسين ، وأن المتوكل العباسي استمرَّ يحرث قبر الإمام الحسين مدة عشرين سنة[1] والروايتان غير صحيحتين ، فالقاسم ابن الإمام الحسن كان لا يزال حين استشهد صبياً لم يبلغ سن الزواج ، ولم يرِد في شأن هذا الزواج أي نص يوثق به من المؤرخين كما أن مدة خلافة المتوكل العباسي منذ بويع حتى قتل حوالي خمسة عشر عاماً (بويع بعد وفاة الواثق سنة ٢٣٢ هـ وقتل سنة ٢٤٧ هـ) .

كما أن من مظاهر عدم الدقة التاريخيَّة قبول استنتاجات بعض الكاتبين في المقتل على أنها وقائع تاريخيَّة .

الثالث ـ الشعر :

لقد كان المأتم في الدور الأول يقتصر على الشعر الذي يتصل اتصالاً عضوياً بواقعةِ كربلاء كأرجاز المقاتلين وما يشبهها ، ثم تطور

---

(١) المنتخب للطريحي ، ص : ٣٧٣ ـ ٣٧٥ و ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

المأتم من هذه الناحية خلال الدور الأول فغدا يشتمل على شعر رثائي وفضائلي من إنشاء شعراء متأخرين وقد يكون من إنشاء صاحب المقتل نفسه كالذي نجده من ابن نما الحلي في كتابه مثير الأحزان الذي أكثر من ذكر قطع شعرية مناسبة للحال التي يتحدث عنها في المقتل من نظمه هو . بل لقد أورد في المقتل مادة شعرية غريبة عن المقتل وإن كانت مناسبة له ، فقد قال :

« وقد ختمت كتابي هذا بأبيات ابن زيدون المغربي ، فهي تنفذ في كبد المحزون نفوذ السمهري .[1]

ثم حكى قطعة كبيرة من قصيدة ابن زيدون المشهورة : « أضحى التنائي بديلاً من تدانينا » مبتدئاً بقوله فيها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

إن هذا التطور الذي شهده المأتم في نهاية دوره الأول تعاظم بشكل واضح وجليّ في الدور الثاني بحيث غدا الشعر الرثائي الذي قيل في استشهاد الإمام الحسين في فترات متأخرة جداً مادة أساساً في المأتم الحسيني ، وكذلك غدا الشعر الفضائلي الذي قيل في مدح أهل البيت مادة اساساً في المأتم الحسيني .

وكتاب المنتخب للطريحي أفضل نصّ يمثل التطور الذي دخل على المأتم الحسيني في هذا الدور . فهو يشتمل على الشعر الرثائي والفضائلي الذي قيل في الإمام الحسين أو غيره من الشهداء من بني هاشم بحيث أن المجلس المأتمي غالباً ما يبدأ بقطعة من الشعر الرثائي أو الفضائلي ، ويختم بقصيدة طويلة لأحد الشعراء المتأخرين ، كما يشتمل المجلس

---

(١) مثير الأحزان ، ص : ٩٤ ــ ٩٥ .

المأتمي في ثناياه على قطع من الشعر المأتمي أو الفضائلي أو غير ذلك من الشعر الذي تدعو إلى ذكره مناسبة قصة يوردها في المجلس المأتمي لتخدم غرضاً من أغراضه فضائلياً أو مأساوياً .

الرابع ـ الفضائل :

كان من جملة التطورات التي دخلت على المأتم في دوره الأول اشتماله على الفضائل التي وردت عن الرسول (ص) في شأن أئمة أهل البيت ، أو ما ورد في مدحهم والثناء عليهم من سائر رجالات الإسلام .

وقد ازدادت هذه السمة الفضائلية للمأتم وضوحاً في دوره الثاني ، فقد أُلِّفت كتب خاصة بالمناقب يمثلها في دور المأتم الثاني كتاب « مناقب آل أبي طالب » لابن شهراشوب . فقد ابتدأ الفصل الخاص بالإمام الحسين بذكر روايات عامة في الفضائل عن الإمام الصادق ، وعن أبي هريرة عن رسول الله (ص) ، وعن المفضل بن عمر عن الإمام الصادق ، وعن السدّيّ المفسّر ، وعن الإمام موسى بن جعفر وغيرهم مع شعر فضائلي للزاهي والقاضي ابن قادوس البصري ، وكشاجم ، والبشنوي ثم ذكر فصلاً في معجزات الإمام الحسين ختمه بشيء من الشعر الفضائلي للسوسي والسروجي ، ثم عقد فصلاً في معجزات الإمام الحسين وآياته بعد وفاته تخلله شعر رثائي ، ثم عقد فصلاً في مكارم أخلاق الإمام الحسين تخلله شعر فضائلي . ثم عقد فصلاً في محبة النبيّ (ص) للإمام الحسين تخلله بعض الشعر المناسب لذلك . ثم عقد فصلاً في معالي أموره ختمه بقطعة من الشعر الفضائلي . ثم عقد فصلاً في تواريخه وألقابه ختمه بشعر فضائلي إفتخاري نسبَه إلى الإمام الحسين في يوم عاشوراء . ثم عقد فصلاً في مفردات الفضائل والمناقب تخلله شعر فضائلي ، ثم عقد فصلاً لمقتله .

وإذا نجد أن البعد الفضائلي يتعمَّق ويزداد رسوخاً في المأتم الحسيني

في دوره الثاني على الشاكلة التي حكيناها الآن ، نجد أن هذا البعد الفضائلي للمأتم في نهاية دوره الثاني يتداخل في ثنايا المأتم ويغدو جزءاً من نسيجه الداخلي . ويصوّر لنا كتاب المنتخب للطريحي نموّ هذا البعد الفضائلي في البناء الداخلي للمأتم حيث نجد الفضائل تذكر إلى جانب وقائع المأساة لتعطي شعوراً بفداحتها ولتكوّن عند السامع شعور الإحترام والحب والفجيعة مثلاً : الباب الأول من المجلس الثالث ، وهو مخصّص لليلة الثانية من عشر المحرم ؛ يبدأ بذكر بعض فضائل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، ثم ذكر في ثنايا فضائله مواقف الجاحدين لها ، ثم تعرّض إلى ذكر فاجعة كربلاء ، فقال : « ... صوبوا صوائب المصائب في ذريّته وبنيه وشيعته ومحبّيه ، فلا ترى إلا قتيلاً على وجه الثرى . أو مأسوراً قد أضرّ به طول السرى ، أو نسوة حواسر على أقتاب الجمال تتصفّح وجوههم الرجال ... » ثم يذكر فضيلة علمية للإمام الحسين في زمن عمر بن الخطاب ، ثم يعقب على ذلك فيقول : « فوا عجباً من قوم عرفوا فضائلهم الكريمة ، وارتكبوا منهم هذه الأفعال العظيمة.. »[1] وهكذا يمضي الطريحي في هذا المجلس وفي غيره على هذا الأسلوب في مزج الفضائل بالفجائع .

الخامس ـ الأئمّة الآخرون :

هذا التطوّر الذي تحقّق للمأتم الحسيني في دوره الأول ازداد وضوحاً وتأصّلاً في هذا الدور الثاني .

فقد اتسعت حركة التأليف في مصائب الأئمة انطلاقاً من حقيقة أنهم يمثلون خطاً واحداً ومصيبة واحدة ذات حلقات ، وهذا أدى إلى أن يكون المأتم الحسيني متكاملاً من هذه الجهة فلا يقتصر الحديث فيه على ما يعود إلى حياة الحسين وشهادته فحسب وإنما يتسع ليشمل

---

(١) المنتخب ، ص : ٤٢ وما بعدها .

الحديث عن حياة ، وفضائل ، ومصائب الأئمة الآخرين . وغدت العناصر الفضائليَّة والمأساوية للأئمة الآخرين جزءاً أساساً من المأتم الحسيني ، كما أن هذا أدّى إلى نشوء مآتم تعقد في الأيام التي توافق الأيام التي توفّوا فيها ، فهي مآتم حسينية أيضاً مخصصة لذكرى أئمة غير الحسين . فغدت تعقد مآتم في ذكرى وفاة رسول الله (ص) ووفاة الإمام عليّ ، ووفاة الإمام الحسن ، ووفاة الإمام زين العابدين .

تحكى في هذه المآتم سيرة صاحب الذكرى ، وفضائله ، وما لقيه من جور وظلم من حكام زمانه ، ويختتم مجلس المأتم بذكــر الإمام الحسين ، ويتخلل ذلك شعر رثائي وشعر فضائلي .

وأفضل ما يمثل امتزاج الذكريات في المأتم الحسيني في دوره هذا كتاب المنتخب للطريحي .

السادس ـ الزهديات :

لقد تأثر المأتم الحسيني كأية مؤسسة ثقافية ـ إجتماعية بالتغيرات والطوارئ التي شهدها المجتمع الإسلامي في الفترة الواقعة بين سقوط بغداد وبدايات العصر الحديث ، وهي المساحة الزمنية التي يشغلها الدور الثاني للمأتم الحسيني .

وقد تأثر المأتم الحسيني بما حلّ بالإنسان المسلم ومجتمعه في هذه الفترة : الإنحلال السياسي ، والتخلف الإقتصادي ، والحروب الأهلية ، والمجاعات والأوبئة .

وقد نما في هذا المناخ الحافل بأسباب بؤس الإنسان وبؤس المجتمع تيار ثقافي فلسف هذا البؤس وهو تيار التصوّف المرضي الذي قدّم للإنسان المسلم فلسفة تستمدّ قوّة تأثيرها وفاعليتها من دعوى أنها دينية ترتكز على نصوص من الكتاب والسنّة وممارسات ممثلي الإسلام الكبار ، وهي دعوىً لا أساس لها من الصحة على الإطلاق ، نشأت من الجهل بروح

الإسلام العامة ومن التأثر بالتيارات الصوفية غير الإسلامية .

هذه الفلسفة تجعل من بؤس الحاضر قدراً ثابتاً من صنع الله تعالى ، وتجعل من الرضا بهذا البؤس وقبوله قدراً واجباً على الإنسان ، وتجعل من عمل الإنسان والمجتمع في سبيل تغيير هذا الواقع البائس نحو الأحسن جهداً ضائعاً ، وتجعل وجهة الإنسان في عمله وكدحه في الحياة الدنيا هي الموت والقبر .

وانطلاقاً من هذا المنطق جعلت هذه الفلسفة من الذكرى الحسينية عملاً من أعمال الموت لا عملاً من أعمال الحياة ، جعلتها طقساً يفيد الإنسان في القبر لا حافزاً يحمله على تغيير واقع حياته البائسة المنحطة . واعتبرت ثورة الإمام الحسين وكأنها عمل قام به الحسين ليمكِّن الناس ـ عن طريق ترداد قصته وحكايتها بالألفاظ ـ يدخلون الجنَّة بهذا النوع من النشاط الكلامي .

لقد شهدت نهاية الدور الأول للمأتم الحسيني ظهور هذه النظرة إلى وظيفة الذكرى الحسينية إلا أن هذه النظرة ازدادت وضوحاً في هذا الدور الثاني . ويمثل منتخب الطريحي النموذج الكامل لهذه النظرة إلى الذكرى الحسينية ، وهو مشحون بالعبارات الدالة عليها من مثل قوله :

« فيا إخواني إن رغبتم في المنزل الكريم ، والثواب العظيم الجسيم فأديموا الحزن عليهم ، والجزع والكآبة لديهم » .

« اعلموا تقبَّل الله أعمالكم ، وأحسن لديه مآلكم إن الله تعالى لا يقبل الأعذار في ترك المآتم على الآل الأطهار ، لأنه تعالى جرت عادته بتكليف العباد بعد إلهامهم الرشاد ليفيض

عليهم من الخيرات فيَصِلون إلى الكمالات ولا شيء لعمري أدعى لحصول الثواب العظيم وإزالة العذاب الأليم من إظهار شعائر الأحزان ، وإجراء الدموع الهتان على ما أصابهم في ذلك الزمان من أهل الغدر والخذلان »[1].

إن الإنسان الشيعي غدا يقيم المأتم الحسيني أو يحضره لأجل أن يدّخر لآخرته عملاً من أعمال التقوى ينفعه بعد الموت ، وينال عليه الثواب الجزيل من الله تعالى ، لا ليتعلم ــ بالإضافة إلى ذلك ــ أسلوباً من أساليب العمل ينفعه في حياته ويبدل بعض ما فيها من شرّ وبؤس ... حتى لعن بني أميَّة غدا عملاً أخروياً محضاً ، وليس براءة من النهج الأموي ذات دلالات سياسية .

لقد فقدت الذكرى الحسينية في الدور الثاني للمأتم الحسيني دلالتها السياسية والإجتماعية ، ومغزاها في التزام موقف حياتي وجودي إزاء تحديات الواقع البائس .

لقد غدت الدعوة إلى الزهد في الدنيا ، والوعظ السلبي الذي يدعو إلى الإنصراف عن العمل الحياتي ، ورفض العالم عناصر أساسية ــ إلى جانب قصة المأساة ــ في المأتم الحسيني في هذا الدور .

ويصوّر لنا البيت التالي تغلغل هذه الروح الزهدية في المأتم الحسيني ، إذا أنه يدمج الموقف السلبي من الحياة بالمأساة الحسينية :

أتــرجو الخير من دنيا أهانـــت حسين السبط واختارت يزيدا

ويصوّر لنا كتاب المنتخب في جملة كبيرة من نصوصه هذا الموقف الزهدي السلبي من الحياة كما يبدو في هذا الدور من خلال المأتم

---

(١) المنتخب ، ص : ٣٤ و٦٨ ، وتوجد في الكتاب المذكور عشرات النصوص المماثلة .

الحسيني ، وكيف اندمج هذا الموقف ـ في وعي الإنسان الشيعي بالمأساة الحسينبة .

والنص التالي نموذج لما يشتمل عليه كتاب المنتخب في هذا الشأن :

« ... حملتهم الدنيا الدنية على قتل العترة النبويَّة ، وقد ورد في الخبر عن سادات البشر : حبها من أعظم الأخطار الموجبة للسخط ودخول النار . وفي الحديث القدسي : لو صلّى عبدي صلاة أهل السماوات وأهل الأرضين ، وصام صيام أهل السماوات وأهل الأرضين . وحجّ حجيج أهل السماوات وأهل الأرضين . وطوى عن أكل الطعام مثل الملائكة المقرَّبين ، ثم أرى في قلبه من حب الدنيا ذرة أو من سمعتها ، أو من رياستها ، أو من مَحْمَدتها ، أو من حليتها ، أو من زينتها ، أدنى من ذرّة فإنه لا يجاورني في دار كرامتي ، ولأنزعنَّ من قلبه محبَّتي ، ولأظلمنَّ قلبه حتى ينسى ذكري حتى لا أزيقه رحمتي يوم القيامة .

« وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : ... إن رسول الله (ص) قال : والذي بعثني بالحق نبياً لو أن جبرائيل أو ميكائيل كان في قلبهما ذرة من حبّ الدنيا لأكبهما الله على وجوههما في نار جهنم .

« فنزّهوا أيها الأخوان أنفسكم عن الركون إلى

الدنيا ، وإياكم وطلب الرياسة والعليا فإنها دار لا يدوم فيها نعيم ، ولم يبق أحد من شرّها سليم وكيف يرضى العاقل بالدنيا داراً بعد آل الرسول وسلالة الطاهرة البتول . هذه والله دار غدرت بمواليها فلا خير والله فيها إلا من اتخذ فيها الزاد ليوم المعاد . ولعمري لا عمل فيها أفضل من موالات الآل الدافعة لتلك الأهوال يوم الحشر والمآل »[1] .

لقد تكوَّنت هذه النظرة الزهدية لدى الإنسان المسلم منذ عهد مبكّر ، وبدأت تعبّر عن نفسها لدى الإنسان الشيعي منذ نهايات الدور الأول للمأتم الحسيني من خلال هذا المأتم . ومناخ المأتم الحزين الحافل بالذكريات الفاجعة ، والصور المريعة عن ممارسات الطغيان ضد الإنسان ـ هذا المناخ شديد الملاءمة لنموّ أفكار الزهد السلبي الذي يمده بالحياة والقـوة بؤس الحياة الواقعية والجهل بروح الإسلام ؛ فاستمرَّ في نموّه في وعي الإنسان الشيعي معبّراً عن نفسه في المأتم الحسيني في دوره الثاني حتى بلغ ذروته في نهاية هذا الدور .

فقد استمرَّت هذه النظرة الزهدية وهذا الموقف السلبي طيلة فترة القرون المظلمة عند المسلمين وامتد إلى العصر الحديث في بعض الأرياف .

وقد كان الحكم العثماني بما مارسه من ظلم واضطهاد للإنسان الشيعي من عوامل استمرار هذا الموقف الزهدي السلبي حيث كان للعثمانيين على الإنسان الشيعي سلطان .

---

(١) المنتخب . ص: ١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ولاحظ صفحات : ١٦٨ وما بعدها ، و٢٦٦ وما بعدها و٣٥٦ وما بعدها ، وغير ذلك .

الدَورُ الثَالِث

الدور الثالث للمأتم الحسيني بدأ ـ كما ذكرنا سابقاً ـ منذ أوائل العصر الحديث ، ولا يزال المأتم الحسيني يمرّ في هذا الدور حتى وقتنا الحاضر .

وننبّه هنا إلى أن كتب المقتل التي كتبت في هذا الدور لم تعد تصلح مصدراً لرصد التغيرات الشكلية والنوعية التي دخلت على المأتم الحسيني في هذا الدور إلا في حدود ضيّقة ، فإن التغيّرات النوعية التي دخلت على المأتم ذات طبيعة تختلف إختلافاً أساسياً عن طبيعة كتب المقتل . فهذه الكتب مختصة بحكاية قصة الواقعة ، وسنرى أن التغيرات جعلت المأتم يتجاوز قصة الواقعة إلى أغراض ومضامين أخرى ؛ نعم ، يمكن أن تكون بعض كتب المقتل ساهمت في رسم الإتجاه الحديث من بعض الجهات (كتب الأمين من حيث الدقة التاريخية) وبعضها كانت استجابة للصورة الجديدة .

وقد شهد المأتم الحسيني في هذا الدور تطوّراً شكلياً وتطوراً نوعياً عظيميّ الأهميّة .

أما من حيث الشكل فقد أتاح الأمن والحرية الذين تمتعت بهما الطائفة الشيعية في أكثر مواطنها أن تقيم مأتم الإمام الحسين علناً في كل وقت من العام دون أن تخشى منعاً من سلطان أو من جمهور ، أما في المواطن التي لم يتمتّع فيها الشيعة بحريتهم المذهبية فقد ظلّت القيود على إقامة المأتم الحسيني مفروضة من قبل سلطات تلك المواطن التي

يقع بعضها في داخل العالم العربي ويقع بعضها في خارج العالم العربي .

وتعددت مناسبات إقامة المأتم الحسيني . ففي العراق وإيران وبعض البلاد الأخرى يقام المأتم في شهري محرم وصفر القمريين آناء الليل وأطراف النهار ، ومن قبل فئات مهنية وثقافية متنوعة ، ومن قبل الأشخاص . وفي كل مكان يصلح للإجتماع إذا كان ملائماً من حيث الطقس . يحدث هذا في كل مدينة شيعيَّة ذات شأن أو فيها عدد كبير من الشيعة .

كما يعقد المأتم الحسيني عند ذكرى وفاة النبيّ (ص) ، ويقام في ذكرى وفاة كل إمام من أئمة أهل البيت الأحد عشر ، وفي ذكرى وفاة السيدة فاطمة الزهراء ، والسيدة زينب الكبرى بنت الإمام عليّ ، ومسلم بن عقيل . فعند حلول ذكرى وفاة إحدى هذه الشخصيات في الشهر القمري يعقد مأتم يستعرض الخطيب فيه حياته ، ويقص ما جرى عليه من ظلم وجور ، وينشد شيئاً من الشعر الذي قيل في مدحه ورثائه ، ويختم المأتم بذكر الإمام الحسين وطرف مما جرى عليه .

كما يعقد مأتم الإمام الحسين في العراق وإيران والكويت وبعض مناطق الخليج الأخرى وبعض البلاد الأخرى في أمسيات أيام شهر رمضان ، وتحظى مجالس المأتم في هذه المناسبة بإقبال واسع من الجمهور .

كما جرت عادة كثير من الناس على إقامة مأتم الحسين في منازلهم أو في المساجد الصغيرة في الأحياء في ليلة الجمعة ويومها من كل أسبوع أو في أيام أخرى من الأسبوع مناسبة لمن يعقد المأتم من حيث عمله وفراغ الجمهور الصغير الذي يؤم هذه المآتم . وجمهور هذه المآتم يتكوَّن غالباً من جيران المقيم للمأتم وأصدقائه وذوي رحمه .

كما جرت العادة بعقد مجلس المأتم عند الإنتقال إلى منزل جديد تبرّكاً بذكر الله والنبيّ (ص) وأئمة أهل البيت . وربما أقام البعض

مجلساً للمأتم عند قدومه من سفر الحجّ وغير ذلك من المناسبات الشخصية .

كما جرت العادة أيضاً بأن يكون مأتم الحسين جزءاً من مجلس الفاتحة الذي يعقد للميت أو حفل التأبين .

ويمكن أن نصطلح على تسمية هذا النوع من المآتم باسم « المآتم الخاصة » كما أن ما عداها من المآتم يسمى « المآتم العامّة » .

وتقام المآتم العامة في الأماكن العامة ؛ : الساحات ، والمساجد الكبرى ، والنوادي ، والحسينيات . ويشترك في تمويلها عدد كبير من الناس ينفق ما يتبرَّعون به في المبلغ المالي الذي يقدم إلى الخطيب ، وفي الضيافات التي تقدَّم إلى رواد المأتم من سجاير وقهوة أو شاي وما إلى ذلك . وتنفق كذلك في استئجار أو شراء الفراش وثمن الكهرباء .

وقد أدت هذه التطورات التي جعلت من المأتم الحسيني مناسبة كثيرة التكرار على مدار السنة وتجتذب أعداداً كبيرة جداً من الناس ـ أدت إلى إنشاء أماكن خاصة بالمأتم الحسيني تسمى « الحسينية » أو « النادي الحسيني » وهي قاعة كبيرة مخصصة لإقامة المأتم الحسيني . وقد غدت في السنين الأخيرة تستعمل في مناسبات دينية واجتماعية وثقافية كحفلات التأبين والتكريم وما إلى ذلك .

ويبدو أن هذه المؤسسة ليست حديثة التكوين ، بل ترجع إلى عهد قديم ، فقد قال السيد أمير علي في كتابه « مختصر تاريخ العرب » :

> « وكان من أفخم عمارة القاهرة في عهد الفاطميين (الحسينية) وهي بناء فسيح الأرجاء تقام فيه ذكرى مقتل الحسين في موقعة كربلاء »[1] .

---

(١) مختصر تاريخ العرب .

ويوحي كلام السيد أمير علي بأن هذا البناء كان مؤسسة رسميّة ، فقد كان الخلفاء الفاطميون يباشرون بأنفسهم إقامة عزاء الحسين .

وقد غدت هذه المؤسسة ـ في الدور الثالث من أدوار المأتم الحسيني ـ ظاهرة عامة لدى المسلمين الشيعة . ففي كل بلد شيعي صغير أو كبير مهما كانت الحالة الإقتصادية فيه يشيد بناء لهذا الغرض يحمل اسم الحسينية أو النادي الحسيني . وتتميَّز المدن الكبيرة بأنها تضمّ عدة حسينيات ، وربما كان في الحي الشيعي الكبير في المدن الكبيرة عدة حسينيات .

وقد تحدَّث السيد محسن الأمين عن هذه المؤسسة الشيعية في كتابه « خطط جبل عامل » فقال :

« حسينيات جبل عامل . جمع حسينيه . وهي بمثابة تكية منسوبة إلى الإمام الحسين السبط الشهيد ، لأنها تبنى لإقامة عزائه فيها . وأصل الحسينيات من الإيرانيين والهنود ، بنوها في بلادهم وبنوها في العراق أيضاً . ووقفوا لها الأوقاف ، وجعلوا لها ناظراً وقواماً .

وهي عبارة عن دار ذات حجر وصحن ، فيها منبر ، يأوي إليها الغريب ، وتقام فيه الجماعة ، وينزلها الفقراء ، ويقام فيها عزاء سيد الشهداء من كل أسبوع في يوم مخصوص ، وفي عشرة المحرم ، وتختلف حالتها في الكبر والصغر والإتقان وكثرة الريع باختلاف أحوال منشئيها . وهذه لم تكن معروفة قبل عصرنا في جبل عامل ... وأول حسينية أنشئت في

جبل عامل هي حسينية النبطية التحتا ، ثم
أنشئت عدة حسينيات »[1].

وقد غدت هذه المؤسسة من المظاهر العمرانية الثابتة في جميع البلاد الشيعية كما ذكرنا .

وقد أدت هذه التطورات إلى نموّ أوقاف جديدة . فإن هذه الحسينيات عقارات موقوفة ذات منفعة عامة . ووقفت الكراسي ، والسجاد . والثريات الكهربائية والمصابيح ، وآلات عمل الشاي والقهوة . كما وُقِفَت الأعلام والأقمشة السوداء التي تنشر وتكسى بها جدران هذه الحسينيات والمساجد التي يقام فيها مأتم الحسين ، وإن كان ثمة أماكن لا تكسى بالقماش الأسود حين إقامة المأتم فيها .

وعلى صعيد آخر فقد ازداد عدد الرجال المتخصصين بهذا الحقل الثقافي الديني . ويدعى أحدهم بالعربية « الخطيب » أو « خطيب المنبر الحسيني » . ويدعى بالفارسية والإردية والتركية « روزة خوان » بحسب النطق الفارسي الذي يحوّل الضادّ زاياً ، وحقيقته « روضة خوان » وخوان بالفارسية معناها قراءة ويكون معنى هذا المركّب « قراءة الروضة » والمراد بـ « الروضة » كتاب « روضة الشهداء » الذي ألّفه (المولى الحسين بن عليّ الكاشفي ، المعروف بالواعظ البيهقي – توفي سنة ٩١٠ هـ) وهو كتاب من كتب المقتل ألّفه صاحبه في بداية تأسيس الدولة الصفوية الشيعية في إيران ، وانتشر بين الناس انتشاراً واسعاً جعله يدخل في تسمية الخطيب الذي يحيي الذكرى الحسينية .

وهؤلاء الخطباء ينبغي أن يحفظوا قصة واقعة كربلاء ، وقدراً كبيراً من المعلومات في التاريخ الإسلامي – وبخاصة تاريخ صدر الإسلام –

---

(١) خطط جبل عامل .

وبعض القصص الأدبية ، وشيئاً يسيراً أو كثيراً من تفسير القرآن ، وأحاديث الفضائل الواردة في شأن أئمة أهل البيت . هذا بالإضافة إلى قدرٍ كبير من شعر الرثاء ، وينبغي أن يكون بعضه بالعامية .

وكلما ازداد الخطيب اطلاعاً في هذه المجالات ، وكان قادراً على إنشاء مزيجٍ منها يتوفَّر فيه عنصرا التشويق والفائدة ازداد الإقبال عليه من الناس .

ويراعى عادة في توقيت المأتم الزمان المناسب لوقت العمل اليومي ، فلا يعقد المأتم الحسيني في أوقات العمل ، وإنما يعقد غالباً في الصباح الباكر قبل بدء نشاط الأسواق التجارية . وهذه المجالس الصباحية لا يحضرها العمال إلا قليلاً . ويعقد في فترة العصر والمساء ، وفي هذه الفترة يكون المأتم مناسباً لجميع الفئات التي تغتنم فرصة الفراغ من العمل ، ولذا فإن المآتم العامَّة التي تقام في هذه الفترة اليومية تكون حافلة بالمستمعين . هذا في غير أيام عاشوراء ، وأما فيها فإن المآتم تقام منذ الصباح الباكر إلى فترة متأخرة من الليل ، وهي حاشدة بروادها لأن كثيراً من الناس في هذه الأيام العشرة يعدِّل مواعيد عمله أو يتوقَّف عن العمل ليتيح لنفسه فراغاً أكبر ينفقه في حضور المأتم الحسيني والإستماع إلى عدد من الخطباء .

وننبّه هنا إلى أن كتب المقتل لم تعد تصلح مصدراً لرصد التغيّرات الشكلية والنوعية التي دخلت على المأتم الحسيني .

•

فإذا انتقلنا من استقصاء التغيّرات الشكلية التي طرأت على المأتم من حيث العلنية وكثرة الرواد واتِّساع الفترات الزمنية التي يقام فيها .

والأمكنة ، والأدوات ، والخطباء ، والتوقيت ـ إذا انتقلنا من هذا إلى استقصاء التغيرات النوعية ، فسنلاحظ أنه قد حدثت تغيّرات مهمة جداً في هذا المجال جعلت من المأتم الحسيني قوّة فاعلة عظيمة الأهمية في التوجيه الإجتماعي .

وفي هذا المجال نلاحظ التغيّرات النوعية التالية :

الأول :

حافظ المأتم الحسيني على العنصر الثابت فيه : المأساة ونقد السلطة .

ولكن المأساة لم تعد تشكل عنصراً نهائياً وحيداً في المأتم ، وإن كانت لا تزال عنصراً رئيساً فيه ، وخاصة عند خطباء المنبر الحسيني المجيدين الذين يتمتعون بشعبية كبرى في الأوساط المتعلّمة وغير المتعلّمة .

واستمرَّ نقد السلطة أيضاً . ولا يزال النقد ينصبّ على الأمويين والعباسيين وغيرهم من الذين مارسوا سياسة ظالمة بالنسبة إلى أهل البيت وشيعتهم ، وأمّا الحكومات القائمة فعلاً فإن النقد يتناولها في بعض الأحيان في حدود الحرية المتاحة للخطيب في الكلام والتعبير عن الرأي ، ففي حالات نادرة يكون النقد صريحاً ومباشراً ، وفي أكثر الحالات يكون النقد غير مباشر كما هو الشأن في جميع أدوار المأتم الحسيني حين يقام علناً على مسمع من السلطة وأجهزتها .

ومن هذا النقد ما يمكن أن نسميه النقد السياسي وهو نقد الإستعمار . فإن العالم الإسلامي في العصر الحديث قد ابتلي بالإستعمار ، وأفاق من غفوة القرون المظلمة التي مرَّت على المسلمين على ضجيج مدافع المستعمرين ولسع سياطهم ، وقد انفعل المأتم الحسيني المتطور في دوره الثالث بهذا الواقع وعكس غضب الجماهير المستعمَرة وتطلعاتها . وغدا بعض الخطباء المحدثين ، المتفاعل مع قضايا العصر يتناول في سياق المأتم الحسيني قضايا الشعوب المستعمَرة .

الثاني :

تخلّصت لغة المأتم في هذا الدور من آثار الدور الثاني في هذا المجال ، فقد تخلّت عن السجع ، وتخلصت من الركاكة ، وغدت لغة بسيطة سهلة قريبة إلى الافهام . ويلجأ الخطيب في كثير من الأحيان إلى استعمال اللهجة العامية في حديثه من على المنبر لمصلحة الأميين وأشباههم ممن قد يعجزون عن فهم النصوص المعقدة .

الثالث :

غدا المأتم يشتمل غالباً على عرض تاريخي يحيط ثورة الحسين بعواملها التاريخية في حدود سعة وعمق الثقافة التاريخيَّة للخطيب ، وينال العهد الأموي أكبر قدر من الإهتمام منذ تسلّط معاوية بن أبي سفيان ، وربما منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان في بعض الحالات .

وهذا الجانب التاريخي من المأتم يبرز الأمور التالية :

١ ـ تجاوزات الأمويين عن مبادئ الإسلام في سياساتهم من حيث علاقتهم بالمعارضة ، ونظرتهم إلى الإنسان المسلم ، وتصرفاتهم في الأموال العامَّة ، ونقضهم للعهود ، وتنكرهم للأخلاق الإنسانية ، هذا بالإضافة إلى ما حفلت به الحياة الخاصة للكثيرين منهم من فجور وفحش .

٢ ـ ظلمهم لأئمة أهل البيت بخاصة وللعلويين بشكل عام .

٣ ـ ظلمهم لشيعة أهل البيت وتنكيلهم بهم .

وينال التاريخ العباسي قدراً كبيراً من الإهتمام عندما يكون المجلس مخصصاً لذكرى أحد الأئمة الذين عاشوا في أيام العباسيين . ويتناول حديث خطيب المنبر الحسيني في هذه الحالة تجاوزات الخلفاء العباسيين وأعوانهم في الأمور الآنف ذكرها ، ولا يهمل الخطيب ذكر الأمويين على كل حال .

الرابع ـ الدقة التاريخية :

لقد ازداد الحرص على الدقة التاريخيَّة نتيجة للأعمال النقدية التي أنشئت في السنين الأخيرة بجهود بعض الأعلام ، ونتيجة للوعي الذي بثَّته بعض المؤسسات الثقافية في العراق وغيره فيما ينبغي أن يكون عليه المأتم الحسيني . وقد استبعدت نتيجة لذلك الروايات غير الموثقة تاريخيّاً ، ولم يعد الخطيب يذكر إستنتاجات بعض الكتَّاب والوعاظ على انها وقائع تاريخيَّة .

ومن أبرز مَن ساهموا في حمل خطباء المنبر الحسيني على التزام الدقة التاريخيَّة ، وعملوا على تنقية المقتل من الأخبار الموضوعة المرحوم السيد محسن الأمين ، وقد قال في هذا الشأن في مقدمة كتابه المجالس السنية :

« .. ولكن كثيراً من الذاكرين لمصابهم قد اختلقوا أحاديث في المصائب وغيرها لم يذكرها مؤرخ ولا مؤلِّف ، ومسخوا بعض الأحاديث الصحيحة وزادوا ونقَّصوا فيها لما يرونه من تأثيرها في نفوس المستمعين الجاهلين بصحة الأخبار وسقمها حتى حفظت على الألسن وأودعت في المجامع ، واشتهرت بين الناس ، ولا رادع . وهي من الأكاذيب التي تغضبهم (ع) وتفتح باب القدح للقادح ، فإنهم لا يرضون بالكذب الذي لا يرضي الله ورسوله (ص) . وقد قالوا لشيعتهم : كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا ، وقد اكتسبوا هم ومَن قَبِلها منهم وأقرَّهم عليها الإثم المبين ، فإن الله

لا يطاع من حيث يعصى ، ولا يتقبّل الله إلا
من المتقين . والكذب من كبائر الذنوب
الموبقة لا سيما إن كان على النبيّ (ص)
وأهل بيته الطاهرين »[1] .

ومن نماذج مراعاة الدقة التاريخيّة في هذا الدور ما علّق به المرحوم السيد عبد الرزاق المقرم عند ذكر خروج القاسم ابن الإمام الحسن إلى القتال معرِّضا بما اشتهر على الألسن من أن الإمام الحسين زوّجه من إحدى بناته في يوم عاشوراء :

«كل ما يذكر في عرس القاسم غير صحيح
لعدم بلوغه سن الزواج ولم يرد به نص صحيح
من المؤرخين .. »[2] .

الخامس :

احتلت مركزاً مهماً جداً في المأتم الحسيني الدراسات الإسلامية ، والدعوة إلى الإسلام ، وردّ شبهات الملحدين حول الإسلام ، ومحاكمة الدعوات الإلحادية واللاأخلاقية ، وكذلك الدراسات القرآنية والتفسير .

ويحدث غالباً أن الخطيب يبدأ كلامه بآية من كتاب الله تعالى يفسّرها ، ويخلص منها إلى بحث إسلامي في العقيدة أو في الشريعة أو في الأخلاق أو في دفع الشبهات عن الإسلام ، ثم يمرّ في حديثه على شيء من التاريخ ، ثم يخلص من ذلك إلى ذكر شيء مما جرى على أهل البيت ، ويختم بذكر الإمام الحسين .

---

(١) السيد محسن الأمين ـ المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية (الطبعة الخامسة ـ مطبعة النعمان ـ النجف) ج١ ، ص : ٤ .ولاحظ أيضاً ـ السيدمحسن الأمين : رسالة التنزيه ـ الطبعة الثانية ـ ص : ١٤ و١٧ ـ ٢٠ .

(٢) السيد عبد الرزاق المقرم ـ مقتل الحسين (الطبعة الرابعة ـ مطبعة الآداب : ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م) ص : ٣٢٠ .

وقد غدت هذه الدراسات الإسلامية والقرآنية في بلاد كثيرة ، ولدى مساحات واسعة من الرأي العام مقياساً تعتمد عليه الجماهير في الإقبال على المأتم الحسيني وانكفائها عنه ، كما أن هذا المقياس يعتمد في اختيار الخطيب الحسيني المجوّد في هذا الشأن .

السادس :

ولعلّ من المناسب هنا أن نشير إلى مسألة أسلوبية في المأتم الحسيني حدثت ـ فيما نعتقد ـ في العصور الأخيرة ، وهو ما يسمى في العامية العراقية بـ « الكريز » ويراد به « التخلّص » إلى ذكر مصيبة الإمام الحسين في نهاية المأتم ، وختم المأتم بها بعد أن لم تعد هي كل شيء في المأتم الحسيني .

والذي يحدث أنه بعد أن ينهي الخطيب حديثه عن الجوانب الدينية والتاريخية والإجتماعية وغير ذلك من العناصر المكوِّنة للمأتم الحسيني ، يبدأ في حديثه عن كربلاء .

والخطيب في هذه المرحلة من المأتم يسعى إلى إحداث توتر نفسي وتكوين شحنة عاطفية عند سامعيه تدفعهم إلى البكاء . وعندما تأتي لحظة التوتر النفسي التي يكون الخطيب قد وفق إلى إحداثها في نفوس سامعيه لا ينتقل إلى ذكر المصيبة فوراً ، وإنما ينتقل إلى هذه المرحلة الختامية عن طريق (التخلص = الكريز) وهو يرتكز على ذكر حادثة تتضمَّن مشابهة ما لجانب من جوانب المأساة الحسينية تسمح بالمقارنة بينها وبين الجانب المراد ذكره من المأساة بحيث لا يشعر السامع باختلاف الوقع النفسي والإنتقال من جوٍ إلى جوّ ، وإنما ينساب الحديث انسياباً من الموضوع المتقدم في الحديث إلى الشأن الحسيني .

ثم يدخل الخطيب ـ بعد ذلك ـ في ذكر تفصيل معيَّن للمأساة الحسينية يتوصل به إلى إحداث التفجير النفسي والعاطفي . ويختم مجلسَ

المأتم بإنشاد بيتٍ أو بيتين من الشعر بأسلوب النوح الغنائي .

* * *

إن التخلُّص أمر معروف في الشعر العربي منذ أقدم العصور ، وهو يقوم على الفكرة التي ذكرناها آنفاً ؛ فكلما شعر السامع بأنه يعيش في أجواء ذهنية ونفسية متجانسة مع الإنتقال من موضوع إلى موضوع كان ذلك دليلاً على توفيق الشاعر وإجادته وإحسانه . والشواهد على التخلُّص في الشعر العربي أكثر من أن تحصى ، ومنها قول زهير بن أبي سلمى :

إن البخيـل ملوم حيث كـان   ولكن الجـواد على علاّته هرم

ويبدو أن الحاجة إلى التخلُّص في المأتم الحسيني جاءت من تنوّع محتوى المأتم ، وتعدد الموضوعات التي يعالجها خطيب المنبر الحسيني في حديثه ، وهو ما نقدّر أنه حدث في الدور الثالث من أدوار المأتم الحسيني . أما في الدور الثاني من أدواره فلم تكن ثمة حاجة ملحَّة إلى التخلُّص لأن محتوى المأتم كان غالباً متجانساً أو شبه متجانس ، ولم يكن قد نضج في تطوّره كما حدث في الدور الثالث .

ويشهد لما نقول أن كتاب المنتخب للشيخ فخر الدين الطريحي (توفي : ١٠٨٥ هـ) وهو يمثل ذروة ما وصل إليه المأتم في الدور الثاني ، لا يوجد في مجالسه أثر للتخلُّص ، وما ذلك إلا لأن المأتم كان ذا موضوع وحيد ولم يكن قد شهد التنوّع في موضوعاته كما حدث له في الدور الثالث .

السابع : القضايا الإجتماعية والتربوية :

لقد غدا المأتم في دوره الثالث يعالج القضايا الإجتماعية والتربوية تارة بصورة مباشرة وأخرى بصورة غير مباشرة ؛ فإن القضايا البارزة

في ثقافتهم وتطلّعاتهم يعالجون في كلامهم على المنبر الحسيني قضايا التمزّق الإجتماعي الناشئ من سيطرة الرواسب القبلية والعشائرية على المجتمع ، وقضايا التعاون الإجتماعي والتكافل الإقتصادي ، وقضايا تقليد الغرب في حضارته المادية وانحلاله الأخلاقي . كما تعالج بعض المسائل المتعلقة بتربية الأطفال ومناهج التعليم .

وخطيب المنبر الحسيني يعالج هذه القضايا بنقل أفكار الباحثين المسلمين أو غير المسلمين مع التصريح بأسماء هؤلاء الباحثين أو إغفال أسمائهم . وكثيراً ما يكون بحث الخطيب بهذه القضايا إمتداداً لحديثه عن الإسلام في عقيدته وأخلاقياته ، أو في رد الشبهات التي تثار حوله ، أو في المقارنة بين ما عليه حاضر المسلمين وما كانوا عليه في ماضيهم المجيد .

* * *

هذه هي التغيرات التي طرأت على المأتم الحسيني في الدور الثالث من أدواره ، ما يعود منها إلى الجانب الشكلي وما يعود منها إلى محتوى المأتم الحسيني .

والمأتم الحسيني في الدور الثالث من أدواره هو الصيغة السائدة للمأتم الآن عند المسلمين الشيعة في أكثر أنحاء العالم ، مع وجود تفاوت بسيط في بعض التفاصيل بين محيط وآخر كما تقضي بذلك طبيعة الأشياء .

ونقدّر أن المأتم في بعض المناطق الشيعية لا يزال محتفظاً بأكثر سمات دوره الثاني ، ولم يبلغ بعد أن يتجاوز هذا الدور تماماً . ولعل ذلك هو السائد في كثير من الأرياف الإيرانية عند الشيعة في ريف الهند وباكستان ، وفي بعض مناطق آسيا الأخرى .



الحاضر وتطلّعات المستقبل

هذا هو المأتم الحسيني في حاضره .

والمأتم الحسيني الآن في أفضل حالاته ، وحين يقوم به الأكفاء من رجال المنبر المتخصّصين في شأنه ، وليس الجهلة المتطفلين عليه ـ كما يحدث في حالات كثيرة ـ هو مؤسسة من أعظم المؤسسات الإسلامية الثقافية خيراً وبركة بما يقوم به من دور فعّال في التوعية الدينية ، ونشر الثقافة الإسلامية ، وبما يقوم به من الكشف عن ثروتنا الفكرية والحضارية ، وبما يؤدّيه من توجيه إسلامي صحيح في غمرة التوجيهات الفكرية والعقيدية والإجتماعية الغريبة عن تراثنا وعن حضارتنا ، هذه التوجيهات التي ارتَدَت بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي طابع الغزو الفكري الحقيقي يقوم به الغرب والشرق والمفتونون بهما في عالمنا العربي والإسلامي .

وإذا كان من الحق أن نعترف بأن ما طرأ من تطوّرات إجتماعية وسياسية وحضارية في العصر الحديث ، وبخاصة في العقود الأخيرة من السنين ، وقد ساهم في تطوير المأتم الحسيني واتجاهه نحو الإستجابة لمطالب مرحلة المواجهة التي يعيشها المسلمون مع تحديات الإستعمار وغزوه الفكري ـ إذا كان من الحق الإعتراف بهذا ، فإن من الحق أن نعترف أيضاً بأن جهوداً خيّرة كثيرة قد بذلت في هذا السبيل في مجالات التوجيه والتأليف المنطلقين من الدراسة الواعية لحاجات العصر والإستجابة لهذه الحاجات ، ولولا هذه الجهود المخلصة لما أثمرت التغيرات الحياتية العامَّة ثمرتها في تطوير المأتم الحسيني نحو الأحسن .

فلا يسع مهتماً بدراسة هذه المسألة أن يغفل جهود المرحوم السيد محسن الأمين رحمه الله الذي ساهم بقلمه وممارسته الشخصية مساهمة فعالة في تطوير المأتم الحسيني من جهات متعددة .

ولا يسع باحثاً في هذا الموضوع أن يغفل أثر كتبه ؛ (المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية » و « إقناع اللائم » و « لواعج الأشجان في مقتل الحسين » و « رسالة التنزيه في أعمال الشبيه » .

وقد تعرَّض رحمه الله بسبب جهوده في هذا السبيل للتجريح وللحملات العنيفة من قِبَل أوساط كثيرة كانت ترى في عملية التغيير تهديداً لاستمرار المأتم الحسيني وسائر الشعائر الحسينية ، وإن كانت بعض هذه الأوساط قد تجاوزت في نقدها ومعارضتها أسلوب الحوار العلمي .

ولكن التغيرات كانت قد فرضت نفسها على الجميع .

وإذا كانت أفكار السيد محسن الأمين ومن يرى رأيه لم تنجح فيما يتعلّق ببعض المظاهر الإستعراضية كضرب الرؤوس بالسيوف ، ومواكب اللطم الإستعراضية في الشوارع والساحات العامة ، وضرب الأكتاف والظهور بالسلاسل ـ فإن من المؤكد انها نجحت في تكوين نظرة نقدية إلى ما كانت عليه حال المأتم الحسيني ، وساهمت في تطويره من حيث المحتوى كثيراً ، كما أنها شجعت أصحاب الفكر المستقبلي من الشيعة على أن يوجّهوا الأنظار إلى سلبيات المظاهر الإحتفالية ، ويقترحون صيغاً بديلة لها[1] .

---

(١) في محاضرات ، ومقابلات في الراديو ، والتلفزيون ، وأحاديث صحفية إقترحنا استبدال أعمال ضرب الرؤوس بالسيوف (التطبير) في اليوم العاشر من المحرم والذي يجري في مناطق شيعية في العراق وغيره ـ إقترحنا استبدال هذا العمل بتأسيس بنوك للدم على إسم الحسين يتبرع بها الراغبون في المواساة بدمائهم للمرضى والمصابين والمحتاجين .

بالإضافة إلى جهود المرحوم السيد محسن الأمين ، ساهمت مؤسسات ثقافية ومعاهد علمية في العراق وإيران وغيرهما في إنجاح عملية التطوير التي نشهدها الآن .

وأول من دعا إلى تطوير المأتم الحسيني في العراق بما يلائم روح العصر هو جمعية منتدى النشر في النجف الأشرف وعلى رأسها العلامة المرحوم الحجة الشيخ محمد رضا المظفر وأخينا العلامة السيد الحجة محمد تقي الحكيم .

وقد كانت لدى الشيخ والسيد ورفاقهما من رجال العلم والأدب رؤية واضحة صحيحة للمشكلة ولطرق حلّها بما يتلاءم مع المتغيّرات الجديدة .

وكان من جملة أهداف جمعية منتدى النشر تأسيس كلية لتخريج خطباء المنبر الحسيني المستوعبين للمتغيّرات ، والواعين لظروف العصر القادرين على مواجهته بالثقافة الرصينة العميقة ، والعلم ، والموضوعية ، لا بالخرافة والتهريج كما كان يحدث في كثير من الحالات .

ومع أن هذه الدعوة إلى التغيير قد جوبهت في النجف بعنف فاق كل توقع ، وأثارت ردود فعل سلبية حادة في بعض الأوساط ، إلا أن القائمين على دعوة التغيير ثبتوا بالرغم من أنهم لم يتمكنوا من تحقيق طموحهم إلى تأسيس كلية لتخريج خطباء المنبر الحسيني ، فقد عملوا بأساليب غير نظامية على نشر الفكرة الطموحة التي لاقت قبولاً بل ترحيباً في أوساط كثيرة ، وكان من خيرات هذه الفكرة تكوين عدد من الخطباء البارزين في حقل المأتم الحسيني يحظون بإقبال واسع من الجماهير ويحققون نفعاً كبيراً . وقد زاد عددهم كثيراً في السنين الأخيرة والحمد لله .

وقد أسست جمعية منتدى النشر بعد ذلك « كلية الفقه » فجعلت من جملة أهدافها التغييرية العلمية الثقافية هذا الهدف الكبير . وقد

تخرّج منها جملة من الخطباء المتخصصين في شأن المأتم الحسيني والمسلحين بالوعي لمشكلات عصرهم ، والمعرفة الكافية بأداة عملهم وشروطه .

وإنه لمما يشرفني ويسعدني أن أكون ـ في حدود الفرص التي أتيحت لي ـ قد ساهمت مع زملائي في الهيئة التدريسية في كلية الفقه ، بنصيب ضئيل في عملية التطوير .

هذا عن الحاضر ..

وأما عن المستقبل بالنسبة إلى المأتم الحسيني بخاصة ، وإلى الشعائر الحسينية بعامّة ، فنرى أن نوجّه النظر قبل ذكر بعض التطلّعات إلى حقيقة من حقائق التاريخ والحضارة ، بالنسبة إلى المؤسسات الحضارية كلها ، وبالنسبة إلى المؤسسات الثقافية الإجتماعية منها بوجه خاص .

وهذه الحقيقة هي أن المؤسسة الثقافية الإجتماعية ليست هدفاً في حدّ ذاتها ، إنها ليست غاية ، وإنما هي وسيلة وجدت لتساهم في إغناء الإنسان ، وإثراء عالمه الداخلي ، ومساعدته على التناغم مع واقعه الخارجي المتدفق بالتغيرات مع احتفاظه بشخصيته المعنوية والحضارية . وأن المؤسسة الثقافية الإجتماعية ـ وهذه هي وظيفتها ـ لا تعمل في محيطها البشري ـ في هذا العصر ـ وحدها ، ولا تتعامل بمفردها مع إنسان مجتمعها وإنما يتعرض هذا الإنسان ـ في كل عصر ، وفي هذا العصر بوجه خاصّ ـ لتأثير مؤسسات إجتماعية ـ ثقافية أخرى ، بعضها خارجي ، وبعضها داخلي . وتحمل هذه المؤسسات الثقافية ـ الإجتماعية الأخرى رؤيا ثقافية وإجتماعية ، ومن ثم رؤيا حضارية ، غير إسلامية . وتستخدم هذه المؤسسات الأخرى أجهزة ووسائل الإعلام والتأثير ،

وأكثر أساليب التشويق فاعليةً في بثّ توجيهاتها ورؤياها في عقول الناس وقلوبهم ، منطلقة من الإستجابة لمتغيّرات عصرها في سبيل تثبيت رؤياها الحضارية ، مساهمة بذلك في صنع هذه المتغيّرات .

ولذا فإن المؤسسة الثقافية الإجتماعية ذات المحتوى الديني الإسلامي لا بد أن تكون واعية لتستوعب تغيرات عصرها ، ولا بد أن تكون ـ مع وعيها ـ مرنة لتستجيب ـ انطلاقاً من قواعدها الفكرية ـ لهذه المتغيرات . وذلك من أجل أن تكون ـ بوعيها ومرونتها ـ ذات قدرة على التصدي لما لا يتلاءم مع رؤياها هي من أفكار واتجاهات تبثها المؤسسات الثقافية ـ الإجتماعية الأخرى ، فتصححها ، وتكون قادرة على التحدي ، وتكون قادرة على الإنتصار أو على الثبات ـ على الأقل ـ أمام تحديات المؤسسات الأخرى ، فلا تفقد جمهورها الخاص الذي يستجيب لنداءات الواقع وضروراته .

ولا بد أن تستخدم المؤسسة الثقافية الإجتماعية ذات المحتوى الديني الإسلامي وسائل عصرها المتطوّرة لتكون أكثر فاعلية وتأثيراً في الجمهور الذي تخاطبه وتتعامل معه ، ولتكون مساوية في القدرة مع المؤسسات الأخرى المنافسة لها ، ولتكون قادرة على تغطية مساحة من الجمهور بنشاطها .

هذا مع المحافظة على صفة الأصالة في حالة الإستجابة لضرورات الحداثة ، فلا تطغى ضرورات الحداثة على صفة الأصالة ، فتخرج المؤسسة عن حقيقتها ، ويخرج قادتها عن جوهر رسالتهم .

وإلا فإن المؤسسة الثقافية ـ الإجتماعية إذا تصلّبت في المحافظة على بنيتها القديمة وهيكليتها التقليدية غير آبهة للتغيرات المحيطة بها في الحياة والناس ، تحت شعار الخوف من فقدان ركائزها والحرص على صفة القداسة فيها ـ إذا فعلت المؤسسة الثقافية ـ الإجتماعية ذلك

فإنها تواجه أحد مصيرين :

إما أن تضمر تدريجياً ثم تموت ، لأنها تفقد جمهورها التقليدي بالموت دون أن تكسب جمهوراً جديداً لأن الأجيال الجديدة لا تحمل رؤيا المؤسسة وتطلعاتها .

وإما أن تعيش المؤسسة ، ولكنها تفقد صفتها البنائية الرسالية وتتحول إلى ما يسمى «فولكلور» . إنها حينئذٍ ، لا تعود بالنسبة إلى الجمهور أداة بناء فكري وتوجيه عملي ، وإنما تغدو أداة تسلية تجتذب الناس لأجل الترفيه عنهم ، ولا تسهم في توجيههم أبداً .

ولا نستغربن هذا ، فإن كثيراً من مظاهر ما يسمّى «فولكلور» عند كل أمّة من الأمم هو بقايا مؤسساتها الثقافية التي تحجَّرت ولم تتفاعل مع متغيرات عصرها ، وهو حطام ممارسات كانت في الماضي ذات معنى ثقافي بانٍ وموجّه فلما فقدت صلتها بحياة الناس وتطلعاتهم غدت شيئاً من لهو الحياة بعد أن كانت شيئاً من جدّها .

* * *

انطلاقاً من هذه الحقيقة الأساسية في سير التاريخ والحضارة لا بدَّ لنا أن نواجه تحديات المستقبل بالنسبة إلى المأتم الحسيني بتطلعات تستجيب لهذه التحديات وتنتصر عليها ، آخذين بنظر الإعتبار ما أشرنا إليه آنفاً من أن الأخذ بمنطق الحداثة والإستجابة لضروراتها يجب أن يرافقه الحرص على صفة الأصالة التي تحفظ لمؤسسة المأتم الحسيني قدسيتها الدينية ، وفوائدها الروحية والتربوية .

في نطاق هذا الفهم نتطلّع إلى الأمور التالية :

الأول :

لا بد في المأتم الحسيني من المحافظة على مبرر وجوده ، وهو تاريخ

ثورة الإمام الحسين ؛ فلا يلغى تاريخها من المأتم تحت شعار الحداثة وما تقضي به من تناول القضايا الإجتماعية والثقافية الملحّة ، بل يجب أن تحظى الثورة الحسينية بحصة مناسبة من الوقت المخصص للمأتم .

في هذا الشأن نتطلّع إلى ما يلي :

أ ـ أن تقدم الثورة الحسينية في نطاق الحقيقة التاريخية . مع ذكر ظروفها التاريخيَّة ومقدماتها ونتائجها ، من دون مبالغات . وبلغة فنية مفهومة للإنسان البسيط ، بعيداً عن الأساليب المسرحية في الإلقاء بحيث ينشأ التأثير النفسي نتيجة للتعاطف الفكري لا نتيجة للإنفعال العصبي .

ب ـ أن تخصص مجالس بكاملها لبحث حال أنصار الحسين ؛ فإن من أغرب الظواهر في المأتم الحسيني إهماله لهؤلاء الشهداء الكرام رضوان الله عليهم الذين يوضعون في الظل دائماً . ولا يرد ذكرهم إلا عرضاً لاستكمال خصوصيات الصورة المحيطة بالإمام الحسين . مع أن تاريخ مساهمتهم في الثورة الحسينية غنيّ بالإمكانات التي تجعل من سيرة كل واحد منهم أو من سيرة كل مجموعة منهم منطلقاً لأفكار تربوية وتوجيهية كثيرة . ومن بين كتب المقتل ـ على كثرتها ـ إنفرد كتاب المنتخب للشيخ فخر الدين الطريحي باشتماله على بعض المجالس المخصصة لذكرى هؤلاء الشهداء رضوان الله عليهم وهو ما أشرنا إليه في ملحق فصل الزيارة ، وفي حديثنا عن الدور الثاني من أدوار المأتم الحسيني .

جـ ـ أن يظهر دور المرأة في كربلاء بصورة أجلى مما يحدث الآن ؛ فإن الذي يحدث الآن يتميَّز بظاهرتين :

الأولى : ـ هي تسليط الأضواء على بعض النسوة فقط (السيدة زينب ـ السيدة سكينة ـ السيدة الرباب) ويهمل غيرهنَّ إهمالاً تاماً

أو يرد ذكرهن عرضاً .

الثانية : ـ أن الحضور النسوي في المأتم الحسيني حضور عاطفي محض ، فإن الحديث عن المرأة في كربلاء يوجَّه لخدمة الهدف العاطفي لا لخدمة الهدف التربوي .

والذي نتطلَّع إليه أن يشمل الحديث عن دور المرأة في كربلاء كل ما يمكن الحصول عليه من معلومات تاريخية عن النساء اللاتي عايشن الواقعة علويات كن أو غير علويات . وأن تتوجه العناية في المأتم الحسيني في مجال الحديث عن دور المرأة في كربلاء إلى الجوانب التربوية من مواقفهنّ ، وردود فعلهنَّ أمام الأحداث ، واستقبالهن للنهاية الفاجعة باستشهاد الأزواج ، والأخوة ، والأبناء ، والآباء .

ونحن ندرك أن مادة الحديث عن المرأة في كربلاء تحتاج إلى أبحاث تاريخيَّة واسعة النطاق ، لم تبذل حتى الآن ، تجمع كل الأخبار المتعلقة بهذا الموضوع وبغيره من شؤون المأتم الحسيني ، وهو بحث كان يجب أن يكون قد أنجز منذ قرون بالنسبة إلى مؤسسة بلغت من العمر ثلاثة عشر قرناً . وإذا لم يكن قد أنجز في الماضي فيجب أن ينجز الآن بجهود المهتمين بشؤون المأتم الحسيني من الباحثين ، ويمكن أن يشارك في هذه المهمة نخبة خطباء المنبر الحسيني الذين نعرف أنهم أهل للقيام بهذه الأبحاث .

الثاني :

ينبغي المحافظة على المستوى الجماهيري للمأتم المتطوّر المتجاوب مع متغيرات العصر مع تطوير نوعٍ من المأتم الحسيني يلبي تطلعات المثقفين . .

فالذي يحدث الآن يُخشى أن يؤدي إلى نشوء نوعٍ من المأتم الحسيني يعالج قضايا الفكر والإجتماع والتاريخ بأسلوب رفيع قد لا يصل إليه

فهم الأميين وأشباه الأميين ، بل وحتى ذوي القلم البسيط ، مما قد يؤدي بهؤلاء إلى الإنصراف عن ارتياد المأتم أو البقاء في دائرة المأتم في دوره الثاني :

والذي يدعونا إلى هذه الخشية هو أن الخطباء الموهوبين الذين أتيحت لهم فرص جيّدة لإتقان مهنتهم يطمحون إلى مستوى يجعل جمهورهم من الفئة المثقفة والمتعلمة تعليماً جيّداً وعالياً ، وهذا يدفع بهم إلى إهمال الكثرة الساحقة من جمهور المأتم الحسيني . وأن الخطباء العاديين الذين لم تتح لهم تلك الفرص التي أتيحت لزملائهم محصورون في نوعٍ من المأتم الحسيني لا يزال يحمل كثيراً من سمات الدور الثاني من أدوار المأتم . وهذا ما يدفع بالمتعلمين إلى عدم ارتياد مجالسهم ويحصر جمهورهم بالفئة غير المتعلمة التي تتعرَّض لتأثيرات الدور الثاني من أدوار المأتم الحسيني ، وتحرم من حسنات المأتم في دوره الثالث .

ولذا فإننا نتطلّع إلى صيغة تلبّي حاجة المثقفين وتخدم مَن دونهم من جمهور المأتم الحسيني . وهذا ما نعتقد أن التطلّع الثالث يحقّقه .

الثالث :

الذي يحدث الآن ـ كما في الماضي ـ أن الحوزات الدينية الشيعية في العراق وإيران وغيرهما تقدم إلى المنبر الحسيني خطباءه من رجال يفضِّلون سلوك هذا النهج على متابعة تحصيلهم العلمي في حقول الدراسات الفقهية والأصولية .

هذا ما يحدث في الغالب ، وثمة حالات نادرة يبتدئ خطيب المنبر الحسيني حياته في هذا الحقل متدرّباً بين يديّ خطيب نابه كبير الشأن .

وفي جميع الحالات ينمو هذا الفريق من رجال التوجيه الديني نمواً عشوائياً بدون تخطيط وبدون مناهج تستجيب للحاجات ولنوعية

الجمهور ، فيحدث ما ذكرنا في المقطع الثاني من هذه التطلعات .

ولا يمكن التغلب على الصعوبات الحاضرة والمستقبلـة إلا باعتماد التخطيط والمنهجة . وذ لك لا يتم إلا بإنشاء معهد دراسي ذي مرحلتين ثانوية وعالية توضع له مناهج دراسية ملائمة لحاجات الجمهور بصورة عامة ، مع بذل عناية خاصة بتنوع الجمهور بين بلد وبلد ومحيط ثقافي ومحيط ثقافي آخر ، فتكون ثمـة مناهج خاصة تستوعب الفروق الثقافية التي يتميَّز بها محيط بشري عن محيط آخر يختص بها أولئك الخطباء الذين يمارسون مهمتهم في المحيط المعيّن ، فمثلاً يكون ثمة منهاج دراسي عام وأساس يشترك فيه جميع الدارسين في المعهد ، ويكون ثمة منهاج خاصّ إضافي للخطباء الذين يغلب أن يمارسوا مهمتهم في الخليج يستوعب هذا المنهاج السمات الخاصة في ثقافة الإنسان المسلم في الخليج ، وكذلك الحال في العراق وإيران وشبه القارة الهندية وما إلى ذلك .

وإذا كانت تجربة جمعية منتدى النشر قد واجهت صعوبات حالت بينها وبين أن ترى النور فلعلَّ الظروف الآن أكثر ملاءمة في بلاد أخرى للقيام بهذه التجربة .

ولعلَّ مما يسهّل الوصول إلى رؤية واضحة للمشكلات التي تواجه المنبر الحسيني ورجاله أن يتداعى البارزون في حقل المنبر الحسيني في كل بلد إلى مؤتمر عام يتدارسون فيه مشكلات مهمتهم وسبل حلّها ، والطرق الكفيلة بتطوير أساليب الخطابة على المنبر الحسيني .

ويمكن أن يسبق ذلك مؤتمرات محليّة للبارزين من خطباء المنبر الحسيني يتدارسون مشكلات محيطهم الخاص ويعدّ بعضهم دراسات عن هذه المشكلات والإقتراحات التي تعرض في الموضوع وأساليب الحلول ، ثم يتداعى الجميع بعد ذلك إلى مؤتمر عام يضع خطَّة شاملة .

* * *

الرابع :

لا يزال المأتم الحسيني النسائي على حاله منذ أقدم العصور ، كما لاحظنا ذلك في مطلع دراستنا لأدوار المأتم الحسيني . بل إنّ هذا المأتم الحسيني النسائي قد انحطّ وتخلّف عمّا كان عليه حين بدأ إذا لاحظنا لغة المأتم وغلبة اللطم عليه .

وهذا الواقع أدّى في هذا العصر إلى أن النساء والفتيات المتعلمات قد انصرفن عن ارتياد هذه المآتم النسائية لأنهن لا يجدن فيها فائدة ولا جدوى . وهي كذلك من بعض الوجوه . فإذا استثنينا فائدتها في التذكير بمصائب أهل البيت ، وتجديد الصلة العاطفية بهم ، لم تكن لها فائدة أخرى ، فهي لا تقدم فائدة ثقافية تاريخيَّة أو إسلامية عقيدية أو غير ذلك مما يتصل بالثقافة الدينية ، كما أن انصراف المتعلمات عنها ـ بسبب ضحالتها وطريقة ممارستها ـ يجعلها محصورة بالاميّات وأشباههنّ ، وهذا ما يفقدها جمهورها باستمرار وبسرعة في البلاد التي ينمو فيها تعليم الفتيات ، وإذا بقي وضع هذه المآتم النسائية على حاله فسيأتي وقت تنقرض فيه ولا يعود لها وجود بين الشعائر الحسينية الأخرى .

ولأجل تطوير المأتم الحسيني النسائي نتطلّع إلى تغييرين :

الأول : ـ حثّ فريق من المتعلمات على أن ينصرفن إلى هذه المهمة ، وذلك بحفظ الأشعار المناسبة ، وتاريخ الثورة الحسينية ، وقدر مناسب من التاريخ العام ، مع ثقافة إسلامية وقرآنية تؤهلهن لممارسة خطابة المنبر الحسيني النسائي بنحو يجعل من المأتم النسائي مناسبة قادرة على اجتذاب المتعلمات وأشباههنّ .

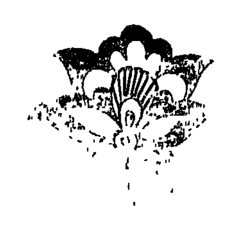
الثاني : ـ أن يشارك النساء في حضور المآتم الحسينية المخصصة للرجال . فإن المنبر الحسيني لا تختص فائدته الروحية والتوجيهية بالرجال وحدهم ، ومشاركة النساء في هذه المآتم يوسّع من دائرة تأثيرها ، ويتيح

لفريق كبير من النساء فوائد دينية وثقافية لا تتاح لهن في مآتمهنّ الخاصة .

ولا يبدو لنا أن ثمة ما يحول دون مشاركة النساء للرجال في مأتم حسيني موحد سوى الإختلاط ، وهذا أمر يمكن التغلب عليه بتغيير بسيط في أبنية الحسينيات ، والقاعات العامة التي تعقد فيها المآتم الحسينية ، بحيث تحول دون الإختلاط وتحقق المشاركة في المأتم ، ووسائل الإذاعة والبث الكهربائية الحديثة تجعل أمراً من هذا القبيل سهلاً ميسوراً

هذا هو المأتم الحسيني ، في نشأته وظروفها ، وفي أدواره التي مرت عليه خلال ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً منذ النصف الثاني من القرن الأول حتى نهايات القرن الرابع عشر الهجري ، وتقلباته في هذه الأدوار حتى استقرّ على الصيغة التي عرضنا سماتها في دوره الأخير .

وهذه هي تطلعات المستقبل التي نثق بأنها إذا تحققت فستجعل من المأتم الحسيني إحدى أعظم المؤسسات الثقافية الدينية فاعلية وقدرة على بناء الإنسان والمجتمع بالفكر والوعي . والحمد لله ربّ العالمين .



الفصل الخامس

ظاهرة البكاء
النصوص المشرعة



ظاهرة البكاء

ظاهرة البكاء مثار نقد كثير . ومع أنها ليست ظاهرة منفصلة عن المأتم الحسيني إلا اني آثرت إفرادها بالبحث في فصل مستقل عن مباحث المأتم الحسيني من ناحية منهجية ، وذلك لتسهل ملاحظتها وفهمها .

ولعلّ الموضوعية تقضي علينا بأن نسمي هذه الظاهرة « ظاهرة الحزن في المأتم الحسيني والذكرى الحسينية » فالحزن أعمّ من البكاء ، ومن يحزن ربما يبكي وربما لا يبكي .

ونلاحظ أن الحزن والبكاء ليسا أمرين إختياريين يستطيعهما الإنسان ساعة يشاء ، ويمتنع منهما ساعة يشاء .بل هما أمران خارجان عن الإرادة المباشرة للإنسان ، فإذا أرادهما كان عليه أن يهيئ نفسه لهما باستذكار ما يولّد في القلب مشاعر الحزن وفي القلب دواعي البكاء .

كما نلاحظ أن هذه الظاهرة « ظاهرة الحزن » ليست شيئاً عارضاً في المأتم الحسيني والذكرى الحسينية ، بل هي ظاهرة أصيلة فيها لا تنفك عنها ، فقد تكوّن المأتم الحسيني وأنشئ ليعبّر الشيعي فيه عن حزنه لما حدث في كربلاء ، وقد يدفعه الحزن في حالات كثيرة إلى البكاء .

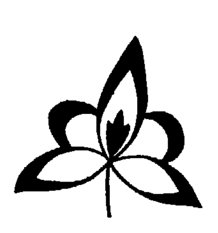
وقد لاحظ أحد كتاب المقتل المتأخرين ، وهو السيد ابن طاووس (توفي سنة : ٦٦٤ ﻫ) أن هذه الذكرى كانت خليقة بأن تبعث على الفرح والسرور لولا الأمر الشرعي بالحزن والبكاء ، قال :

« ولولا امتثال أمر السنّة والكتاب في لبس

شعار الجزع والمصاب . لأجل ما طمس من
أعلام الهداية وأسس من أركان الغواية . وتأسفا
على ما فاتنا من السعادة وتلهفاً على امتثال تلك
الشهادة وإلا كنا قد لبسنا لتلك النعمة الكبرى
أثواب المسرَّة والبشرى . وحيث في الجزع رضىً
لسلطان العباد ، وغرض لأبرار العباد ، فها
نحن قد لبسنا سربال الجزوع ، وأنسنا بإرسال
الدمـــوع [1] .

هل البكاء مطلوب لذاته ؟ أو أن المطلوب هو الحزن الذي قد يدفع إلى البكاء وقد لا يعبر عنه البكاء وإنما يبقى حرقة في القلب ولوعة في حناياه ؟ أو أن المطلوب ليس هذا وذاك ، وإنما المطلوب شيء آخر يعبر عنه هذان المظهران ، المظهر الذاتي بالحزن ، والمظهر الخارجي بالبكاء ؟.

سنحاول من خلال الأبحاث التالية التعرف إلى هذه الظاهرة من حيث أساسها ومغزاها .



(١) اللهوف في قتلى الطفوف ، ص : ٣ .

النصوص المتنوعة

وردت عن أئمة أهل البيت منذ الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين وإلى الإمام المهدي المنتظَر نصوص كثيرة جداً تحثّ على البكاء لمصاب الإمام الحسين ، فإن لم يتيسَّر له البكاء فعليه أن « يتباكى » والتباكي هو التظاهر بالبكاء .

وقد اشتمل كثير من هذه النصوص على بيان ما لمن بكى على الإمام الحسين من الثواب الجزيل عند الله تعالى والدرجات الرفيعة في الآخرة ، وكذلك الحال فيمن أبكى على الحسين بشعر يقوله فيه أو بغير ذلك .

ومن المعروف في الشريعة الإسلامية وأخلاقيات الإسلام أنها لا تشجّع على إظهار الجزع للموت والتفجع والجزع على الميت ، بل ترى أن ذلك مكروه ، وبعض مظاهره محرم ، ولكن ذلك لا يسري على ما يحصل من البكاء والجزع والتفجع على الإمام الحسين .

روى أبو حمزة الثمالي عن الإمام الصادق أنه قال :

« إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي عليه السلام ؛ فإنه فيه مأجور » .

ويبدو أن السرّ في مشروعية هذا البكاء وهذا الجزع مع كراهة ما عداه وتحريم بعض أفراده هو أن البكاء والجزع ليس أمراً شخصياً يتعلق بعاطفة بشرية تتفجر بالأسف على ما فات وإنما هو حزن على قضية دينية عامة تتمثل بالإمام الحسين وثورته ، فالحزن ليس موقفاً عاطفياً وإنما هو موقف مبدئي يعبّر المؤمن عن التحامه به واعتناقه له بهذا التعبير العاطفي .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحليل ظاهرة البكاء

من أجل فهم هذه الظاهرة في ذاتها أولاً ، ومن أجل فهم مدلولها التاريخي ثانياً ، نقول :

نحن في ذكرى الحسين نواجه مسألة تاريخية نقرؤها أو نسمعها ، وعند هذه الحقيقة نواجه سؤالاً حاسماً : كيف نكتب التاريخ وكيف نرويه ؟ كيف نكتب وكيف نروي تاريخ الإنسان الذي يحب ويبغض ـ مثلنا نحن الأحياء ـ والذي يخيب وينجح ـ مثلنا ـ والذي يمتلىء قلبه بالحزن والفرح ـ مثلنا ـ والذي تواجهه التحديات العظمى فلا يفر منها ، ولا يحتال عليها ، بل يثبث لها ، والذي تحل به الكوارث العظمى فيواجهها ببطولة أسطورية في التاريخ . تاريخ الإنسان كيف نكتبه وكيف نرويه ؟ هل نكتبه كما نكتب تقريراً عن الوضع الإقتصادي ؟ هل نكتب تاريخ الإنسان كما نكتب تاريخ طبقات الأرض أو تاريخ المتحجرات ؟ هل نحول التاريخ إلى جداول إحصائية وعمليات تحليل للأرقام ودلالاتها ؟ .

أم نكتب التاريخ ونرويه فنصور به حياة الأنسان المكون من لحم ودم ، وطموح وأمل ، وحب وبغضاء وبطولة وخسة من عواطف سامية وشهوات حقيرة ، وبكلمة واحدة : تاريخ الإنسان .

لا أتوهم ان باحثاً عالماً وأميناً يسمح لنفسه أن يقول : لا ، وأن يزعم أن علينا أن نكتب التاريخ ونرويه بلغة الأرقام .

وإذا كان التاريخ يكتب ويروى باعتباره تاريخ الإنسان ، فلنسأل : كيف نقرأ التاريخ وكيف نسمعه ؟ هل نواجهه بعقل بارد وقلب بارد ؟ هل نمنع أنفسنا من الفرح حين تنفعل بالفرح ؟ وهل نمنع أنفسنا من الحزن حين تشعر بالحزن ؟ وهل نمنع أنفسنا من الإشمئزاز حين تشعر بالإشمئزاز ؟ لا أظن أن إنساناً عـالمـاً وأميناً يرضى لنفسه أن يقول هذا .

نحن وجميع الناس في جميع الأزمـان والأوطـان يكتبون التاريخ ويروونه ، ويسمعون التاريخ ويقرؤونه فينفعلون بمـا يسمعون ويقرؤون : يحزنون أو يفرحون ، يُعجبون أو يشمئزون ، وقد يتعاظـم انفعالهم فيبتسمون ، أو تجري من عيونهم دموع الحزن والفخر والإعجاب .

دعونا من التاريخ . حين نقرأ أو نسمع القصة الجيدة ، أو القصيدة الجيدة ، أو المسرحية الجيدة ألا تنفعل قلوبنا بمـا نقرأ أو نسمع ؟

من كل هذا يتبين لنا تفاهة كل النقد الذي يقال عن مظاهر الحزن في المـأتم الحسيني ، وسطحية النظرة التي تعالج بها هذه المسألة ، إننا في المـأتم الحسيني نسمع تصويراً تاريخياً لفاجعة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، قتل فيها أشخاص مقدسون ، وارتفعوا إلى أعلى المراتب الإنسانية بذلاً وتضحية وفداء في عملية عطاء محض ، وقتل فيها أطفال ونساء ، عطاشى غرباء متوحدين ، وحملت رؤوسهم ، وسبيت نساؤهم ، كل هذا ليس من أجل أشخاصهم وإنما من أجل أمتهم وعقيدتهـم ، أمتهم التي نحن منها ، وعقيدتهم التي نعتنقها ـ فمن حقنا ـ كبشر أسوياء أن نحزن ، وان نعجب وان نشكو وقد يتعاظم بنا الحزن فنبكي دموع الحزن والإعجاب وعرفان الجميل .

يبقى علينا الكشف عن المدلول التاريخي لهذه الظاهرة ، وهو يتجلى لنا بوضوح إذا لاحظنا أن أئمة أهل البيت كانوا هم قادة الدعوة الإسلامية ، والقيادة المعارضة للإنحراف في فهم الإسلام وتطبيقه ، وكانوا بالمرصاد

دائماً لكل انحراف وتجاوز يصدر عن السلطة الحاكمة ، وما أكثر انحرافها وتجاوزاتها ، ومن هنا فقد كان موقفهم يضعهم دائماً في موضع المعارض الصامد ، وكان رد فعل السلطة هو العنف والملاحقة والإضطهاد على أئمة أهل البيت وعلى أتباعهم . وقد بلغ الإضطهاد من السعة والشمول في بعض الأحيان أنه كان يتعدى اشخاص الأئمة وأسرهم ليشمل جميع العلويين وذلك كالذي فعله المتوكل ـ فيما يحدثنا به أبو الفرج الأصبهاني ـ في مقاتل الطالبيين ـ (فقد كان المتوكل لا يبلغه أن أحداً برّ أحداً من آل أبي طالب بشيء وإن قل الا أنهكه عقوبة وأثقله غرماً . حتى بات القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلين فيه واحدة بعدواحدة ثم يرفعنه ويجلسن على مغازلهن عواري حواسر) .

وإذن فنحن أمام عقيدة مضطهدة ، تلاحق في اشخاص قادتها واتباعها بشكل وحشي يضطرهم إلى إخفاء عقيدتهم حفاظاً على حياتهم . ومن الأمور الواضحة اجتماعياً ـ ونفسياً ان القناعة الفكرية وحدها بالعقيدة لا تقدم ضمانة كافية للثبات والصمود أمام الاخطار الخليمة ، والإضطهاد الـ[illegible] الذي يستمر قروناً بعد قرون . ان العنف المدروس المستمر ، والإضطهاد الذي لا يتورع عن شيئ سرعان ما يحطم التماسك [illegible] الجماهير حول العقيدة التي لا يتاح لهذه الجماهير أن تتصل بقادتها بحرية وأمان ، ولا يتاح لها دائماً أن تظل على إتصال تام بأفكار العقيدة ومواقفها ، ولا يتاح لها أن تمارس حياتها علناً وفقاً لعقيدتها .. إذا أدخلنا في حسابنا ان المسلم الشيعي العادي كان لا يبدو أمامه أمل بانفراج قريب ، وعلينا أن ندخل في حسابنا ان اضطهاد الشيعة في التاريخ لم يتوقف بصورة كاملة إلا في العقود الأخيرة من السنين .

ونلاحظ أن ثورة كربلاء المجيدة تمثل ذروة موقف المعارضة الذي قاده أهل البيت ضد الإنحراف في فهم الإسلام وتطبيقه . فهي

نتيجة سلسلة من المواقف السابقة ، وفاتحة سلسلة من المواقف المقبلة ، وهي بشخصيتها المتميزة تكشف بوضوح مطلق عن طبيعة الصراع بين أهل البيت وبين خصومهم ، وعن أهداف هذا الصراع ، وهي غنية إلى درجة مطلقة بعناصر النبل الإنساني والإثارة العاطفية .

فمن أجل أن يبقى الشيعة على صلة حية بالأفكار والمبادئ الاساسية للصراع بين أهل البيت وبين خصومهم .

ومن أجل أن يكون لديهم ـ باستمرار ـ مثل أعلى خارق السمو للتضحية والفداء في سبيل الحق والعدل .

ومن أجل أن يضاف إلى القناعة الفكرية بالعقيدة رباط عاطفي يضفي على القناعة الفكرية حرارة وقوة ومضاءفي مواجهة الإضطهاد والصبر على الشدائد ، ويحافظ على التماسك أمام ضربات العنف ، ويحيط الموقف العقلي بوهج عاطفي يرتفع بالعقيدة من مرتبة الحالة العقلية إلى مرتبة الحالة الشعورية .

من أجل كل ذلك دعا أهل البيت إلى نظم الشعر في الحسين وثورته ، ودعوا إلى إحياء ذكراه .

وبعد ، هذا حديث عن ثورة الحسين في الوجدان الشعبي . وستبقى هذه الذكرى مثلاً حياً يهز بروعته الطارقة ، ودعوته السامية ، وفدائيته العالية الضمائر والقلوب ، وستبقى تدوي في ضمير التاريخ كلمات السيدة زينب ليزيد بن معاوية ، وهي سبية وهو خليفة ، حين قالت له : (كد كيدك واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا يدحض عنك عارها ، وهل رأيك إلا فند وأيامك الا عدد ، وجمعك إلا بدد) .

محمد مهدي شمس الدين

الفهرس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الدار الإسلامية









